ميامر مار إسحق السرياني

الجزء الثالث

أعدّه للنشر

القمص تادرس السرياني

البـاب الأول

****

في محبة اللـه

****

النفس المحبة لله وجودها وراحتها ونياحها بهِ وحده فقط.

بادر إلى حل كل رباط براني من ذاتك، وحينئذ تقدر أن تربط قلبك بالله سـبحانه، لأن الانفصال من الهيولي يتقدم أولاً الاتصال بالله.

إن الخبز يعطى للطفل من بعد الفطام، وهكذا الإنـسان الـذي يريـد أن يحظـى بالإلهيات ينبغي عليه أولاً أن يتغرب من العالم كالطفل من ثدي أُمه.

الأعمال الجسدانية تتقدم الفِلاحة النفسانية كتقدم التراب على النفس التي نفخها الله في آدم. والذي ليست له أعمال جسدانية ما يقدِر أن يقتني العمل النفساني، لأن هذه مـن تلك تتولد كالسنبلة من الحبة المجردة. ومن ليس له العمل النفساني قـد عـدم المواهـب الروحانية، لأن الأتعاب والأحزان الزمنية من أجل الحـق لا تُقـاس بـالنعيم للعمـالين بالفضيلة (رو ٨ : ١٨).

وكما أن باذري البذور بالدموع تتبعهم حزم السرور (مزمور ١٢٦ : ٥)، هكـذا يقفو الأتعاب والأعمال من أجل الله الفرح.

إن الخبز الذي من العرق يلذ للفلاح، هكذا والأعمال لأجل البر بالمسيح تُبهج القلب الذي قِبل معرفة المسيح له المجد.

اصبر على المحقرة والاتضاع بفكر وقصد الفضيلة لتفوز بدالة القلب عند الله.

كل كلمة قاسية صعبة يحتملها الإنسان بإفراز من غير سبب ذنب، أما فـي ذلـك الوقت فإنه يقبل على رأسه إكليل شوك من أجل المسيح، وطُوباه لأنه يطَوب ويتَوج فـي وقت لا يشعر به بتاج لا يلم به فساد.

الهارب من التشريف بمعرفة هذا قد أحس في ذاته برجاء العالم الآتي.

من قال أنه قد طرح العالم ثم مع ذلك ينازع الناس في شيء ما، لئلا يعوزه شـيئاً من نياحه فإنه ضرير كامل، لأنه قد ترك الجسم بإرادته، ثم أنه يخاصم ويناقض من أجل واحد من أعضاءه.

الهارب من النياحات الحاضرة قد لاحظ عقله العالم الآتي. (ملكوت السموات).

أما المرتبط بحب القنْية فإنه عبد الآلام.

لا تظن أن اقتناء الذهب والفضة فقط هو حب القنْية، بل كل ما تَعلقَـتْ إرادتـك بشهوته.

لا تمدح الذي بجسده يتعب وبحواسه ينحل ويطمع أعني السمع وانفتاح الفم وقلـة انضباط اللسان وطموح العينين (شرود العينين).

إذا وضعت لنفسك قصد أن تتدبر بأفعال الرحمة، فعودها أن لا تلتمس العدل فـي أبواب أُخَر، لئلا تكون بمنزلة من يعمل بيد واحدة ويفرق بـالأخرى، لأن هنـاك أنـت مضطر للشفقة، وأما هنا فإلى سعة القلب.

اعلم أن الصفح عن ذنب المذنبين ليس هو عمل العدل وحينئذ ستُعاين سلام يـسير في فكرك من كل ناحية.

أعني إذا كنت تتدبر في طريقك فوق الواجب والعدل حينئذ ستقترب بالحرية فـي كل أمر ووقت.

قال بعض القديسين في هذا المعنى: " **الرحوم إن لم يكن عادلاً فهو أعمى** "، أعني أنه يمنح الآخرين ما لم يتعب فيه بنفسه ويكتسبه بالعدل، لا من المداهنة بتوسـط الكـذب والجور والحيل.

وقال أيـضاً: إن تؤثر أن تزرع في المساكين فازرع مما يخصك، وإن زرعت من الجهات الغريبة فاعلم أن ذلك الأمر من الزوان.

وأنا أقول أنه إن لم يكن الرحوم فوق العدل فليس برحيم، أعني أنه لا يعطي الناس مما يخصه فقط، بل ويكون ذا فرح واغتباط بذلك، صابراً على ظُلم قوم ثم محسناً إليهم.

إذا ما غلبت العدل بالرحمة، حينئذ لا تَتَكال بأكاليل أبرار الشريعة، بـل بأكاليـل كاملي البشارة، لأن إعطاء المرء المساكين مما يخصه وإلباسه العاري، ومحبة القريـب كنفسه ولا يظلم ولا يكذب .. أموراً قد أتى بها الناموس القديم، فأما كمال بشارة التـأنس فيأمر قائلاً: **" مَنْ سألكَ فأعطهِ، ومَنْ أرادَ أن يقترض منك فلا ترُدَّهُ " (مت ٥ : ٤٢)**.

ليس ينبغي عليك فقط الصبر على كل جور في سبب القنْية، وما هو خارج عنك بل وأن تبذل نفسك (عن) الأخ، لأن هذا هو الرحيم وهو الذي يرحم أخاه، ولـيس يعطيـه فقط، بل من رأى أخاه محزوناً أو سمع أنه كذلك فالتهب قلبه، هذا رحيم علـى الحقيقـة ومثل هذا أيضاً من لطمه أخوه فلم يقْدِم على إجابته بكلمة أو أن يحزنه بشيء.

اكرم عمل السهر لتجد في نفسك عزاء قريباً.

ثابر على القراءة في هدوء ليرتشد عقلك في أعاجيب الله.

حِب المسكنة بتجلد لينجمع فكرك من التشتت.

امقُت الفصاحة فتنصان أفكارك من الاضطراب.

انقبض من المحادثة مع كثيرين واحمل هم تدبيرك وسيرتك لكي تتخاص نفسك من تشتت هدوئها الداخلي.

حِب العفة حتى لا تخزى في وقت صلاتك قُدام واضع جهادك.

أقتن نقاوة في تدبيرك لتنير نفسك في صلاتك، وبذكر المـوت يـشتعل الـسرور في فكرك.

احتفظ من الصغائر لئلا تقع في الكبائر.

لا تُكسِل في الأعمال الصالحة حتى لا تخزى إذا مثُلْت في وسط رفقاءك، لا تكـن بغير زاد لئلا يخليك خِلانك وسط الطريق ويمضون.

اصنع عملك بمعرفة وتمييز لئلا تتعطل وتتخاف من سيرك جميعه.

أقتن حريتك في تدبيرك لتُعتق من الخباط.

لا تربط حريتك بأسباب الراحات لئلا تصير عبد العبيد.

حب الثياب الذرية الحقيرة في تدبيرك لكي تنمقت الأفكار المعظمة في القلب بالتيه والصلف، لأن محب الثياب الوضاءة الغالية لا يقدر أن يقتني أفكاراً متضعة، لأن القلب بالضرورة يتشكل من داخل حسب الأشكال التي من خارج، لأنه بالسوية يسير مع ما كان خارجاً.

من ذا الذي أحب الهذيان وقدِر أن يكون فكره عفيفاً ؟

من ذا الذي يتحايل أن يتصيد الكرامة من الناس من خارج ويمكن أن يقتني أفكاراً منسحقة ..؟

من ذا الذي يكون فاسقاً ومنحل الأعضاء ويمكنه أن يكون طاهر القلب متضعاً ؟

متى ما انجذب العقل مع الحواس، أكل معها غذاء الوحوش .. ومتى ما خضعت وانجذبت الحواس للعقل تتناول معه طعام الملائكة.

المجد الفارغ إذا اتحد بالعظمة فيصبح خادم الزنا، أما الاتضاع مع الابتعاد الدائم عن الكل فيصادف الثاؤريا ويسلح القلب بالعفة.

أما المنحرف البطن تجلب مداومة طياشة الفكر بسبب مصادفة وملاقاة أمور كثيرة، بنظر فاسق وتلهب العقل بأفكار نجسة، وأما الاتضاع بثاؤريته ينقبض انقباضاً روحياً ويحرك مقتنيه على التسبيح والتمجيد.

حب بطالة السكون أفضل من إشباع جياع العالم، ورد عدة من الأمم إلى عبادة الله.

لا تقيس صانعي الآيات والمعجزات والقوات في العالم بالساكنين بمعرفة في الهدوء لأن الأفضل لك أن تفُك ذاتك من رباط الخطية دون أن تعتق عبيداً من العبودية في سجن أسراهم.

اصطلح أنت مع ذاتك باتفاق الثالوث الذي فيك، أعني النفس والجسد والروح، أفضل من أن تصلح المتغاضبين بتعاليمك، لأن الثاؤلوغوس يقول: حسناً هو الكلام في الله تعالى لأجله، وأجلّ من هذا أن يطهر الإنسان ذاته لله سبحانه.

الأصلح لك أن تكون قليل الكلام مع أنك عالم ومحنك وذو معرفة في تجربة

الأشياء بداخلك، من أن تفيض أنهار تعاليم مع حدة عقل من اكتساب السماع والكتب.

الملائم لك أن تهتم بإقامة ميتوتك من الآلام إلى الحظو بالله، أكثر مـن إحيـاؤك أموات.

كثيرون صنعوا آيات وأقاموا أمواتاً وتعبوا في رد ضالين وعملوا عجائب عظيمة، وبأيديهم أي بواسطتهم وإرشادهم كثيرون اهتدوا إلى معرفة الله والحق، وبعد هذا هؤلاء الذين أحيوا آخَرين سقطوا هم في آلام نجسة مرذولة وأماتوا أنفسهم وصاروا شكاً للـذين آمنوا على أيديهم، بما ظهر من انقلاب عملهم في الآخِر، لأنهم كانوا مرضى النفوس ولم يهتموا بإيراد الصحة عليهم، بل انصبوا إلى بحر هذا العالم رغبة في أن يعالجوا نفـوس آخرين وهم مرضى، فأهلكوا ذواتهم وخابوا من رجاء الله تعالى على الجهة التـي مـن شأنها تُشجع ضغط الآلام على الذين هم بعد محتاجين إلى التحفظ والاحتراس، أعنـي ألا ينظروا نساء، ولا يلتمسوا نياحاً، ولا يقتنوا مـالاً ولا أثاثـاً، ولا يرأسـوا آخـرين، ولا يترفعون على قوم آخرين.

الأوفق لك أن يظن بك أنك من الجهال لقصور معرفتك عن الجواب، ولا يعتقد فيك أنك من الحكماء بسبب التبجح والوقاحة.

وبخ المتجادلين بقوة فضيلتك لا بالكلام، وذلك بهـدوء شـفتيك وعفـة لحيظتـك المنقبضة إليك، وبالهدوء خجل الفسقة بعفة سيرتك وليس بالكلام.

تفاقر لأجل الاتضاع، ولا تكن موسراً لأجل التوقح، غريباً أحسب نفسك كل أيـام حياتك حيثما توجهت، ليمكنك التخلص من الخسارة التي تتولد من الدالة. تصور ذاتك أنك في كل وقت ما تعرف شيئاً ليمكنك أن تنجوا من الملامة التي فيك بالظن لتقويم آخرين.

بارك دائماً بفمك فإنك ما تُذم من أحد، لأن المذمة تولد مذمة، والبركة تجلب بركة.

اعتقد أنك مفتقر في كل أمر إلى التعليم، فستكون حكيماً مدة حياتك كلها.

لا تسلم أحداً شيئاً ما لم تصل إليه وتحكمه، ولا تدبير مـا وصـلت إليـه، حتـى لا تخزى في ذاتك ويتبين كذبك من قياس سيرتك.

إذا ما فاوضت إنساناً ما في أمر من الأمور النافعة أو الأشياء الواجبة، ففاوضـه

مفاوضة متعلم لا متبجح بجلال وسلطة وتوقح، وبادر بخفض ذاتك وإقامة البرهان على أنك دونه لتُري السامعين ترتيب الاتضاع وتحركهم بزيادة على استماع ألفاظك والمسارعة إلى العمل، وتكون مكرماً في أعينهم، وفاوض في مثل هذه الأمور ببكاء ودموع لتنفع ذاتك وسامعك وتشملك نعمة الله تعالى.

إن أدركت بتفضل الله جل وعز، وأؤهلت للتنعم بتصور الثاؤريا برايا الله المنظور، الذي هو أول عمل المعرفة، فأعد نفسك وسلحها ضد روح التجديف، ولا تمكث في هذه البلادة بلا سلاح لئلا يميتك سريعاً الكامنون لك والمضلون.

وليكن سلاحك الدموع والصوم المتصل.

تحفظ من قراءة الكتب التي تفرز العبارات وآراء المخالفين، وإياك الدنو منها، لأن هذا الأمر هو الذي يوثب عليك على الأكثر روح التجديف.

إذا ما ملأت بطنك فلا تتوقح وتقدم على شرح أو فحص شيء من الإلهيات لئلا تذم، لأن علم أسرار الله سبحانه وتعالى لا يوجد في جوف ملآن.

افهم ما أقوله لك ..

اقرأ دائماً في غير شبع في صحف أُناس نيرين في سياسة الله سبحانه التي تظهر اختلاف أعماله بخلقه إفراز طبائع العالم ليتقوى منها عقلك ويقتني حركات نَيرة مضيئة من لطافتها ليسير فكرك بطهارة إلى تمعن خلائق الله جل اسمه وقصد استقامته، وضع خلقة هذا العالم حسب حكمة فكر بارئ الطبائع.

اقرأ في العتيقة والحديثة العهدين الذين وضعهما الله تعالى لأجل معرفة كل المسكونة لكي تتزود من قوة سياسته في كل الأجيال ويلج قلبك إلى أعاجيب الله سبحانه، لأن هذه القراءة تلائم قصدك، ولتكن قراءاتك في هدوء من الكل واعتق ذاتك من فرط الاهتمام بالجسد واضطراب الأشياء، لتذوق في نفسك مذاقة لذيذة بإفهام حلوة تفوق الحواس وتحس نفسك بها لمداومتك عليها.

لا تكن أقوال المحنكين بالتجربة عندك بمنزلة أقوال الأفاكين بياعي الكلام والمتصرفين في الأقوال الإلهية لغير وجهها لئلا تلبث في الظلام لآخِر حياتك وتعدم فائدتها وتنزعج

في وقت القتال انزعاجاً مضطرباً وتقع في حفرة وهوة بحجة أنها وجه حق.

لتكن لك هذه العلامة في الأمور: إذا قربت إلى الدخول جوا ذلك البلد، إذا بـدأت النعمة تفتح عينيك لتحس بجو إدراك الأمور إدراكاً حقيقياً، حينئذ تبدأ في سكب الـدموع نحوها حتى أنها على أكثر الأمر تبل الخدين بكثرتها، وفي الوقت تسكن حرب الحـواس وتنقبض بلذة داخل منك.

إذا علمك إنسان بما يضاد هذه الأمور فلا تثق بأقواله، فبغير الدموع لا تخطب من الجسد دليلاً واضحاً بحسس الحق بعلامة واضحة، إلا أنه بالهـدوء فقـط مـن انفعـال الأعضاء فقط.

إذا ما ارتفع العقل من الكائنات، عند ذلك الجسد أيضاً تزول منـه الـدموع وكـل حركة وإحساس ما خلا حياته الطبيعية لأن تلك المعرفة ما تتنازل وتأخذ معها مـشاركة وتستعير شيئاً من أشكال هذا العالم المحسوس بل بنظر العقل.

إن كان بالجسد أو بغير الجسد لست أعلم الله يعلم وأنه سمع كلاماً لا ينطق به لأنه ليس بصوت محسوس سمع ولا نظر أشكال متجسمة بالحس قد نظر، بل بحركات الفكـر بانخطافه من الجسد وليس بمشاركة الإرادة.

ما لم تنظر عين مثله ولا سمعت أُذن قياسه ولا تخيل للقلب شـبه نظـره، لكـي بتصور أنواع معرفته الشيء الذي أعده الله لأنقياء القلوب بميتوتهم من العالم.

ليس هو نظراً جسدانياً يقبل إفرازاته بأعين جسدية ولا خيالات استعارية تتـصور في الفكر، بل بشهوة ثاؤرية المعقولات بالتصديق المحق أمراً يفوق القياسـات والأقـسام المفروزة توضع الأيقونات العناصر.

حسب قوة نظرك أشخص نحو قُرص الشمس لتنعم بشعاعات إشراقه فقط، ولـيس لتفحص سرعة فلكه، لئلا يساب منك النظر القياسي.

إذا ما وجدت عسلاً فكل منه بمقدار معتدل لئلا تتقيأ عند الامتلاء.

إن طبيعة النفس شيء خفيفاً، فربما تشتاق أن ترتقي وتعلم ما فوق طبيعتها، والدليل على ذلك أنها قد تدرك أمراً ما من قراءة الكتب وتصور الأمور، فإذا قايست ما وصـلت

إليه معرفتها بما قد أدركته فإنها توجد ناقصة وحقيرة بحسب مقدار سياسـتها حتـى أن الخوف والوجع يلمان بهواجسها وتحرص على الرجوع إلى ورائها من الخـوف إذ هـي بمنزلة متوقحة على أمور روحانية ويقمعها الجبن لأجل مخافة الأشياء ويـشير الإفـراز على عقل النفس بالصمت وترك التوقح وعدم طلب مـا هـو فوقهـا أو الفحـص عـن الموجودات التي هى أعلى منها لئلا تهلك.

إذا أنعم عليك بالقدرة على الإدراك والتصور فتصور ولا تتوقح على الأسرار بـل اسجد ومجد الله واشكر غير المدرك بسكوت لأنه أظهر لك ما يفوق مقدارك ولا تتصعب في بقية أعماله لأنه كما أنه ليس بمحمود أكل الكثير من العسل، هكـذا لـيس بـصواب الفحص عند الأقوال العالية الشريفة لئلا إذا ما أردنا أن ننظر مدة طويلة بعدما قد وصلنا إلى قرب إدراكها لأجل خشونة الطريق تضعف قوة الصلاة وتتأذى، لأنك ربمـا تـشاهد تخايلاً ما بدلاً من الحق، فإذا ضجر العقل من البحث ينسى قصده. لقد أحسن سـليمان إذ قال: إن الإنسان الذي ليس بصبور يساوي مدينة لا سور لها (أم ٢٥ : ٢٨).

أين الضرورة التي تلجئنا أن ندور على الله في الـسماء والأرض، وأن نطـوف بعقلنا وراءه في الأماكن؟ طهر نفسك أيها الإنسان، وأزل عنك ذكر اهتمام الأمور الخارجة عن طبيعتك وهذيذ التذكارات البرانية وعلق على باب حركات ذهنك ستر العفة والاتضاع، فإنك بتوسط هؤلاء تجد الله داخلك، والدليل على ذلك أن الأسرار تنكشف للمتواضعين.

إن كنت أعطيت نفسك لعمل الصلاة المطهرة للعقل ولمداومة سهر الليالي لتقتنـي فكراً نيراً، فابعد ذاتك عن نظر العالم واقطع مفاوضة المحادثات ولا تـستجيز إحـضار أصدقاء إلى قلايتك جرياً على المألوف، ولا بقصد الفضيلة، بل المماثلين إياك والمساويين لك في الطريق والأغراض والفهم.

ومع هذا احذر من اختلاط المفاوضة النفسانية التي من شأنها أن تتحـرك كرهـاً بالخفاء من غير من أن نشاء نحن ومن بعد انقضاء المحادثة البرانيـة أقـرن بـصلاتك الفضائل والصدقة لتنظر نفسك شعاع إشراق الحق.

بقدر ما يهدأ القلب من الأمور والتذكارات التي من خارج على ذلك الحـد يقبـل

العقل دهش الألفاظ.

من شأن النفس أن تستبدل محادثة بمحادثة إذا ما اجتهدنا أن نظهر يسير اهتمامنا.

اعكف على قراءة الكتب التي تظهر لك لطافة طرق تدبير الثاؤريا وعلى فهم سير القديسين، وتدبيرهم وإن لم تحس في البداءة بالحلاوة الروحية من أجل الظـلام والتكـدر اللاذين من التذكارات القريبة العهد فانقل مفاوضة بمفاوضة.

وإذا ما نهضت إلى الصلاة وتكميل القوانين فتوفر على فهم الصحف التي تقرأهـا لكي عوضاً عن الهذيذ بالعالميات يرتسم في فكرك الهذيذ الذي من الكتب وبهذا ينسى ويمحى من فكرك ذكر الأشياء التي نظرت وسمعت من قبل ويبتدئ عقلك بعد ذلـك بالطهـارة، وهذا هو معنى المكتوب أن النفس تعان من القراءة، إذا ما مثلت في الصلاة وأيضاً تستنير في الصلاة من القراءة أعني عوضاً عن الطياشة الخارجية توجد للنفس مادة لتغيير أنواع الصلاة إفهاماً حقيقية تتصور بالفكر من التذكارات المدهشة التي من هناك. وكم من وقت يصمت بذهول من الصلاة وتقيمه تلك القوة التي من ثاؤريا الكتب بغير حركة.

في هذه الأوقات أيضاً له عادة أن يقطع حتى الصلاة بسبب الحلاوة التي قلت عنها ويلقي على القلب سكوناً وهدوءاً ويسكت حركات العقل.

بتخاف وانحلال الأعضاء النفسانية والجسدانية أيضاً يعرف الشيء الـذي أقولـه، أولئك الذين أخذوا تجربة هذا الأمر في أنفسهم داخل هذه الأسرار وليس من تعليم آخرين ولا اختطافاً من الأسطر التي من شأنها في أوقات كثيرة أن تكذب على الحق.

ما أقبح فاسقي الأجسام وذوي الشره والراغبين في امتلاء البطون أن يفحـصوا أو ينظروا في الأمور الروحانية كما هو قبيح بالزانية وسمج منها جداً أن تتكلم عن العفة.

الجسم الضعيف جداً يأبى الطعام السمين، والنية تنفر وتبتعد منه، وعقل مملوء من العالم ومحادثاته ومضطرب بالأمور ما يقدر أن يدنو من الفحص من الأعمال الإلهية.

نار في حطب رطب ما تشتعل، وحرارة إلهية في قلب يود النياح والحـديث مـع العلمانيين ما تشتعل.

الزانية ما تصرف محبتها لأحد، ونفس مربوطة بأمور كثيرة ووعظ وإرشاد فـي

العالم، ما يدوم مكثها في التعاليم الإلهية.

كما أن الذي لا يعاين الشمس بعينه ما يقدر أن يشرح لإنسان ما هو ضوءها، ومن السماع فقط ما يقدر أن يتخيل نورها بفكره، ولا يستطيع أن يأخذ شبهها في نفسه لكي يحس ببهاء شعاعها، هكذا هم الذين لم يذوقوا في نفوسهم حلاوة الأعمال الروحانية ولا استحقوا من سيرة تدبيرهم أن يكونوا داخل تجربة الأسرار الروحانية، بل يأخذون في فكرهم تشابيه شبه الحق من تعاليم الناس ودربة من قراءة الكتب ولم يحصل في نفوسهم اقتناع حقيقي وإدراك حقيقة الأشياء.

إن كان لك شيء يفضل عما تحتاج إليه في يومك، فأعطه للمساكين .. وهلم بدالة قدم صلاتك أي تحدث مع الله تعالى كما يتحدث الابن مع أبيه.

ليس شيء هكذا يقدر على إدناء القلب من الباري جل وعز مثل الرحمة، وليس أمر من الأمور يصنع هدوء في العقل مثل المسكنة الاختيارية.

الأفضل لك أن يدعوك الأكثرون عامياً لأجل بسط يدك في العطاء بغرض مخافة الله، وليس لطلب مدحه .. ولا أن يدعوك حكيماً رزين العقل لأجل عدم اضطرابك من أحد ومع كل أحد.

إن جاء إليك الأمير راكباً على جواد، مادّاً يده طالباً صدقة .. فلا ترده .. لأنه لا محالة محتاج في ذلك الوقت كواحد من الفقراء ..

وإن منحته فليكن ذلك بطيبة نفس وبهجة وجه، وأعطه أكثر مما يطلب، لأنه يقول **" اِرْمِ خُبزك على وجهِ المياه فإنَّكَ تجدُهُ بعد أيامٍ كثيرةٍ "** (جا ١١ : ١).

لا تفحص غنياً من فقير ولا تؤثر أن تعرف المستحق من غير المستحق، بل ليكن الناس عندك كلهم بالسواء في الخير، لأنك بهذه الطريقة تقدر أن تجتذب إلى الخير الذين ليسوا بمستوجبين، لأن النفس تنجذب سريعاً من الجسمانيات إلى خوف الله تعالى، والدليل على ذلك أن الرب تقدس اسمه اشترك في موائد العشارين والخطاة ولم يفرز الذين غير مستحقين ليجذب بهذه الطريقة الكل إلى مخافة الله تعالى.

ولكن بالشركة في الجسدانيات بينهم يجذبهم إلى الشركة في الروحيات.

لهذا السبب ساو بين الناس قاطبة في الخير والكرامة.

لا توبخ إنساناً قط.

احرص أن يكون الناس كلهم عندك بالسواء (متساويين) يهودياً كان أو قـاتلاً أو كافراً سيما وهو أخوك بالطبيعة الإنسانية، إنما قد ضل عن الحق لعدم التعلم.

إذا ما صنعت مع إنسان ما جميلاً، فلا تتوقع منه المكافأة قريباً، لأنك ستجازى من الله سبحانه عن الأمرين كليهما، وإن أمكنك ذلك ولا من أجل المكافأة في الـدهر الأتـي لكي تتفاضل بزيادة في محبة الله، لأن درجة الحب هى عميقة وأفضل جداً مـن العمـل لأجل المكافأة، وهى متداخلة بسره أكثر من فعل الخير، كما أن النفس متداخلة بالجسد.

إن وضعت في ذاتك حد المسكنة فستنعتق بتفضل الله تعالى من الهموم، وتـصير بمسكنتك أعلى من العالم.

إياك أن تحب القنية من أجل محبة المساكين لئلا تكون صدقتك من هـذا الوجـه، وتلقي نفسك في خباط بأن تأخذ من الواحد وتعطي الآخر، وتبيد كرامتك بخضوع الطلب من الناس وتخيب من جنسك وتعدم حرية فكرك باهتمامك بالأمور العالمية لأن منزلتـك أعلى من الراحمين.

أنا أسألك ألا تنخدع .. فإن الرحمة مشابهة لتربية الطفل، أما السكون فهـو غايـة الكمال.

إن كان لك قنية ففرقها مرة واحدة، وإن لم يكن لك فلا تؤثر أن يكون لك.

أذل من قلايتك التنعم والأمور الزائدة عن حاجتك، لأن هذا الشيء يقود إلى النسك، إن شئت أو لم تشأ، لأن العوز إلى الأمور يعلم الإنسان الإمساك، لأننا أن امتلكنا أشـياء كثيرة وتوسعنا فيها لا نقدر على إمساك ذواتنا.

الظافرون بالحروب البرانية إنما يتشجعون بالخوف الذي من داخل، وليست لهـم ضرورة تجذبهم باغتصاب إذا ما اضطربوا بالقتال الذي من قدام ومـن وراء، وأقـصد بالقتال إلى الحروب الواثبة على النفس من جهة الحواس والتواني الذي يثيره الإنسان على

نفسه باختياره بجهالة، أعني بالأخذ والعطاء والسماع والنظر والكلام وشره الـبطن، وأن يكثر لنفسه أفعاله المتواترة الجالبة على نفسه العمى، وذلك أن النفس من الاضطراب الذي يلاقيها من برا ما تقدر أن تتأمل ذاتها في الحروب المتحركة عليها خفية، وأما في السكون والهدوء فتقدر على الفتك بما يتحرك من داخل.

إذا ما أغلق الإنسان أبواب المدينة، أعني الحواس، عند ذلك يكون القتـال وجهـاً لوجه، ومن الكمين الذي وراء المدينة لا يخاف.

مغبوط هو الإنسان الذي يعرف هذا ويلازم السكوت والهـدوء ولا يكثـر لنفـسه أعمالاً بل كل الأعمال الجسدانية ينقلها إلى عمل الصلاة، وإن أمكنه لا يشرك شيئاً مـن الأشغال مع الله الذي هو الصلاة والقراءة وخدمة المزامير، واثقاً أنه بمقدار ما يعمل مع الله عز وجل ويصرف الاهتمام إليه ليلاً ونهاراً على ذلك الحد، لا يعوزه شيء ما تدعو إليه الحاجة الضرورية، لأنه من أجله قد امتنع عن العمل.

إن كان إنساناً لا يتوفر له الانفراد بدون عمل يد ولا يقدر أن يثبت فـي القلايـة، فليعمل بيده ويستعين به ولا يتمادى فيه رغبة في الربح والمكسب، لأن هذه وصية ثانيـة وليست لازمة وإنما هى موضوعة برسم الضعفاء، أما الكاملون فإن ذلك مزعج لهم، لأن عمل اليدين يسمونه معوقاً ومعطلاً لتذكار الله. لأن الآبـاء رسـموا العمـل للـضعفاء والمتضجرين لا على أنه أمر ضروري.

في الوقت الذي فيه يخشع الله قلبك من داخل ثابر علـى الـسجود والمطانيـات متواتراً، ولا تخلي عقلك يهتم بشيء. إذا ما ابتدأ الشياطين يقنعونـك أن تـشتغل بـأمور أخرى، فانظر حينئذ وتعجب مما عتيد أن يتولد لك منها.

ليس شيئاً من الأعمال أفضل من أن يلقي الإنسان ذاته قدام الصليب، ليلاً ونهـاراً كالمربوط اليدين إلى الوراء .. أتؤثر ألا تبرد حرارتك وتنشف دموعـك .. لازم ذاتـك إياها.

طوباك أيها الإنسان إذا اهتممت بالمعقولات ليلاً ونهاراً ولا تطلب معها شيئاً آخر، حينئذ يشرق لك نور من داخل كالصبح ويلمع برك سريعاً وتصير كـالفردوس المزهـر

وكعين ماء لا تنقص. تأمل أي خيرات تولد للإنسان من الجهاد؟!

فما أعمق أن يوجد الإنسان جاثياً على ركبتيه ويداه ممدودتان نحو الـسماء وهـو شاخص بوجهه إلى الصليب، وجامع كل حركاته وفكره إلى الله في الصلاة.

وفيما هو على هذه الحال .. فبغتة يتحرك في قلبه ينبوع حيـاة بحـلاوة وتنحـل أعضاؤه، وتغمض عيناه ويلتفت وجهه إلى الأرض وأفكاره تتبدل حتى أنـه لا يقـدر أن يسجد من الفرح الموجود في كل جسده.

تأمل يا إنسان ماذا تقرأ لأنك أن لم تجاهد فلن تجد، إن لم تدق الباب دائماً بحرارة مواصلاً السهر فلن يسمع لك.

من ذا الذي يسمع هذه الأمور ويشتاق إلى البر البراني؟ تميز يا إنسان لعـل مـن القراءة تعرف هذه الأشياء ومذاقة العسل تصير في فم القارئ الفاهم " **مـن لـم يُجاهـد لا يُكلل** ".

إلا أن يكون من لا يقدر على الصبر في السكون والحبس في القلاية وهو منحـل وحواسه سائبة بالخلطة مع كل أحد، ولكن على كل حال إن لم يقدر على إحكام ذلـك لأن وجود الإنسان داخل الباب إنعام من الله فلا يتخلف عن الطريق الأخرى لئلا يعدم طريق الحياة.

دون أن يموت الإنسان الخارجي عن العالم وأعماله، لا من الخطية فقط، بل ومـن كل عمل جسداني والإنسان الجواني أيضاً من الأفكار والتذكارات الخبيثة وتضعف حركة الجسم الطبيعية حتى أن حلاوة الخطية لا تتحرك في القلب، لا يفعل روح الله حلاوته في حياته ولا يظهر في أعضاءه ولا يعاين في نفسه المعاني الإلهية.

ودون أن يتعطل الإنسان من الاهتمام بالأمور العالمية ما خـلا حاجـة الطبيعـة الضرورية ويعتمد على الله تعالى في الاهتمام بذلك، لا يتحرك فيه السكر الروحاني، ولا يحس بذلك، الذي كان يعيرون به الرسول (إن قراءة الكتـب الكثيـرة جعلتـك تهـزي يا بولس). **" أنتَ تهْزى يا بولس! الكُتب الكثيرة تُحوِّلُكَ إلى الهَزَيان! "** (أع ٢٦ : ٢٤).

ولم أقل هذا قاطعاً الرجاء، إنه إن لم يبلغ الإنسان إلى منتهى الكمال فلـن يؤهـل لنعمة الله سبحانه وتعالى ولا يلم به عزاء.

لأنه .. الحق الواضح أن الإنسان إذا ما رذل وترك عنه الشرور وابتعد من كـل المحادثات الباطلة ولحق بالأشياء الجيدة، في زمان قليل يشعر بالمعونة وإن هـو جاهـد قليلاً يجد عزاء في نفسه ويحظى بغفران الخطايا ويؤهل للنعمة ويقبل خيـرات كثيـرة، ولكن بالقياس هو ناقص جداً من ذلك الذي بالكمال قد عزل ذاته من العالم ووجد في نفسه سرائر السعادة التي في ذلك العالم الأتي وأدرك ذلك الشيء الذي من أجله جاء المـسيح ليخلص العالم.

الذي ينبغي له المجد مع أبيه الصالح والروح القدس إلى الأبد. آمين.

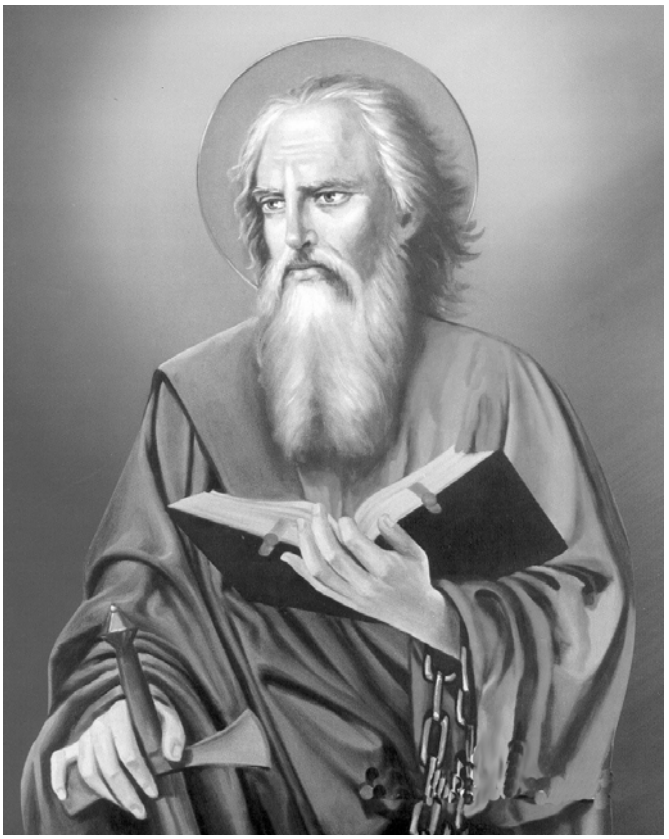

الباب الثاني

****

تعاليم مفيدة
عن الطياشة والشباب ، والتجارب والسقوط .
مصاحبة الفضائل

****

إن الله تبارك اسمه تفضل على الناس بكرامة جزيلة بالعلم والفهم المتضاعف الذي أعطاهم إياه ومن كل النواحي فتح للإنسان باباً لكي يدخل للمعرفة وإن كُنت تريد شـاهداً صادقاً من الطبع على ما قيل ارجع لنفسك فلست تضل، وإن كنت خرجت من هناك تعلم من الشاهد الثاني وهو يدلك على الطريق التي تاهت.

عقل طائش ما يقدر أن ينجو من النسيان والحكمة ما تفتح بابها لمثل هذا، ومن قدر أن يعرف بثاقب فكره إلى أية مساواة تنتهي آخرة الناس كلهم فلن يفتقر إلى معلم آخر في الابتعاد من العالميات وهجرها.

الناموس الأول المفوض من الله سبحانه وتعالى للإنسان القديم هو تصور طبـائع البرايا، وأما المسطور فوضع بعد المخالفة.

الذي لا يبعد ذاته من الآلام طوعاً تجذبه الخطايا كرهاً.

وهذه هى علل الخطايا: الخمر، النساء، الغنى، الصحة الجسدية .. وليس هـؤلاء بالطبع خطية، بل أن الطبيعة باستعمالها إياهم بغير ناموس تنشئ (تؤدي) بسهولة إلـى خطايا كثيرة، وأكثر من كل شيء يتسخ بهم الطبع لذلك ينبغي للإنسان أن يجتهد فـي أن يتحفظ من ذلك إن تذكرت ضعفك دائماً فلن تتجاوز حد التحفظ.

أما عند الناس الفقر مكروه ومرفوض، وأما عند الله فمنبوذ أكثر: نفـس مترفعـة وعقل متشامخ، أما عند البشر فالغنى جليل، وأما عند الله فنفس متواضعة.

متى عولت على الشروع في واحدة من الفضائل فأعدد ذاتك للتجارب الوافدة عليك لأجل تلك الفضيلة.

لا تناقض الحق .. فإن العدو خزاه الله إذا ما مقل (نظر) إنساناً قد ابتدأ يعمـل شيء يسير من الفضيلة وسيره صالحة بأمانة حارة، يتلقاه بالتجـارب المرهبـة، وعلـى ضروب شتى ليخيفه من هذا الوضع فيبرد حب فكرته الحميدة ولا تكون له حرارة تدنيـه من الأعمال الإلهية، لا لأن المعاند له هذه القوة وإلا فما يقدر أحد أن يصنع خيـراً فـي وقت من الأوقات، بل يتم له ذلك بتسامح من الله وتغاضي منه عز وجل كما علمنا مـن خبر أيوب الصديق، فأنت أيها الإنسان أعدد ذاتك بشجاعة نحو مصارعة التجارب الملمة بالفضائل وحينئذ تبدأ بعملها.

إن لم تتهيأ للقاء المحن والتجارب والحوادث فابتعد عن صنع الفضائل.

إن إنساناً يشك في أن الله تعالى لا يؤازر في العمل الصالح، ويجـوع فـي أوان الخصب، ويكون ذا قلق واضطراب في أيام السلام، فاعلم أن العالم ما زال بداخله، أمـا الواثق بالله سبحانه وتعالى فإنه قوي القلب ويظهر شرفه لكل الناس ويكون مديحه تجـاه عينيه.

إن وصايا الله عز وجل تفوق كل كنوز العالم، والمقتني لها يجـد الـرب داخلـه ويقتني الرب ساكنه.

الذي في كل وقت يهتم بذكره وينثني لإرادته ليكون له حافظاً والملائكة السماويين يكونوا له مرشدين.

الخائف من الهفوات يقطع الطرق المخوفة بغير عثرة، ويجد تجاهه نوراً في الوقت المظلم. إن الرب جل اسمه ليحفظ خطى الخائف من الذنوب وفي أوان الزلـق تدركـه رحمة الله.

من يتصور أن زلاته صغار يقع فيما هو أشر منها ويقاصص سبعة أضعاف.

ازرع صدقة بتواضع تحصد رحمة في الانقضاء، والأشياء التي أضعت وأتلفـت الخير فيها بعينها عاود اقتناؤها.

إن كان لله عليك درهم فلن يقبل عوضاً عنه لؤلؤ لأن هاهنا هذا الأمر لا يـصلح، عفة أُهلكت منك لا تترك الزنا مكانها، وتعطي عوضاً عنها صدقة لا يقبل هذا منك. مكان القدس قدساً يطلب منك، أعني أنك إذا ذهبت عنك العفة فلن يقبل الله منك صـدقة لأنـك مقيم على الزنا لأنه يريد منك طهارة جسمك، وإذ قد تجاوزت الوصية لا تتـرك اقتنـاء صداقة العلمانيين موضعها، إذ أنت تتنازع من أجل أشياء أُخرى.

محبة العالم بالرحمة والتجرد تنقلع، حسب كلام المعلم الأعظم الأنبا افرآم: " فـي وقت الحصاد والغيض (الصيف) لا تجاهد بثياب الشتاء ".

هكذا كل واحد ما يزرعه إياه يحصد، وكل مرض يعالج بالأدوية التـي تخـصه، وأنت يا هذا إن اتفق واستولى عليك الجسد فاجتهد أن تحارب النوم.

بادر إلى قلع الخطية كما هى وهى عشباً لئلا تنمو وتزهر وتغطي الأرض كلها.

لا تتوانى إذا ما ظهرت لك زلة صغيرة وإلا ستصير لك سيداً قاسياً تسير قدامـه كعبد مقيد، أما الذي يجاهد في الابتداء فهو يستولي بسهولة.

من قدر على احتمال الظلم بفرح وله قدرة على المقابلة فإن هذا قد قبل العزاء الذي من الله تعالى محسوساً بتوسط إيمانه دائماً به، ومن يصبر على المسبات الـواردة عليـه باتضاع فقد بلغ الكمال وأن الملائكة القديسين يفتتنون به عجباً، لأنـه لا توجـد فـضيلة أشرف من هذه ولا أكبر وهى عسرة التثقيف.

لا تثق بنفسك أنك قوي إلى أن تدخل التجارب فستجد نفسك غير متغيـر، وهكـذا حنك نفسك في كل أمر اقتن أمانة مستقيمة في ذاتك حتى تطأ فوق أعداءك وتجـد فكـراً متضعاً، ولا تعتمد على قوتك لئلا يترك التجارب على ضعف طبيعتـك حينئـذ تعـرف ضعفك من سقطتك.

لا تثق بمعرفتك لئلا يصيدك العدو بمكره وصنائعه المخيفة، ويجعلك تتخبط.

اقتن لك لساناً متضعاً مع كل الذين حولك، فلا يلم بك هواناً بالكلية، اقتن لك شـفاه عذبة فيكون الكل أصدقاؤك.

لا تفتخر بشيء من أمورك بلسانك لأنه ليس في الخليقة شيئاً ما لم يلم به غيـار، لئلا يتضاعف خزيك إذا ما وجدت بضد ما افتخرت به لأن كل أمر يفتخر بـه الإنـسان يسمح الله تعالى بضد ما افتخر به بتغييره ليتواضع الإنسان.

تعتقد أن كل شيء يرجع إلى سابق علم الله سبحانه وتعالى ولا تعتقد أن شيئاً فـي هذه الدنيا يستحيل، هكذا كن دائماً وارفع نظرك إلى الله دائماً تبارك وتعالى لأن عنايتـه تشمل الكل وتدبرهم.

وليس أحد ينظر عنايته إلا الذين طهروا أنفسهم من الخطيئة وهم دائماً يهذون بـه لهؤلاء خاصته تتبين عناية الله إذا دخلوا في تجربة عظيمة هائلة من أجل الحـق حينئـذ يحسون بها كأنهم ينظرونها بأعينهم كل واحد بحسب قياس الحادث العارض له وإنما يفعل الله هكذا ليشجع المجاهدين كما جرى الأمر في أيوب وفي يشوع بن نون وفـي الـثلاث فتية وبطرس وبقية القديسين الذين ظهرت عناية الله تعالى في شكل إنـسان وشـجعتهم وقوتهم على حسن العبادة.

فإن قلت إن هذه الأمور صارت من الله تعالى من السياسة وتدبير العامة فاستحقوا خاصته هذه المناظر، فليكن لك مثال على شجاعة الشهداء القديسين الذين أكثر من الأمر طوائف منهم جاهدوا على اسم المسيح في مواضع عدة، ربما جاهد الواحـد مـنهم فـي مواضع شتى، وصبروا مع انحلال قوتهم بالقوة الخفية التي كانت تعضدهم بأجسام طينية على تبضيع الحديد وأصناف العذاب التي هى أمور فوق الطبيعة.

لمثل هؤلاء القوم ظهر الملائكة القديسون ليعلم كل واحد أن العناية الإلهية توجهت إلى هؤلاء الذين احتملوا من أجله كل تجربة وضنك على كل وجه لتشهر نجابتهم وحميد شجاعتهم وخزي أعداءهم. لأن القديسين بمقدار ما كانوا يتقوون بهـذه المنـاظر كـان المعاندون لهم يغايظون بالأكثر ويتميزون من صبرهم.

وماذا ينبغي أن أقول في النساك والمتعبدين الذين تدبروا في البرية وجعلوها مسكن ملائكة ومنزل، فهم دائماً يترددون إليهم من أجل مساواتهم معهم فـي العبـادة، وجميـل سيرتهم. وبما أنهم جند سيد واحد، فبعضهم يجتمعون بالبعض في وقت بعد وقت.

هؤلاء الذين أحبوا البرية كل أيام حياتهم وجعلوها مسكنهم في الجبـال والمغـاير وشقوق الجبال طوال أيام حياتهم، من أجل عظم محبتهم في الملك المسيح.

وعشقوا السمائيات بحسبما قد رفضوا الأرضـيات وصـاروا نظـراء الملائكـة، والملائكة أيضاً ما كانوا يخفون أنفسهم من نظرهم بل كانوا يظهرون لهم ويعلمونهم كيف ينبغي أن يسيروا ويتدبروا، فتارة يوضحون لهم أمور مشكلة، وتـارة يـسلونهم ووقتـاً يرشدوهم في طريق إذا تاهوا، وتارة يخلصوهم من تجارب يقعون فيها وتارة ينـشلونهم بغتة من وسط شدة قد بغتتهم: أعني من حيات وصخور وشقوق الأرض وحجـارة قـد شارفت الوقوع، وتارة يظهرون لهم إذا ما جاهدوا العدو في قتالهم حتـى أنهـم كـانوا ينظرون بعيونهم وكانوا يقولون لهم قد أرسلنا لمعونتكم، وكانوا يفيدونهم شجاعة وجسارة وعزاء، وبعض الأحيان كانوا يشفون أمراضاً بتوسطهم، وحينـاً آخـر كـانوا يبرئـون القديسين من آلام قد حصلت لهم. ودفعة كانوا يقوونهم تقوية عجيبة بلمس اليد أو بـالقول إذا ما ضعفت أجسادهم لعدم الغذاء، ودفعة كانوا يأتونهم بالخبز، وربما احـضروا لهـم ترمس وأشياء أُخرى.

وكانوا ينذرون قوماً بانتقالهم، نعم وبجهة الانتقال.

وكم أعد وأقول وأجمع في محبة اجتماع الملائكة بجنسنا ومراعاتهم للأبرار وأنهم يهتمون بنا، اهتمام الإخوة الأكابر بالأصاغر.

وإنما ذكرت هذه الأمور ودونت ووضعت ليعلم كل إنسان أن الرب جـل وعـز قريب من كل الذين يدعونه بحق، ويعلم مقدار السياسة التي يسوس بها الذين قد اسـلموا حياتهم في يده وتبعوه من كل قلوبهم.

إن كنت تؤمن أن الله يهتم ويراعي أحوالك، فلم تصرف اهتمامك إلـى الأمـور الجسمانية الوقتية، ولماذا تتحايل في تدبير ذاتك ..

" إن كنت تثق في مواعيد الله وحسن تدابيره إنها قادرة أن تحكمك إلى الخـلاص، فلا تعد تستعمل التحايل البشري ".

إن كنت تشك في أنه لا يهتم بك ويراعي أحوالك وأنك منفرد بذاتك دونه، فأنـت أشقى جميع الناس ولا حاجة لك بالحياة.

ألق على الرب همك، لتتشجع في كل ما تخاف منه. مَن أوقف ذاته من أول وهلة لله تعالى، فإنه يتصرف في هدوء من العقل. إن النفس لا تقدر أن تنعتق من خباط الأفكار من دون عدم القنية، ولا أن تحس بسلامة الفكر من دون هدوء الحواس.

لن يقدر إنسان أن يقتني حكمة الروح بدون الدخول في التجـارب، ولا أن يعلـم لطيف الأفكار من دون المثابرة على القراءة.

إن العقل لا يتحرك في الأفكار المكتومة خلوا من سلامة الأفكار، والنفس لا تقـدر أن تقدم على الأمور المحزنة والتجارب العسرة بدون الاتكال على اللـه بتوسط الأمانة. والقلب لا يمكنه أن يتكل على الله جل وعز دون أن يباشر تجربة عنايته بالفعل.

من دون أن تذوق النفس آلاماً من أجل المسيح بمعرفته لا تقدر أن تحصل علـى مشاركة معه لذلك أعتقد أن إنسان الله هو الذي أعوز ذاته في كل وقـت مـن الحاجـة الضرورية لفرط تحننه.

المحسن إلى الفقراء قد اقتنى الله جل اسمه، مهتماً بأحواله، ومن تفاقر من أجل الله فقد وجد كنوزاً لا تنقص.

إن الله عز وجل لا يحتاج إلى شيء ولكنه يبتهج إذا رأى إنسان ينـيح صـورته ويكرمها لأجله.

إن طلب إنسان منك شيئاً هو لك فلا تقل في قلبك اترك هذا لي لأتنيح بـه، واللـه يفتح له بحاجته من آخرين، لأن هذا هو كلام الظلمة الذين لا يعرفون الله سبحانه وتعالى، لأن الرجل العادل الصالح لا يعطي كرامته لآخر ولا يرى أن يعبر وقت النعمـة بـدون عمل صالح، أما الإنسان الضعيف المحتاج فإن الله يرزقه لأنه لا يتخلى عن أحد، وأمـا أنت يا هذا فقد انثنيت عن شرفك المتوج من الله وأبعدت عنك نعمته بـردك الـضعيف والفقير خائباً.

فإن أعطيت فافرح وقل المجد لك إذ قد مكنتني من وجود من أنيحه، وإن لم يكـن لك ما تعطي فبالأكثر أفرح وقل اللهم أشكرك على ما أنعمت به علي من هـذه الكرامـة التي هى الفقر من أجل اسمك وعلى تأهيلك إياي لأن أذوق الحزن الموضوع في سـبيل وصاياك.

وفي المرض والمسكنة حسبما ذاق القديسون الذين سلكوا في هذا الطريق، إذا مـا مرضت فقل أنه لسعيد المؤهل للتجربة حسب قصد الله وغرضه بما يأتيه علي لأن هـذه الأمور تورث الحياة.

وذلك لأن الله عز وجل إنما يجلب الأمراض لأجل صحة النفس.

قال بعض القديسين: إنه ثبت عندي الدليل على أن راهباً لا يقـدم للـرب خدمـة ترضيه، ولا يجتهد في خلاص نفسه، بل هو مضطجع نائم وكسلان في عمل الفـضائل، لا محالة يسمح الله أن يوقعه في تجارب لئلا يميل إلى الشر لأجل كثرة إهمالـه. لهـذا السبب يوفد الله تجارب على المتوحدين ذوي الكسل والفشل، وذلـك ليهـذوا فيهـا دون الأمور الباطلة، وهذا يفعله دائماً مع الذين يحبونه ليؤدبهم ويحكمهم ويعلمهم إرادته، ومتى سألوه ما يستمع منهم سريعاً إلى أن يضعفوا ويعلموا علماً لا يشوبه شك إذا ما عرض لهم من أجل توانيهم وكسلهم لأنه مكتـوب : **" فحين تبسُطونَ أيْدِيَكُم أسْتُرُ عَيْنَـيَّ عنكُمْ، وإنْ كثرتُمُ الصَّلاة لا أسَمْعُ. أيدِيَكُم ملآنةٌ دَماً "** (إش ١ : ١٥).

إلا أن هذا قد قيل عن آخرين وعلى كل حال إنما قد سطر لأجل الذين يتخلفون عن طريق الله سبحانه.

وإن سأل سائل قائلاً كيف أن الله تبارك اسمه كثير الرحمة إذا غشيتنا التجـارب، ندق ونسأل فما يسمع منا؟ إن جواب هذا ولا شك نستفيده من النبي القائل: أن يدي الرب لن تقصر عن النشل والإنقاذ ولا هو ثقيل السمع، بل أن خطايانا قد فصلت بيننـا وبينـه ونفاقنا عطف وجهه عن السماع لنا (إش ٥٥ : ١ ، ٢). أُذكر الله دائماً في كـل وقـت ليذكرك هو أيضاً إذا ما وقعت في الشرور.

إن طبيعتك قد خلقها الله قابلة للعوارض وتركك في هذا العالم الذي فيـه أسـباب العوارض والتجارب كثيرة والشرور ليست بعيدة عنك بل هى تنبع من داخلك ومن تحت رجليك وفى الموضع الذي أنت ماثل فيه إذا ما أطلق الله تعالى ذلك.

كما أن الأجفان قريبة من بعضها البعض هكذا التجارب قريبة منك، وهذه الأشياء دبرها الله عز وجل بحكمة لأجل منفعتك لكي تثابر على قرع الباب وبخوف المحزنـات ينزرع ذكره في فكرك وتقرب منه بواسطة الوسائل ويتقـدس قلبـك بواسـطة ذكـره، وتتضرع إليه فيستمع لك وتعلم أن الله الناشل إياك وتحس بخالقك المقوي لـك والحـافظ إياك والذي خلق (برا) من أجلك عالمين: واحداً وقتياً بمنزلة المعلم المـؤدب، والآخـر بمنزلة الأبوي لك وبيتك الأبدي.

إن الله عز وجل لم يصنع جسدنا غير قابل للآلام لئلا تشتهي درجة الألوهية فترث ما ورثه قبلك الشيطان الذي تشيطن أخيراً لأجل تشامخه فورث اللعنـة والـسقوط مـن السماء، ولا صنعك أيضاً غير مائل للخطية وغير متحرك لئلا تكون بمنزلة الطبائع التي لا نفس لها فيكون خيرك لا فائدة له ولا جزاء له، ومحله مثل المآثر الطبيعيـة للحيـوان غير الناطق.

إنه لسهل على الكل أن يعرفوا كم من الفوائد والشكر والاتضاع يتولد من وفود هذه المناقد (النواخز) والميالة.

فقد تبين أن الجهاد في عمل البر والانحراف عن الشرور همـا بحـسب إرادتنـا والكرامة والهوان الناجمان عنهما هما منسوبان إلينا أما الهوان فنخزى منه وأما الكرامـة فنشكر عليها الرب ونتزايد في الفضيلة.

إنما أكثر الله عز وجل هذه الأمور المؤدبة والمرشدة حذراً عليك لئلا تنساه إذا ما انعتقت منها ولم ينلك من الضواغط منال وصرت أعلى من كل خوف تنحرف عنه وتتجه إلى هوة النفاق وتطلب اعتقاد كثرة الآلهة كما ضل كثيرون فإن هؤلاء كانوا مثلك قابلين

للآلام ومحتاجين وكانت عليهم كل هذه المحزنات ولأجل سلطان حقير فـي يـسير مـن الزمان وبصحة جسم قليلة لم يهبطوا إلى القول بآلهة كثيرة فقط، بل وجسروا أن يـسموا ذواتهم بآلهة تجاهلاً، لهذا الحال سمح الباري تعالى أن تلم بك الضوائق لئلا تنحرف عنه وتسخطه وبإيراد العقوبة إليك يقصيك من وجهه.

وأنا أمسك عن ذكر النفاق وبقية التجاديف المتولدة من صفاء العيش فـي العـالم وزوال الخوف ولو تجاسر على ذكرها جاسر.

من أجل هذا أكثر ذكره بالضوائق والآلام في قلبك لكي مـن خـوف المـضادات يوقظك إلى قرع باب تحننه ولسبب تخليصه اك منها يزرع فيك المحبة له لكـي مـا إذا وجدت الحب فيك يدنيك به من كرامة النبوة ويريك مقدار نعمته الغزيرة وعنايته الدائمـة بك وبعد ذلك يجعلك تحس بقدس جلالته وأسراره الخفية التي لعظم طبيعته.

من أين كان لك أن تعرف كل هذا إذا لم تكن تعرض لك الأضداد، وعلـى ذلـك بالأكثر الأمر يمكن أن تتكاثر محبة الله في النفس من هذه الأمور، أعني من تفهم إنعامه وذكر تغاير عنايته ومشكور رعايته وهؤلاء الصالحات جميعاً من المحزنات تكـون لـك وكان الغرض من ذلك هو أن تفهم وتشكر.

أُذكر الله تعالى لكي يَذكُرك هو ويخلصك لكي إذا ذكرك وخلصك تحظى بجميـع هذه الخيرات.

لا تنسه بالطياشة في الأمور الباطلة لئلا ينساك هو في وقت تجاربك، كن له مطيعاً وأنت في راحة العيش لتحصل لك دالة عنده في أوان انضغاطك، وباستمرار طلبـه فـي صلاتك من كل قلبك ليحل ذكر الله في قلبك.

حسبما تكون تجاهد دائماً وفي كل الأوقات اهتم بذكره في فكرك وإياك أن يطـول بك الزمان بمعزل عن ذكره فتصير بغير دالة ولأجل الخجل لا تقدر أن تتفاوض معـه، لأن الدالة عند الله تعالى إنما تكون من مواصلة مفاوضته ومداومة محادثته في الصلاة.

أما الاتصال بالناس فيكون بالجسم، وأما القرب من الباري عز وجل اسمه فيكـون بتوسط الذكر النفساني والصلاة والتضرع، ومن الإمعان في ذكره ينتقل العقل وقت فوقت إلى ذهول وإعجاب.

إن قلب طالب الرب ليبتهج، اطلبوا الرب أيها الخطاة المجرمين وتشجعوا بأفكاركم بالرجاء، التمسوا وجهه دائماً بتوسط التوبة فستتقدسون بقدس وجهه وتطهرون من آثامكم. بادروا إلى الرب يا معشر المتدنسين لأنه قادر على صفح الجرائم وترك الـزلات لأنـه بالقسم أقسم: **" هلْ مَسَرَّةً أسَرُّ بموتِ الشِّرِّير؟ يقولُ السَّيدُ الربُّ. ألا برُجوعِهِ عن طُرُقِـــ
قالت الحكمة " الكاتم جريمته لا يحظى بصلاح وأما المقر بزلته والمتخاف عنهـا فينال من الله رحمة ". وإشـعياء يقـول : **" اطْلُبوا الربَّ مـا دَامَ يوجَدُ. ادْعوهُ وهو**

قريبٌ. ليَتْرُكِ الشِّرِّيرُ طريقَهُ، ورجُلُ الإثم أفكارَهُ، ولْيَتُبْ إلى الربِّ فيرحَمَهُ، وإلى إلهنا لأنَّهُ يُكثِرُ الغُفْرانَ. لأنَ أفكاري ليستْ أفكَارَكُم، ولا طُرُقُكُمْ طُرُقِي يقولُ الربُّ " (إش ٥٥ : ٦ - ٩)، وأنتم إن سمعتم منى فـستأكلون خيـرات الأرض (إش ١ : ١٩)، وهلموا إلي وأطيعوني فتأكلون ثمار الأرض فتحيا نفوسكم (إش ٥٥ : ٣).

إذا ما حفظت طرق الرب وصنعت مراده حينئذٍ اتكل عليه وادعوه، إذا هتفت إليه يقول لك هأنذا حاضر.

المنافق إذا ما وقعت عليه محنة ليس له ثقة أن يدعوا الله تعالي ولا يتوقـع مـن جهته خلاصاً لأنه في راحته ابتعد عن مشيئته.

قبل أن تشرع في القتال التمس المعين، وقبل المرض أطلب الطبيب، وقبل أن ترد إليك الضواغط تضرع فإنك ستجده في وقت حلولها وليسمعن منك، وقبل أن تنزلق توسل وابتهل قبل أن ترغب إليه مصلياً استعد بما يجب.

إن سفينة نوح في وقت السلامة صنعت، وقبل مائة سنة نصب خشبها، وفي وقـت الرجز هلك الظالمون وأما الصديق فشملته المعونة.

فم الظالم يلتجم بالصلاة، لأن توبيخ الضمير يزيل من الإنسان الدالة، وقلباً طاهراً يفيض دموع السرور في أوان الصلاة.

الصبر الاختياري على الظلم يطهر القلب، والصبر يحدث من رفض الإنسان هـذا العالم لأنه إذا ما نظر حقيقة الأشياء عند ذلك يثبت بلا حزن على الظلم والجور.

لأن الذين أصبح عندهم العالم بمنزلة مائت يصبرون على الضوائق بفرح، أولئـك الذين قد ماتوا بأفكارهم من العالم. وأما الذين رائحة هذه الحياة موجودة في فكرهم لـيس تتركهم محبة المجد الباطل لكي ما يتسخطوا بالغضب أو يقعوا في أفكار الكآبة التي تتولد من هذا.

وآه من هذه الفضيلة ما أصعب تقويمها وأكثر مجدها عند الله، من أراد أن يقـوم هذه الفضيلة .. أعني الصبر على الظلم والإهانة، فينبغي له أن يتغرب ويبتعد عن وطنه

لأنه ما يمكن أن يقومها في الوطن، لأن احتمال هذا اللذع بين الأهل والأقارب إنما هـو لقوم أكابر أقوياء وعندهم العالم الحاضر مائت وقد انصرف عنهم العزاء الحاضر.

وكما أن النعمة تدنوا من الاتضاع، كذا العوارض المؤلمة تقترب بالعظمة، عينـا الرب على المتواضعين ليبهجهم ووجهه لدى المتعظمين ليوضعهم.

الاتضاع يجتذب من الله تعالى دائماً الرحمة، أما القلب القاسـي القليـل الإيمـان فتوافيه الأهوال والمفزعات بغتة ويقوم عليه البشر حتى يسلم لقضية الاستئصال.

ضع ذاتك وصغر قدرك في كل أمر عند جميع الناس فستعلوا عند جميع الرؤساء في هذا العالم.

تقدم للكل في حسن السلام بسجود مطأطئ الرأس فسيبجل قدرك ويسموا على ذوى الثياب المذهبة، كن مرذولاً مهاناً بعيني نفسك فترى مجد الله تعالى في ذاتك لأنه حيـث ينشأ الاتضاع هناك يتوفر مجد الله تعالى في ذاتك.

إن أنت اجتهدت وجاهدت في أن تُرذل من الناس كلهم ليرفعن الله قدرك وينوه به. إن اقتنيت في قلبك الاتضاع أظهَرَ الله تعالى في قلبك مجده.

تواضع في علوك ولا تتعاظم في حقريتك. أحرص أن يزدرى بل فـستمتلئ مـن إكرام الله تعالى.

لا تلتمس أن تكرم وأنت مملوء من داخل جراحات. ابغض الكرامـة لتكـرم، ولا تحبها لئلا تهان. من عدى وراء الكرامة هربت منه، ومن هرب منها قصدته، وأنـذرت كافة الناس باتضاعه، إن حقرت نفسك لكي تتكرم، الرب يفضحك.

إن أنت امتهنت ذاتك لأجل الحق فإن الله تعالى. يقدم برلياه ويمدحونك ويفتحـون قدامك باب مجده الذي منذ الأزل يتكلم بهن ويمجدونك كالباري تعالى لأنك بالحقيقة تكون على صورته ومثاله.

من ذا الذي شاهد إنساناً بالفضائل متعالياً وبين الناس محتقراً، نيـراً فـي سـيرته حكيماً في معرفته متواضعاً في نفسه .. لسعيد ومغبوط من تواضع في كل أمر لأنه يرتفع في كل شيء، لأن من وضع قدره وصغر مكانه من أجل الله ليشرفن الله قدره. ومن جاع

وعطش لأجل الله تعالى ليرونه الله من خيراته ويسكرنه بها. ومن تعرى لأجل الخـالق عز وجل ليلبسنه حال عدم الفساد والشرف، ومن تفاقر لأجله ليعززنه بغناه الحقيقي.

أحقر نفسك من أجل الله فسيتوفر شرفك وأنت لا تعلم، اعتقد إنك خاطئ مدة حياتك لتزكى دائماً.

كن أمياً في حكمتك، ولا تتظاهر بالحكمة وأنت أمياً، إن كان الاتضاع يعلي شـأن الأمي والذي لا علم له، فالقوم الإجلاء الأماثل كم كرامة تظن الاتضاع يسبب لهم.

اهرب من المتحزقة (الكبرياء) فستتشرف، وخاف من العظمة فـستعظم، فـإن الطرمدة لن توزع على أولاد الناس ولا العظمة على مولدي النساء.

إن أنت هجرت كل أمور الدنيا فلا تنازعن أحد في شيء البتة، إن أنـت رفـضت الطرمدة فاهرب من المتصيدين لها والشغوفين بها.

ابتعد من محبي القنيان ومن المستغرمين بالحشد كمثل ما تهرب من المقتنى. اقص ذاتك من المتنعمين كمثل من التنعم، واهرب من الفسقة كهربك من الفسق.

لأنه إن كان ذكر الأمور المقدم ذكرها يزعج الفكر، فكم بالحري النظر والتصرف مع أصحابها.

اقترن بالأبرار فإن بتوسطهم تدنوا من الله جل وعـز. اسـتكثر مـن الاخـتلاط بالمتواضعين فستتعلم طرقهم لأنه إن كان تصور ما قيل ينفع، فكم بالأكثر تعليم فهمهم.

حِب المساكين فإنك بتوسطهم تحظى برحمة الله تعالى.

لا تؤثر القرب من المتشاجرين ومحبي الخصام لئلا تصير بحكم الاضطرار خارج من الهدوء.

لا تتكره روائح المرضى ولا سيما الضعفاء منهم لأنك أيضاً ذو جسم.

لا تؤلم المنسحقين قلوباً إن كانوا موسرين أو معسرين لئلا تضرب بالعصي التـي

بها ضربوا وتطاب معزياً فلا تجد.

لا ترذل المقطعين أوصالاً، وذوى العاهات لأن ذلك لا يدخلهم إلي الجحيم.

حِب الخطاة وأمقت أعمالهم ولا ترذلهم من أجل ذلاتهم لئلا تمتحن بما امتحنـوا. أذكر أنك من الطبيعة الأرضية ومساهمهم في نتن طبيعة آدم وأيضاً مشاركهم في الميالة بالضرورة فأحسن إليهم.

الذي هو مفتقر إلي صلاتك ومحتاج إلي المخادعة لا تبكتن لئلا لأجل هـذا يهلـك فتطالب بنفسه، بل كن مثل الطبيب الحاذق الذي يعالج الأمراض الحارة بالأدوية الباردة، والباردة بما يقابلها.

ِاكره ذاتك على إكرام قريبك أكثر مما يستحق إذا لقيته، وقبل يديه ورجليه وحرك قلبك بمحبته بصدق وعفة وضع يديه على عينيك وامدحه بما ليس فيه، وإذا مـا انفـصل عنك فقل فيه صلاح ومهما اتجه من الجميل، لأنك بهذه الأسـباب تجذبـه إلـى الخيـر وتضطره إلي أن يستحي من الصفات الجميلة التي وصفته بها ويأنف ألا يكون بحـسبها وتزرع فيه زرع الفضيلة ومن هذه العادة التي تعود نفسك إياها يرتسم فيك رسم الخيـر وتقتني في نفسك العادة الحسنة التي تعود نفسك اتضاعاً كثيراً وينجوا من قتالات كثيـرة عسرة وتتثقف بأمور كثيرة بلا مشقة الذين بتعب كثير وجهـاد شـاق يـتخاص مـنهم آخرون.

ليس هذا فقط بل وإن كان إنسان له مناقص وأكرمته، قبل منك المداوة بالرمز فقط احتشاماً من الكرامة التي عاملته بها ودلائل الحب التي يرى منك، ليكن هذا التدبير دأبك مع الكل، أعني الإكرام والملاطفة، ولا تحتد على أحد ولا تسخط ولا تغلب عليك المرارة.

لا تبكت ولا تلم، لا من جراء الأمانة ولا من جراء قبح الأعمال، لأن لنا قاضـياً عادلاً في السماء لا يراعي الوجوه، وإن أردت أن ترده إلي الحق بنوع الشفقة فاحزن من أجله وخاطبه بانسكاب دموع على خطاياه، وبكلام موجز مرة ومرتين، ولا تشتعل عليـه غضباً فيرى فيك علامة العداوة من وجهك، لأن المحبة لا توجب الغضب والانتهار واللوم بتألم على أحد، ودليل المحبة والمعرفة هو الاتضاع المتولد من الضمير الـصالح ومـن

التفكر بربنا يسوع المسيح الذي له المجد والإكرام مع أبيه الصالح والروح القدس إلي أبد الدهور. آمين.

الباب الثالث

تعاليم مفيدة
في كون النفس قابلة للأهواء وفي أعمال الزهد

الزلل في الخطية دليل ضعف الطبيعة، لأن الله تعالى سمح بأن تكون طبيعتنا قابلة للإنفعال على أن ذلك ملائم وما رأى أن ما تكون أعلى منه قبل أن تنتهي الطبيعة إلى الخلقة الثانية وهذا القبول للعوارض والانفعالات نافع في ردع الضمير فأما الثبات فيها والملازم لها قحة وخزي.

كل نفس ناطقة تقدر أن تدنو من الله تعالى على ثلاثة أنواع: إما بحرارة الأمانة، أو من جهة الخوف، أو من قبل التأديبات الواردة منه تعالى.

أما رتبة الحب منه وبه فهي فردية ولا يقدر أن يدنو منه تعالى إن لم يسبب له أحد هذه الأنواع.

كما أن اضطراب الأفكار يتولد من نهم البطن، هكذا والجهل وحيرة العقل يتولدان من كثرة الكلام والمحادثات التي ليست على نظام.

الاهتمام بالأمور العالمية يقلق النفس ويتخبط العقل من جهتها ويفقد هدوءه ويبعد عن طريق الحق.

ينبغي للراهب الذي قد تجرد للفلاحة السمائية أن يكون بغير هم عالمي على الدوام بفكره حتى إذا رجع إلى ذاته لا يجد فيها شيئاً منه لأنه إذا بعد من الأخذ والعطاء وتعطل من الأسباب العالمية أمكنه أن يهذ في ناموس الله ليلاً ونهاراً من غير ملل، هذا يكون إذا ما تفرس في ذاته ولا يلقى فيها شيئاً من الأمور العالمية ولا هذيذ شيئاً من الأشياء المنظورة ولكن من بطالته من هؤلاء بالتمام يتلو باسم الرب بغير انجذاب (ملل).

التعب الجسماني الخالي من طهارة العقل كرحم عاقر وثدي يابسة، لأنه ما يقدر أن يدنو من معرفة الله سبحانه وتعالى إنما هو يوعك الجسم ولا ينفع.

كما أن الزارع في الشوك لا يترجى له حصاد، هكذا الحقـود ومحـب المـال لا يترجى له فائدة، بل يتنهد على مضجعه من فرط السهر وتواصل الهم بالأمور. والكتـاب يشهد ويقول أنهم يلتمسون حقاً وعدلاً كشعب يصنع البر ولا يتوانى بواحدة مـن وصـايا الرب ويؤثرون الدنو مني أنا الله قائلين لأي حال صمنا فلم تلتفت إلينا وواضعنا أنفـسنا ولم تعلم. فيجيب لأنكم صنعتم إرادتكم في أيام أصوامكم وقدمتم أغراضاً ذميمة وأفكـاراً ردية كما تقدم محرقات ردية للأصنام وضحيتم لها بمالكم وهو أكرم من كل ضحية، أعني تمسكتم بضمائر ردية وأفكاراً شريرة كمثل آلهة نفوسكم وتذبحون لها حريتكم وهو ما كان الخليق أن تنذروه لي بتوسط صلاح فعلكم وطهارة قلوبكم كالأرض الـصالحة المهندمـة التي تسر فلاحها بأن تغل له بدل الواحد مائة.

كذلك النفس المستنيرة بذكر الله ليلاً ونهاراً ومواصلة السهر في ذلك فـإن الـرب ينشئ على قاعدتها وحواليها غمامة تظللها في النهار وتزيل ظلامها في الليل ومن داخل قتامها يشرق النور.

كما أن الغيم يستر ضوء القمر، كذلك البخار الراقي من الجوف يستر حكمة اللـه تعالى عن النفس. إن جسد جوفه ملآن طعام يشبه لهيب النار في الحطب المتقد. كمـا أن المادة الدهنية تنمي أجيج النار هكذا اختلاف الألوان وأصناف الأغذية تزيد في ألم الزواج داخل الجسم.

معرفة الله تعالى لا تسكن في نفس إنسان يحب جسده ولا يحظى بالمواهب الإلهية.

كما أن من الطلاق تتولد ثمرة تسر الوالدة، هكذا من الأعمال يتولد في النفس معرفة أسرار الله سبحانه وتعالى. فأما الكسالى وذوي اللذة ومحبي الأحاديث الباطلة فيتولد فيهم ثمرة الخزي.

كما أن الأب يشفق على ابنه، هكذا المسيح يشفق على الجسد العمال ويكون دائمـاً قريباً من فمه. إن العمل المنوط بحكمة كذخيرة كريمة لا ثمن يعادلها،

الغريب عن العالم هو الذي لا يخطر في ذهنه شيء من أنواع هذا العالم، ومبتعـد من كل اهتمام وحديث بطال.

النواح هو الذي لا يخطر في ذهنه شيء، الذي يصرف كل أيام حياته في الجـوع والعطش لأجل رجاء الخيرات المنتظرة.

الراهب هو الجالس خارج عن مناظر العالم وليس في صلاته غير طلبة واحـدة: شهوة العالم العتيد.

غنى الراهب هو في قلبه، وهذا هو غناه: إما عزاء كائن من النوح وإما فرح ناجم عن الأمانة التي تنير في خزائن قلبه وعقله.

الرحوم هو الذي لا يميز بفكره واحداً من الآخر بل يعطي الكل.

العفيف بالكمال ليس هو الذي يحفظ جسمه بغير دنس من الخطية، بل المستحي من ذاته متى خطر ذلك في نفسه.

إن كنت تحب العفة: أزل عنك الأفكار السمجة بمواصلة الهذيذ والقـراءة وتـواتر الصلاة، وحينئذ تتسلح قبالة علل الطبيعة، ومن دون هؤلاء لا يمكن أن يشاهد الإنسان في نفسه طهارة.

إن كنت تريد أن تكون رحيماً، وتصير الرحمة لك ملكة. فعـود نفـسك أطـراح الأمور كلها لئلا ينجذب العقل بثقلها ويخرج الفكر من حدود قـصده الأول، لأن حقيقـة الرحمة إنما تتبين بالصبر على الظلم.

كمال الاتضاع هو احتمال الوقائع الكاذبة بفرح.

إن كنت رحيماً بالحقيقة فإذا ما انتزع منك مالك ظلماً، لا تحزن مـن ذلـك، ولا تشرح خسارتك لآخرين من خارج، بل لتكن خساراتك التي غشيتك من ظالميك مغتفـرة برحمتك، مستورة بصدقتك.

كما تنقلب خشونة الخمر وسط مياه كثيرة، اظهر أنت علامة النقاوة من الخير الذي تقابل به ظالميك وأنت بهج كما فعل الطوباني أليـشع مـع أعـداؤه، الـذين طلبـوا أن

يأسروه، لأنه عندما صلى وغشى عيونهم الظلمة، دل على القوة الموجودة في صـلاته، وعندما أعطاهم أكل وشرب ومكنهم من المضي، أظهـر رحمتـه التـي اقتناهـا مـن داخل (٢مل ٦ : ١٥ - ٢٣).

إن كنت متواضعاً على الحقيقة: فإن ظُلمت لا تضطرب ولا تعتذر من أجل الأمر الذي جير عليك من أجله، بل اقبل مثلبه وكلام الظلم وكأنها حق، ولا تصرف الاهتمـام إلى اقناع الناس بأنك قُرفت، بل اسأل واطلب العفو.

لأن قوماً سموا أنفسهم فسقة بإرادتهم ولم يكونوا كذلك، وآخرون صبروا على اسم الزنا وهم بعيدون عنه وكانوا يربون الثمرة التي ليست منهم بدموع كمثل أنها تخـصهم، والتمسوا الصفح عن ظالميهم ومشهريهم بنحيب وذرف عبرات عن إثم ما فعلوه، وأنفسهم متوجعة بكل طهارة وعفاف.

وطائفة كانوا يتشكلون بزي المجانين لئلا يشرف قدرهم ويتمجدوا بما فـيهم مـن السيرة الفاضلة المكتومة وهم قد تملحوا بالملح الإلهي ثابتين بكل هدوء ورزانة عقل حتى أنهم من سمو أفعالهم الكاملة حظوا بالملائكة القديسين منادين بعظم شرفهم.

أما أنت يا هذا فتظن أنك ذو اتضاع وما تقدر أن تمسك نفسك عند السب ولا تقدر أن تحتمل ساكتاً فإن كنت تريد أن تعلم أنك متواضع فاختبر بنفسك بما ذكرناه إن كنت ما تضطرب وتتكدر بهؤلاء.

إن المخلص تعالى يشير بقوله: " منازل كثيرة في بيت أبي " علـى قـدر منـازل ضمائر متدبري تلك البلدة أعني إفرازات العطايا والدرجات الروحانيـة التـي بحـسبها يتنعمون معقولاً واختلاف رتب المواهب لا اختلاف مواضع معروفة موضوعة للـسكنى كل واحد موضع مخصوص، لأنه كما أن كل واحد يتنعم بالشمس المحسوسة حسب صفاء وقوة بصره على قدر ما يسمح باطن عينيه من انسكاب نور الشمس، وكما أنه إذا كان في بيت واحد مصباح واحد يضيء بلمعانه عند كل واحد بخلاف ما هو عند الآخر مـن أن ينقسم أقنوم الضوء في عين إشراقه المنبسط ويختلـف بمنظـره، هكـذا كـل الأبـرار والصديقين يتدبرون في الدهر العتيد في بلدة واحدة معقولة حسب ما يستحقه بقدر تدبيره

ويجتذب لنفسه المسرة والتنعم، كمن هواء واحد ومكان واحد ومجلس واحد ومنظر واحد وشكل واحد، ولا ينظر أحد منزلة من هو أعلى منه أو دونه لئلا يعرض له من قبل ذلك حزن وكآبة، أعني إذا قاس نقصه إلى كمال غيره، وحاشا أن يكون مثل هـذا حيـث لا يكون حزن ولا كآبة بل كل واحد يسر في داخله حسب النعمة المفوضة إليه جزاء عمله.

فالكل منظرهم واحد من خارج والبلد واحد حسب نوع مسكن عـساكر الملائكـة والقديسين، موضع واحد منظور، وجو واحد متساوٍ ومعقول، درجـاتهم الخفـي حـسب استعلان ثاؤرية رتبتهم بالتغيير، مختلفاً في الفعـال مـن الأقـانيم الأزليـة بالحركـات والضمائر، وهذا ليس هو خارج عن العقل.

ليس يوجد ترتيب متوسط بين هاتين الرتبتين، أعني المنزلة العليا والمنزلة السفلي، بل إنما هو علو كلي، وسفل كامل، إما أن يكون من العلويين أو من السفليين وداخل هـذا أو ذاك رتب مختلفة بالمجازاة حسب الاستحقاق.

وإن كان هذا حقاً، وهو أنه حق، فإذاً ليس أكون أجهل وأحمق من القائلين: يكفينـا النجاة والهرب من جهنم، ولسنا نبالي إن لم ندخل ملكوت السموات. لأن الخـلاص مـن الجحيم هي الملكوت، والخيبوبة من الملكوت هي جهنم، والدليل على ذلـك إن الكتـاب المقدس الإلهي لم يعلمنا ثلاثة أماكن، بل ما هذا فحواه وهو إذا ما جاء ابن البشر في مجده يقف الخراف عن اليمين وأما الجداء عن اليسار **(مت ٢٥ : ٢١ - ٣٢)**. فقـد تبـين أن ليست ثلاثة بل اثنين واحد عن اليمين وواحد عن اليسار، يمينية وشمالية، وميـز حـدود منازلهم بقوله أن هؤلاء يمضون إلى العذاب الأبدي أي الخطـاة **(مت ٢٥ : ٤٢)** أمـا الصديقون فينيرون كالشمس **(مت ١٣ : ٤٣)**.

وأيضاً يأتون من المشارق والمغارب ويستريحون في حضن أبونا إبـراهيم فـي ملكوت السموات، ومع أولاد الملكوت، أما الجداء فيخرجون إلى الظلمة القـصية حيـث البكاء وصرير الأسنان **(مت ٨ : ١١ ، ١٢)** أعني البكاء النفساني وصرير الأسنان الذي هو أصعب من كل نار.

أفهمت الآن ما قلناه أن التخاف من الصعود هي الجحيم العقلي المعذبة ؟!

حسناً هو أن يعمل الإنسان الخير للناس ويجذبهم من الضلالة إلى معرفـة الحـق بمواصلة السياسة لأن هذا الطريق هى طريق المسيح ورسله وهى عالية جداً.

أما إن حس هذا المرء في نفسه أن ضميره ضعف من هذه الحال ومن مواصـلة الخاطة وتصور الوجوه وهدوءه قد اضطرب ومعرفته قد أظلمت لأن قلبه يحتـاج إلـى تحفظ وخداع الحواس ومن قبل أن يشفي الناس ويطيبهم، مرض هو نفسه وإن صحته في اضمحلال في الوقت الذي يريد فيه شفاء الآخرين، وقد خرج من حريـة إرادتـه إلـى اضطراب قلبه فيذكر قول الرسول أن الغذاء القوي برسم الكاملين (**عب ٥ : ١٤**) وليرجع إلى الوراء لئلا يسمع منهم كما في المثل " أنت أيها الطبيب المملوء جراحات اشف وطيب نفسك (**لو ٤ : ٢٣**)، فليدن نفسه وليحفظ حسن حاله، وليحفظ صحة ذاته فقـط. ولتنـب سيرته الصالحة عن أقواله المحسوسة وعمله يعلم بدل كلام فمه.

أما من علم أن نفسه في صحة، حينئذٍ فلينفع آخرين ويطببهم، لأنه إذا حفظ نفـسه في الصحة ينتفع منه آخرون، وبعافيته يشفون، هم أيضاً ولو كان بعيداً عنهم بغيرة أعماله الفاضلة ينفعهم أكثر من وعظه بالكلام ونفسه مريضة لأنه يكون مفتقر إلى الطبيب أكثر منهم لأن المثل يقول إن أعمى يقود أعمى كلاهما يسقطان في حفرة (**مت ٥ : ١٤**).

للأقوياء هو الغذاء الكامل الذين قد تريضت نفوسهم وتخرجوا واشتدوا على قبـول كل غذاء، أعني على جميع ما يصادف الحواس يباشروه ولم تمرض قلوبهم ولا تتأذى من كل ما يصادفهم لأجل تخرجهم ورياضتهم بالكمال.

والمحال إذا ما أراد أن يدنس عقل مثل هذه الطبقة بذكر الزنا، فأولاً يمتحن ويختبر عقولهم بمحبة المجد الفارغ وابتداء هذا الفكر ما يظن أنه ألـم هكـذا اعتـاد أن يعمـل بالمحتفظين بعقولهم وهم الذين لا يمكن أن يلقى فيهم فكراً سمجاً عارياً إذا ما أخرجه من حصنه وابتدأ أن يفاوضه في الفكر المتقدم وأن يبعده من هناك حينئذ يباشر ويتلقاه بمـادة الزنا فيعكس العقل إلى أمور الفسق ويدور الفكر على تخايل الأشياء السمجة، فأولاً ينزعج لأجل متقدم عفته بمصادفة الأفكار الباغتة الأمور التي كان العقل غريباً منها وبعيداً عنها، وإذ لم يتدنس بالكلية إلا أنه أحدره من رتبته المتقدمة، وإن هو رجع إلى الوراء وبادر إلى

إدراك رتبته الأولى، أعني المخرقة، وحطمهم سريعاً، الذين هم سبب لوفود الثواني، أعني أفكار الزنى، حينئذ بمعونة الله يتمكن بسهولة من الاستيلاء على الآلام.

وإذا ما أهمل حتى إذا صادم الأمور دفعات كثيرة هى العادة تعمي إفراز نفسه لأجل دوام تنازله، وهذا حسب كيفية أنواع الآلام: الأول يكون انخداعه وسقوطه في الثاني، الأفضل أن تصرف الآلام بذكر الفضائل دون أن نفاوضها وأخير من أن تحاججها وتغلبها في القتال.

لأن الآلام إذا ما برزوا من موطنهم وتحركت في القتال، حينئذ يرسموا في العقـل الأشكال والصور لأنهم بمثال ترتيب هذه الحرب يستولوا كثيراً على العقل ويأخذون قـوة على الفكر ويعلقوا خواطره ويزعجوا هواجسه، فأما من حسب الحد الأول الذي ذكرنـاه فإنه ولا من بعد طردهم يتبين في العقل أثر الآلام.

التعب الجسماني والهذيذ في الكتب الإلهية يحفظان الطهـارة والرجـاء والخـوف يثبتان وجوب التعب. والبعد من الناس والصلاة الدائمة يقرران في العقل الخوف والرجاء إلى أن يقبل الإنسان المعزي أي الباراقليط وهو مفتقر إلى الصحف الإلهية ليرتسم في قلبه ذكر الصلاح ويتجدد فيه من مداومة القراءة المحركة نحو الفضيلة، ويتحرص نفسه عـن لطف طرق الخطية لأنه ما أقتنى بعد قوة ضبط الروح التي تبعد الضلالة التـي تـسلب التذكارات الفاضلة والنافعة من الإنسان وتقدمه إلى البرودة الموجودة في تشتت العقل.

لأن قوة الروح إذا اشتعلتا وحلتا في القوات الموجودة المعقولة التي فـي الـنفس العمالة في الفضيلة حينئذ يرتسم في القلب وصايا الروح بدلاً من ناموس الكتـب ويـتعلم القلب من الروح خفية ولا يحتاج إلى المعونة الواردة من المـادة المحـسوسة بواسـطة الحواس لأن القلب كلما يتعلم من الهيولي يتبع لتعليمه طغيان ونسيان، وأما متى ما كـان التعليم من الأشياء غير الفاسدة وأيضاً ذكره يثبت بغير فساد قائماً.

ثمة أفكار صالحة، ثمة إرادة صالحة، وثمة أفكـار رديـة، وثمـة إرادة رديـة، والأولون من دون حدوث الثانيين، المكافأة عنهم قليلة، لأن هؤلاء حركاتهم يخطروا فـي العقل بمنزلة الريح التي تهب في البحر وترفع أمواجه وأما الثانيين فهم أصـول وقاعـدة حسب قصد ضبط الأساس.

تكون المجازاة في الأعمال الجميلة والقبيحة لا بحسب الأفكار، النفس لن تهدأ من حركة الأفكار المختلفة.

فإن أنت أبدلت كل واحدة ولم يكن في القلب أس فما أقربك من الغيار عدة مـرات كل يوم، إلى أمور صالحة وإلى أضدادها كطائر صغير لا جناح له، عقل قد أنفـك مـن مشابكة الآلام بأعمال التوبة وهو يجتهد في وقت الصلاة أن يعلو مـن الأرضـيات فـلا يقدر، بل هو بعد يسف من وجه الأرض ولا يتمكن من الطيران، إلا إذا ما جمع أفكـاره بالقراءة والأعمال والخوف والاهتمام بأنواع الفضيلة لأنه خارج عن هؤلاء مـا يعـرف شيئاً.

لأن هؤلاء أيضاً يصونوه من الدنس زماناً يسيراً وينقوا الضمير، وبعد ذلك أيـضاً يأتوا التذكارات ويزعجوا القلب ويدنسوه لأنه ما حس بعد بجو الحرية الهادئ الذي بغيـر تذكارات الأمور يجمع العقل بهدوء وسكون زماناً طويلاً.

لأنه اقتنى أجنحة جسمانية، أعني الفضائل الجسدانية الظاهرة بالفعل وأما ثاؤريـة الفضائل التي قد أقتنى فما شاهدها بعد ولا أؤهل للإحساس بها التي هي أجنحة العقل التي بها يدنوا من السمائيات ويبعد عن الأرضيات.

لأنه كل ما يتعبد الإنسان لله ويخدمه محسوساً وبالأمور، رسوم الأمور ترتسم في فكره ويكون يقيس الإلهيات بأشكال الجسم، وإذا ما أخذ إحساساً بالموجودات داخل الأمور حينئذ بمقدار إحساسه يصير العقل أعلى من أشكال الأمور في ذلك الوقت **" عينـي الـرب على الصديقين. وأذنيه مصغيتان إلـى طلبهم "** (مز ٣٣ : ١٤). صلاة المتواضع من الفم للأذنين .. أهتف بأعمال اتضاعك الصالحة في وقت صلاتك قائلاً: ربي وإلهي أنـر ظلمتي.

في الوقت الذي تكون فيه في سكون مع عمل الاتضاع الحسن إذا ما قربت نفـسك أن تخرج من الظلام، هذه علامة تكون لك: أنه يلتهب قلبك ويسخن كمثل النار ليلاً ونهاراً حتى أنك تعتقد أن كل العالم نفاية ورماد، ولا تحتاج إلى غذاء ولا يلذ لك ذلك من حلاوة الأفكار الجديدة الحارة المتحركة دائماً في نفسك ويعطى لك ينبوع الدموع بغتة، يفـيض

فيض النهر من عينيك بغير عنف ولا تغصب مختلطة بكل أعمالـك، أعنـي بقراءتـك وصلاتك ومع خدمتك وهنيذك وأكلك وشربك وبالجملة أن الدموع تكون ممزوجـة بكـل عمل لك.

فإن رأيت مثل هذه الأشياء في نفسك: فثق وتشجع وأعلم أنك قد قطعت البحر وزد بعد ذلك في أعمالك واحترس نعم الاحتراس لتتكاثر النعمة يوماً فيوماً، وإلى أن تصادف هؤلاء بعد الآن ما كملت طريقك فلست بمتمم المنهج الموصل إلى جبل الله تعالى.

فإن كفت الدموع بعد وجودك وتحصيلك نعمتها وبردت حرارتك من غير سبب أمر ظاهر، بعدهم أنت مزمع أن تنال خسارة كثيرة، فالويل لك إذا ما أضعت تعبك لأنك إمـا أن تكون قد فترت وتعظمت، وإما أن تكون قد فشلت وارتخيت.

أما ما يتبع الدموع بعد تحصيلها وماذا يصادف الإنسان من بعد جوازه عنهم وماذا يوافي من بعده أيضاً فسنتكلم فيه أخيراً في موضع أخر، في الفصول المقـصورة علـى النظر في السياسة والتدابير وسابق العلم واستنارة من الكتب ومن الآباء الذين أؤتمنوا على هذه الأسرار.

إن لم تكن لك أعمال فلا تتكلم عن الفضيلة الكريمة لدى اللـه تعـالى، الـضوائق والأحزان التي تكون من أجل البر أكثر من النذور والقرابين، رائحة عرق تعبهم أكثر من كل نسيم رائحتها يفوق كل طيب.

كل فضيلة لا يتضيق لها الجسد أعتقد أنها كسقط لا نفس له.

قربان الأبرار دموع عيونهم وذبيحتهم المقبولة تنهدهم في السهرانات.

معونة اللـه للمتوحد المنضغط بالتجارب من أجل الوحدة:

إن الصديقين يصرخون إلى الله سبحانه وتعالى منضغطين بثقل الجـسد، وبتنهـد وحزن يرسلون صلواتهم إلى الله سبحانه والطغمات القدسـية تـأتي علـى ضـجيجهم لمساعدتهم وتشجيعهم وتقوي رجاءهم وتعزيهم، لأن الملائكة يـساهمون القديـسين فـي

أحزانهم وتجاربهم لقربهم منهم.

الأعمال والاتضاع يجعلان الإنسان ملاكاً على الأرض، فأما الأمانـة والرحمـة فيوصلانه إلى النقاوة سريعاً.

ممتنع أن يصير في نفس واحدة حرارة وانسحاق، كما أنه ممتنع أيضاً أن يكـون إمساك وتصون في من هم سكارى بالخمر.

لأن الحرارة متى فوضت إلى النفس يزول منها انسحاق الذب، أما الخمـر متـى استعملت فتفيد بهجة ونضارة وقتية، وأما الحرارة فتعطى لمسرة النفس بها.

أما الخمر فيسخن الجسد وأما كلام الله تبارك وتعـالى فيفيـد الفكـر توقـداً، إن الملتهبين بالحرارة بهذيذ الرجاء يختطفون بأفكارهم إلى العالم العتيد.

كما أن الذين هم سكارى يتخيلون صوراً مختلفة، هكذا الـذين سـكروا بالرجـاء والتهبوا، لا ضيقة يعرفوا ولا عالم ولا شيئاً مما فيه.

هذه الأشياء تعرض لبسطاء القلوب المتوقدين بالرجاء وأشياء كثيرة تحدث لهم من بعد أعمال مديدة وطهارة قد أعدت للسالكين في طريق الصلاح، وإياها يذوقون في بداية الطريق بتوسط أمانة النفس فقط لأن الرب تعالى يصنع ما يريد.

طوبى للذين أطلقوا أنفسهم في بحر الضوائق والأحزان ببساطة ورجاء ولا يشوبها فحص أو اعتراض ولا يولون إلى الوراء من أجل المحبة لله سـبحانه وتعـالى، لأنهـم سريعاً يبلغون إلى ميناء المواعيد سالمين ويستريحون في منازل الذين جودوا في التعب، ويتعزون وينعتقون من شقائهم ويتنيحون بأملهم ذي الغبطة.

الذين بالرجاء يتدبرون لن يعرجوا أن ينظروا مؤذيات الطريق، ولا يتفرغوا للبحث عن مثل هذا، بل إذا ما قطعوا البحر وتأملوا تلك الأمـواج، تلـك المعـارج والأذيـات المخوفة، حينئذ يشكرون الله تعالى على ما أنعم به عليهم من الخلاص من تلك الوهـدات والكهوف والغيارات من غير أن يعملوا لأنهم ما اعتنوا أن يعطوا أنفسهم لنظر شيء من

هؤلاء، وأما الذين يكثرون الفكر ويريدون أن يكونوا حكماء ويتوفرون على المقاييس وتردد الأفكار وما يلزم عنها من العكس والجبان ويؤثروا أن ينظروا علل مؤذية، فإن هذه الطبقة يوجدون دائماً جلوساً على أبواب دورهم كمثل كسلان أرسل في طريقه فقال أن الأسد في الطريق، وقاتولاً في الأرحاب (أم ٢٢ : ١٣)، كالقائلين إننا عاينا أولاد الجبابرة ونحن لديهم كالجراد، ومدنهم حصينة وأسوارها تعلو إلى السماء (عد ١٣ : ٣٣).

هؤلاء هم الذين في وقت انقضائهم وموتهم يوجدون في الطريق وهم المؤثرون دائماً أن يكونوا حكماء ولا يرون البتة أن يبتدئوا، فأما الساذج الأممي فبالحرارة الأولى يسبح ويجوز ولا يهتم بالجسد ولا يفتكر في ذاته إن كان يتمم شيئاً مما هو سبيله أم لا.

لا تصر كثرة حكمتك مضرة (مذلة) لنفسك وفخاً قدام وجهك، بل ثق بالله تعالى وتشجع وابتدئ بالطريق المملوءة بالدم، لئلا توجد دائماً فقيراً وعارياً من معرفة الله تبارك اسمه، لأن الخائف والمتوقع الزوابع والأعاصير ما يزرع البتة.

أوفق لنا الموت لأجل الله تعالى، أفضل من حياة منوطة بخزي التواني.

إذا ما أردت أن تشرع في عمل الله عز وجل، أضمر أولاً كمن ليس له حياة في هذه الدنيا، وكمن قد تهيأ للموت وقطع رجاءوه ويآس من هذه الحياة الحاضرة وبلغ وقت أجله وليكن هذا في فكرك على الحقيقة حتى لا تتعرقل بأجل هذه الحياة عن الجهاد والظفر لأن رجاء هذه الحياة يرخي العزائم والفكر.

لهذا الحال لا تتفلسف بزيادة في أمرك، بل اجعل للإيمان مكاناً في قلبك وأذكر الأيام التي بعد موتك، وما يلم بك رخاوة البتة حسب قول الحكيم: " **ألوف من سني هذه الحياة الحاضرة ما هي مثل يوم واحد من عالم الصديقين** ".

ابتدئ بعمل الفضيلة بكل شجاعة ولا تثبت إليها بقلبين، ولا تنقسم في قلبك في طريق سيرتك وعلى رجاء نعمة الله سبحانه وتعالى لئلا يؤول تعبك لغير نفع ويثقل عمل فلاحتك، بل تحقق في قلبك أن الرب رحيم ويجيب طالبيه ويتفضل عليهم بنعمته لا بحسب

أفعالنا بل بمقدار حب أنفسنا وإيماننا به، لأنه يقول **" كَمَا آمَنْتَ لِيَكُنْ لكَ "** (مت ٨ : ١٣).

وأما فصول الأعمال فهى هذه:

- واحد يلطم هامته طول النهار ويعتاض بهذا من الاجتماع في صلوات السواعي.
- واحد يثابر مطانيات وهو يصلي عدد صلواته.
- وآخر يملأ مكان صلواته بكثرة دموعه ويكتفي بها ولا يطلب معها شيئاً آخـر، وهى له أفضل من كل شيء.
- وآخر يكتفي بهذيذ عقله ويغتذي به عن السنن المفروضة المحدودة للصلوات.
- وآخر يعاقب نفسه بالجوع حتى أنه ما يقدر أن يتمم صلواته.
- وآخر يثابر بالزابور (المزامير) بهذيذ متوقد بغير انقطاع.
- وآخر يسبى بإفهام الصحف الإلهية.
- وآخر ينعكف على القراءة ويلتهب قلبه بها.
- وآخر يذهل من معاني الألفاظ الإلهية ويستولي عليـه الـصمت وينعـاق مـن قراءاته المألوفة.
- وآخر يذوق هذه الأمور كلها ويشبع ويعود إلى وراء ويتخلف.
- وآخر ينال منها النذر اليسير فيداخله التيه والصلف ويفتخر ويضل.
- وآخر من كثرة مرض الجسد والضعف يتعطل من حفظ قانونه.
- وآخر يستولي عليه أمر ما، أو حب رئاسة، وآخر مجد فـارغ، وآخـر شـره وحب قنيان.
- وآخر ينشط وينهض ولا يرجع إلى الوراء إلـى أن يأخـذ الجـوهرة الثمينـة الكثيرة الثمن.

ابتدئ دائماً بعمل الله بفرح ونشاط وإن كنت طاهر من الآلام وتقسم القلب فإن الله سبحانه وتعالى يوصلك إلى الرأس ويعينك ويحكمك حسب إرادته تأخذ الكمال بتعجب.

الذي يليق به المجد والتسبيح مع أبيه الصالح وروحه القدوس إلى أبد الآبدين.

آمين.

الباب الرابع

مقصور على أسئلة وأجوبة
في تدابير متقنة وسائر أنواع الفضائل

سؤال : أي رباط يربط القلب حتى لا يبادر إلى الشرور ؟

جواب : بأن يتبع الحكمة دائماً، والإكثار على تعاليم الحياة، لأنه لا يوجـد ربـاط آخر لاضطراب الفكر أكثر من هذا.

سؤال : ما مقدار جرى الحكمة في طالبيها؟ وأين يكمل سائر التعليم بها ؟

جواب : لا يمكن أن يوصل إلى هذه الحدود، وأن يـستقرئ غايتهـا، حتـى وأن الملائكة القديسين قد قصروا في البلوغ إلى كمال الحكمة، لأن طرقها لا تنتهي ولا يـزال يتعالى بها تابعها إلى أن توجده بالله، ودليل ذلك أن التصور بها غير متناهي، وليس حـد لفهمها لأن الحكمة هى الله تعالى.

سؤال : أين هى الطريق الأولى التي هى مبدأ في أن تدنينا من اللّه ؟

جواب : هى الطلب لله عز وجل بكل المقدرة والجهد مدة الحياة وإلى الموت، وإن دعت الحال إلى نبذها وخلعها من أجل محبة الله تعالى فلا يتوانى.

سؤال : من هو المستحق أن يدعى فهيماً أو لبيباً ؟

جواب : الذي قد فهم بالحقيقة أن لحياته هذه حداً، وهو قادر أن يضع حداً لذنوبه، فأي علم وأي فهم يكون من أجل العلم، أعني أنه يتفلسف الإنسان بأن يخرج مـن هـذه

الحياة بلا فساد وليس له عضو متدنس برائحة الشهوات ولا وسخ قد شـاب نفـسه مـن حلاوتهم، لأن إنساناً يتلاطف ذهنه ويقف على أسرار كل الطبائع ويفرز عملهـا وفهمهـا وإدراكها وتكون نفسه متدنسة بدنس الخطية وما قد أدرك الحق برجاء نفسه أنه يصل إلى الميناء، ميناء الثقة، ليس في العالم من هو أجهل منه، لأن أعماله قد انتهت به إلى رجاء هذا العالم وأوقفته في سبله.

سؤال : أيهما هو الأقوى بالحقيقة ؟

جواب : المسرور بأحزانه وضيقاته الوقتية التي فيها قد أنستر مجد غلبته وظفره، ولا يؤثر السعة التي فيها قد انكتمت حياة الخزي وفي كل وقت تـسقي صـاحبها كـأس التنهد.

سؤال : إن انحرف إنسان عن الأعمال الصالحة لأجل التجارب هل يضره ذلك في سبيل اللّه تعالى؟

جواب : ما يمكن أن يدنوا إنسان من المسيح تعالى خلواً من ضنك، ولا ينحفظ بر الإنسان بمعزل من الغيار خلوا من الضوائق أيضاً، فإن قطـع الأعمـال المنميـة للبـر والمحافظة له يوجد ككنز غير محروس وكمجاهد عار من سلاحه إذا أحدقت به طغـوم أعدائه وكسفينة ليس لها آلتها، وكبستان قطع عنه ينبوع الماء.

سؤال: من هو المستنير في معقولاته؟

جواب: هو الذي قد لحظ فوجد المرارة الموجودة ـ المندفنة ـ في حلاوة العـالم ومنع نفسه من أن يشرب هذه الكأس وهو دائماً يبحث عن خلاص نفسه ولا يكـف عـن الجري إلى أن ينحل من هذا العالم، وقد أغلق أبواب حواسه لئلا يدخل إليه شـوق هـذه الدنيا فيسرق كنوزه المخفية.

سؤال: ما هو العالم؟ وكيف نعرفه؟ وما هو الذي يؤذي محبيه؟

جواب: إن العالم كزانية، قد اجتذبت ناظريها بشهوة جمالها إلى عشقها، والمقتنص بحبه والمشتبك به تشبيكاً جزئياً لا يقدر أن ينفك من يديه إلى أن يسلبه من حياته، وإذا ما عراه من كل شيء وأخرجه من بيته في يوم موته، حينئذ يعرف أنه مضل وقد أطغاه.

ومتى اجتهد المرء في الخروج من ظلمة هذا العالم فما دام في قبور شهواته مدفوناً فإنه لا يقدر أن يفطن إلى تشبيكاته وعلى هذه الصفة يمسك العالم لا تلاميذه وأولاده المرتبطين داخله فقط، بل والذين لا يقتنون شيئاً، وحتى النساك الذين قطعوا مرابطه وصاروا دفعة أعلى منه يسرع في صيدهم بأنواع أنواع وأن يهجم عليهم ويطأهم بجهات كثيرة.

سؤال: ماذا أفعل بالجسد إذا ألم به المرض والثقل؟ وارتخى منه العزم والإرادة من شهوة الصلاح والنشاط الأول؟

جواب: إنما يحدث هذا الأمر من أجل أن نصف من هم بهذه الصفة قد خرج وراء الله تعالى، ونصفه الآخر قد مكث في العالم، فقلوبهم لم تنصرف أغراضها عما هنا، بل انقسمت أنفسهم، فتارة ينظرون إلى قدام وتارة إلى الوراء، وعلى ما أظن أن الحكيم يعظ ويقول لهؤلاء المقتربين إلى الله تعالى مع انقسام: **" ولا تدنوا منها - أي الحكمة - بقلبين، بل أفد إليها كزارع وحاصد، فإن الرب يعرف المرتابين أنهم ليسوا في الكمال، بل هم منقسمون وراجعون إلى الوراء بأفكارهم بسبب خوف المضاغط وأنهم ما قد طرحوا بعد شهوة الجسد منهم "**، وعندما آثر تعالى أن ينبذوها من ألبابهم حد لهم حداً فقال: **" إنْ أرَادَ أحدٌ أنْ يأتيَ ورَائي فلْيُنْكرْ نفْسهُ "** (مت ١٦ : ٢٤)، وما هو هذا الجحد الذي يذكره هنا ؟ أي جحد الجسد ويكون مستعداً كمن هو دعى إلى الصعود على الصليب متصوراً في فكره الموت، وهكذا يخرج كإنسان غير مفتكر في شيء من هذه الحياة ومن آثر أن يتمم القول فعلى هذه الصفة يجب أن يكون، لأن الصليب يدل على الإرادة المستعدة للقاء كل الضوائق.

ولما أراد أن يفيد أن لأي علة أمر هكذا، من يريد أن يحيا في هذا العالم فسيهلك

ذاته من الحياة الحقيقية، وأما الذي ما يهلك ذاته ههنا من أجلي أي ما يسير في طريق الصاب ويضع خطاه فيها بل هو أيضاً مهتم بهذه الحياة، فقد أهلك ذاته من الرجاء الذي بتوسطه خرج للقاء الضيق والضنك، لأن هذا الاهتمام ما يخليه أن يدنوا من الحزن الذي من أجل الله تعالى، بل يجذبه إليه بعد قليل ويخرجه من وسط الحياة السعيدة وينمو فيه هذا الفكر إلى أن يقهرنا، وأما الذي يهلك نفسه في فكره من أجل الاشتياق إلي فإنه ينحفظ إلى حياة أبدية بمعزل عن اللائمة والأضرار، أي الذي يهلك نفسه من أجلي سيجدها.

فمن هاهنا أعدد نفسك لهلاك كامل من هذا العالم، نعم وسأجود عليك بحياة أبدية حسبما وعدتك وسأظهر لك وعدي بالفعل في هذه الحياة الأبدية إذا ما تهاونت بهذه الحياة الدنيا، وإذا ما حصلت في هذا الاستعداد إلى الأبد، حينئذ يقل في عينيك قدر كل ما كان يظن أنه متعب ومخيف، لأن العقل إذا ما تهيأ هكذا فليس يكون له جهاد ولا حزن في وقت هول الموت.

لهذه العلة إن لم يبغض الإنسان على الحقيقة حياته في الدنيا بشوق إلى الحياة المنتظرة فلن يقدر على احتمال الضوائق.

سؤال: بأية جهة يقطع الإنسان عوائده القديمة، ويعود ذاته مدة حياته الجديدة على التصرف بالعوز والنسك؟

جواب: الجسد ما يمكنه أن يعيش خلواً من حاجته. وإنما العقل يمكنه أن يمسك عن الغذاء والاسترخاء بمقدار ما يكون بعيداً عن هذه الأسباب التي تحدث له الاسترخاء لأنه إذا نظر علل التنعم توقظ فيه شهوة مضطرمة ولذلك أوصى مخلصنا الصالح تابعيه أن يتعروا ويخرجوا من هذا العالم.

لأن الإنسان أولاً ينبغي له أن يطرح عنه علل التنفخ والرخاوة وبعد ذلك يدنو من العمل، الرب نفسه عز وجل عندما ابتدأ في محاربة المحال إنما صار به في برية قاحلة جداً، والقديس بولس يرسم لحاملي صليب المسيح سبحانه أن يخرجوا من المدينة، نعم

ينبغي أن نخرج معه حاملين عاره لأنه خارج المدينة تألم.

لأن الإنسان من انفصاله عن العالم ومن أموره ينسى سريعاً عوائده الأولى، وما يتعب فيما بسبيله زماناً طويلاً، فأما القرب من العالم ومن أسبابه فأنه يرخى بسرعة فكر المرء، وأن ثبات الراهب في قلايته في عوز وعدم، وأن تكون قلايته فارغة من كل ما يحرك الشهوة شهوة الراحة والنياح، لهو أمر موافق وملائم ومعين له في الجهاد.

لأن أسباب الاسترخاء إذا ما بعدت من الإنسان لن يعاني مشقة كبيرة في القتال المتضاعف، أعني الذي من داخل ومن خارج، وأيضاً الإنسان البعيد من اللذات يغلب ويقهر الآلام بلا نصب (تعب) أكثر من الساكن بجوارها المتروك من جهتها، لأن الجهاد ههنا مضاعف.

فإذا ما كان الإنسان فقيراً في مسكنه، فإن حاجته أيضاً تكون بسيطة، ولا يعني بها ولا يخليها في خاطره، ولا حتى في وقت الحاجة إليها يشتهيها، وبشيء يسير يرجع الذهن إلى نقاوته، وينظر إلى الماديات العالميات نظراً متهاوناً، وما يدنو من الغذاء من أجل لذته بل ليسند الطبيعة ويقويها فقط.

هذه العلل والعلامات ترقي الإنسان سريعاً إلى النسك بغير تعب ولا مجاهدة ومكافحة أفكار، ويليق بالراهب ألا يختلط بالمحاربين له، بل ويتحفظ حتى من النظر إليهم ويبتعد من القرب منهم، وقولي هذا ليس من أجل البطن فقط بل ومن كل ما يمتحن به المرء وتختبر به حرية الراهب.

لأن الإنسان إذا ما أراد أن يقترب من الله عز وجل ينبغي له أن يعاهده على الابتعاد من كل هذه الأمور التي أصفها وهى أن لا ينظر وجه امرأة ولا يدنو إلى حسان المناظر ولا يؤثر التنعم ولا يشتاق إلى شيء مما لا ينبغي، ولا يطمح ببصره إلى جمال اللباس ولا ترتيب أهل الدنيا ولا يسمع أقوالهم ولا يكون متعلقاً بهم لأن الآلام تتقوى من القرب منهم ومن السماع عنهم فترخي المرء المجاهد وتغير عقله وما شرع فيه.

لأنه إذا ما كانت مناظر الأمور الفاضلة تحرك الضمير بالغيرة على المنافسة والانصراف إلى فعلها، فمن البين الظاهر أن أضداده لها القوة على جذب العقل (القلب)

إليها، وإن لم يحدث في الفكر لهذه أمر كبير إلا أنه قد يلقى في جهادات القتال.

وإذا كان بعض الشيوخ النساك وهو كبير في القديسين عندما نظر شاب أمرد شبيهاً بالنساء عد ذلك مؤذياً لفكره ويسبب له خسارة في جهاده، فكيف تجري حال من يتهـاون بأمور أخرى غير هذه، لا سيما وأن هذا الشيخ الحكيم والقديس ما استجاز أن يدخل إليـه هذا الأخ، لأنه ميز وقال إن أنا تفكرت فقط في هذه الليلة أن ههنا يحـدث هـذا الأمـر، ليكون لي ذلك خسارة عظيمة، لذلك قال لهم: " أما أنا يا أولادي فما أخاف ولكن على أي حال أي حاجة لي أن أتكبد حرباً باطلة ويدخل علي ذكر هذه الأشياء بدلاً من نقاوة عملي لأن ذكر مثل هذه الأشياء يزعج القلب إزعاجاً لا فائدة فيه.

لأن للإنسان قتالاً في كل واحد من أعضاء جسده فينبغي له أن يحفظ ذاته ويبعدها من قتال هذه الأمور، فإنه إذا ما دنى منها، فإنه على كل حال يقاسي منها الأهـوال، وإن جاهد في الخير إلا أنه سوف يواصل الاشتياق إليها، وكما بعدت عنه يكون له جهاد قليل بسببها.

إننا نعاين عقاقير عدة مستترة في الأرض وليس أحد يعرفها لشدة الحر في القيظ، فإذا ما تندت بالماء وفاح نسيمها من قوة برد الهواء حينئذ يتبين كل نوع منها أين هو في الأرض مدفون، وعلى هذه الصفة هو الإنسان إذا ما كان في نعمة السكون وفي حـرارة النسك، فإنه يكون مستريح من آلام كثيرة فإذا ما قرب من أمور العالم فحينئذ ينظر كيف ينهض كل واحد من الآلام ويرفع رأسه من موضعه ولا سيما إذا تنسم رائحـة الراحـة، وإنما مكث هذا حتى لا يتجاسر أحد ويثق ما دام حياً بجسده وإلى أن يموت، وكذلك لكي أظهر مقدار المعونة في الجهاد المتوجه للمرء في هربه وإبعاد ذاته مما ذكرناه.

الأشياء التي تجلب لنا خزياً بذكرها وحزناً، ينبغي لنـا أن نخافهـا وأن لا نطـأ الضمير ونتهاون بها في معناها، فالأوفق لنا أن نذهب إلى البرية بالجسم لكي نجعله يقتني الصبر.

وأفضل الأشياء كلها أن نبتعد من علل القتال، لأن الإنسان إذا كان بعيداً من ذلـك الشيء الذي هو سبب قتاله، ولو أنه يتضيق بالفكر فلا خوف يكون منـه، أمـا إذا كـان

الشيء قريباً منه سقط بالفعل.

سؤال: الذي طرح ونبذ عن نفسه كل تشتت، ودخل إلى أبواب جهاد الخطية .. أي ابتداء يكون له في القتال؟ ومن أين يبتدأ الحرب ضدها؟

جواب: إن هذا لمعروف عند الكل: وهو أن تعب الصوم هو مبدأ كل جهاد ضد الخطيئة والشهوة، ولا سيما مقابل الخطية التي داخلنا ومجاهدتها.

وعلامة الخطية وجهاداتها من هاهنا تتبين للمهتمين قبالة هذا القتال غير المنظور أنهم بالصوم يبدأون، والذي يساعد أيضاً على هذا الأمر مع الصوم هو سهر الليالي، فإن المحب للصوم كل أيام حياته يكون صديقاً للعفة، كما أن راحة البطن مبدأ لكل الشرور، وكذلك محبة خيرات هذا العالم، والاستلقاء في النوم ينهض شهوة الزنا.

إن الصوم والسهر في خدمة الله تعالى، وصلب الجسم جميع الليل قبالة عذوبة النوم هى مبدأ طريق الله تعالى القدسية، وأساس كل فضيلة، ومعظم الفضائل ومبدأ الجهاد وإكليل ذوي الإمساك وجمال العذوبة والقدس وبهاء العفة وابتداء الطريق المسيحية وأم الصلاة وينبوع التضرع ومعلم السكون ومصدر كل المناقب الجميلة.

وكما أن يتبع العيون الصحيحة الاشتياق إلى النور هكذا يتبع الصوم المقرون بإفراز شهوة الصلاة، وإذا ما ابتدأ الإنسان أن يصوم فمن هاهنا يشتاق فكره إلى الحديث إلى الله عز وجل.

الجسم الصائم ما يتم له أن ينام على مفرشه كل الليل. بمقدار ما يتوفر المرء على الأصوام وينختم فمه بخاتمها، على هذا يتصل في هذيذه بخشوع ويحرك قلبه للصلاة ويظهر الانقباض والعبوسة في وجهه وتبتعد عنه الهواجس السمجة ويبتعد الغنج والطرب من بين عينيه ويكون عدواً للشهوات وكل المحادثات والمجاذبات الباطلة.

وما يكاد يرى واحد صائماً بإفراز قد استعبدته شهوة سمجة، أنه أس (أساس) عظيم لكل فضيلة، ومنزل حاو لكل خير ومن تهاون به فقد أزال عنه كل خير وزعزع عنه كل فضيلة. لأن هذه هى الوصية الموضوعة منذ البدء في طبيعتنا للحفظ والصيانة، ومن هاهنا سقط مبدأ جبلتنا، ومن ذلك حيث أتى الهلاك الأول منه هو ذاته، اقبل

المجاهدون إلى خوف الله تعالى بالصوم عندما شرعوا في حفظ نواميسه.

والمخلص جل اسمه عندما ظهر للعالم في الأردن من هاهنا ابتدأ ـ أي بالصوم ـ والدليل على ذلك أن الروح بعد العماد أخرجه إلى البرية فصام أربعين يوماً وأربعين ليلة، وكل الذين خرجوا مقتفين أثره على هذا الأساس وضعوا جهادهم، لأنه سلاح مصنوع من الله تعالى ومن تهاون به كيف لا يلام؟

فإن كان واضع الناموس قد صام. فمن من المؤثرين حفظ الناموس لا يحتاج إلـى أن يصوم؟

لذلك إلى ذلك الوقت لم يعرف جنسنا الغلبة إلا بهذا السلاح ـ سـلاح الـصوم ـ ولا المحال جرب طبيعتنا البتة وانهزم إلا به، بل بهذا السلاح ضعف من الابتداء، وربنـا كان البادي بالظفر وجاد أولاً بتاج الفتك ـ الصوم ـ على رأس طبيعتنا.

وإذا ما نظر المحال المعاند والعدو المارد هذا السلاح على إنسان من الناس للحين يخاف ويتذكر سريعاً انخزاله وانهزامه في البرية من جهة المخلص تعالى وتتكسر قوتـه بنظر السلاح المفوض إلينا من رأس جيشنا.

يا ليت شعري أي سلاح يكون أقوى منه ويطير القلب شجاعة في المصارعة ضد أرواح الشر، أعني الجوع من أجل الملك المسيح سبحانه وتعالى، لأنه بمقدار ما يتعـب الجسد ويشقى في الأوان الذي فيه يحدق بالإنسان جيش الشياطين، على ذلك الحد يعتصم قلبه بالثقة، والذي قد توشح قلبه بسلاح الصوم يضطرم بالغيرة في كـل زمـان، وإيليـا الغيور عندما غار من أجل ناموس الله قصد الصوم قصداً، لأن الـصوم يـذكر مقتنيـه بوصايا الروح.

الصوم واسطة ما بين الناموس القديم والنعمة المفوضة إلينا من المـسيح تعـالى، ومن يتهاون به فإنه يتراخى ويضعف عن البقية الباقية من الجهادات، وعلامة الاسترخاء تدل على نفسه، ويكون في حرب عوضاً عن الانتصار، لأنه وفد إلـى الجهـاد عاريـاً. ومن البين الظاهر أنه يزوغ من الجهاد خلواً من الظفر لأنه مـا درع أعـضاؤه بـدرع الصوم وسلاح الجوع الذي بتوسطه ينخرس الإنسان ويكون ذا فكراً ثابتاً نحـو مواجهـة

الآلام الصعبة والضوائق المحزنة.

وقد سمعنا عن جماعة من الشهداء أنهم في اليوم الذي كانوا فيه يتوقعون قبول إكليل الشهداء، ما كانوا يذوقون شيئاً في تلك الليلة، بل كانوا ينصبون من العشاء إلى الصباح ساهرين في الصلاة وممجدين الله تعالى بالمزامير والتسابيح والتماجيد الروحية وكانوا يستقبلون تلك الساعة بفرح وحبور كقوم مستعدين للعرس، يتوقعون لقاء السيف بصومهم.

فالخليق بنا نحن أيضاً المدعوين إلى الشهادة غير المنظورة وإلى قبول إكليل القدس أن نتيقظ ولا نعطي لأعدائنا علامة الانكسار ولا في واحد من أعضائنا.

سؤال: إن طائفة من الناس على أكثر الأمر لهم هذه الأعمال وما يحسون بسكون الآلام وهدوئها ولا بسلامة الهواجس؟

جواب: أيها الأخ .. إن الآلام المدفونة في النفس ما تهدأ، وما تسكن بالأعمال الجسدانية فقط، والأعمال التي بالجسد لا تصد وحدها ولا تمنع الأفكار والهواجس المنتبهة دائماً بواسطة الحواس، لأن هذه الأتعاب تحفظ النفس من الشهوات لئلا تنفر منها وتنغلب ومن الشياطين لئلا يؤذوها في شيء.

أما السلامة والهدوء فما تعطيها للنفس ولا تفيدها شيء منها.

إنما الأعمال والأتعاب حينئذٍ هى التي تمنح عدم الآلام ـ تريح من الآلام ـ وتميت الأعضاء التي على الأرض، وتجود بالراحة على الفكر، إذا ما توافرنا على السكون، وأشركنا معها الأتعاب، وسكنت الحواس التي من خارج من الانزعاج، وثابرت بدوام الحكمة زماناً.

لأن الإنسان إن لم يبتعد من لقاء الناس وتنصان أعضاؤه من مجاذبات أمور كثيرة ويجمع ذاته إلى ذاته وما يقدر أن يعرف آلامه ولا يفهم، لأن السكوت حسبما قال القديس باسيليوس هو ابتداء طهارة النفس.

لأن الأعضاء البرانية إذا ما كفت عن التشويش الذي من خارج، عند ذلك يرجع العقل من الطياشة إلى بلده ويستيقظ القلب للفحص عن الحركات والمعاني التي هى داخل

النفس إذا ما أحسن الثبات في هذه الأمور فإنه يأتي إلى طهارة النفس.

سؤال: أما يمكن للنفس أن تتطهر بتصرفها خارج الباب؟

جواب: كشجر يسقى كل يوم ما يجف أصله، وإناء يقبل كل يـوم زيـادة متـى ينقص؟!

فإن كانت الطهارة ليس شيء آخر سوى نسيان التصرف الفاقد للحريـة، وزوال عوائد هذا التصرف وإن كان هذا بالفعل يجدد ذكره في النفس، أعني ذكر هذا التـصرف الذي هو معرفة الشرور، فمتى يمكن أن تتطهر النفس من هذا الأمر أو متى يتفرغ مـن المجاهدات التي من خارج إن كان ما يعاينها؟

لأن القلب إذا ما تدنس كل يوم فمتى ينقى من الدنس؟ نعم ولا يقدر أن يقاوم الفعل ولا السقوط فكم أجدر الذي هو ماثل في وسط المعسكر، وسامع كل يوم نـداء الحـرب، وبشاراته الصعبة، ومن هو هكذا كيف يتجاسر أن ينادي بالسلامة للنفس؟

فأما إن ابتعد عن هذا فحينئذ بعد قليل يقدر أن تسكت المناوئ التي في داخله، لأن النهر متى كان لا ينسد من فوق ما تنشف مياهه من أسفل.

إذا ما أتى إنسان إلى السكون، حينئذ تقدر نفسه أن تميز الآلام وتفحص عن حكمة ذاتها، ويستيقظ الإنسان الجواني لعمل الروح، ومن يوم إلى يوم يحس بالحكمـة الخفيـة المزهرة في نفسه.

سؤال: ما هى الأدلة الأكيدة والعلائم الواضحة السديدة والقريبة بالذي قد ابتدأ أن ينظر من داخله عمل الأثمار الخفية التي للنفس؟

جواب: إنه إذا ما أؤهل لموهبة الدموع الواردة من غير تغصب ولا تكلف فهـى كحد ما للفكر ـ وقد وضعت الدموع كحد ما بين الجسدانيات والروحانيات، وما بين التألم والطهارة، فإن لم يؤهل الإنسان لنعمتها ففعله بعد في الإنسان البراني ومـا قـد أحـس ولا قليلاً بالعمل الخفي الذي للإنسان الروحاني.

فإذا ما بدأ يترك جسدانية هذا العالم ويسير داخل هذا الحد الموجود الذي هو مـن

داخل هذه الطبيعة المربية فإنه للحين يصل إلى هذه النعمة أعني نعمة الدموع.

ومن ملازمته المنزلة الأولى التي للتدبير الخفي والسيرة المكتومة، تبتـدئ هـذه الدموع وتوصله إلى كمال محبة الله عز وجل.

وبمقدار ما يتقدم إلى هناك على ذلك الحد يتوفر حظه منها حتى أنه يـشربها فـي كأسه ومع غذائه من طول مكوثها ودوام اتصالها، وهذه علامة أكيدة على أن العقـل قـد انصرف من هذا العالم والفكر خرج من هاهنا، وحسن بذلك العالم الروحاني.

وبمقدار ما يقرب الإنسان بفكره من هذا العالم على ذلك الحد يقع من هذه الدموع، ومتى كان العقل منصب إلى هذا العالم بالكلية فإنه يعدم لهذه العبرات وهذا دليل على أن الإنسان الذي هو هكذا قد دفن في قبر الآلام.

إن الدموع على ضربين: منها ما يحرق ويلهب القلب، ومنها ما يبهج ويزهر، فكل التي تنحدر من القلب لأجل الهفوات فإنها تيبس الجسم وتحرقه، وفى أكثر الأمـر يحـس الإنسان في دماغه بالمضرة من بروزها. وفي الأول تـصادف الإنـسان هـذه الـدموع وبتوسطها لفتح له باب يدخل فيه إلى الثانية التي هى أفضل من الأولى وهـو الموضـع الذي يقبل فيه الإنسان الرحمة.

وأيما هو هذا: هى الدموع التي تفيض من الإفهام وتدسم الجسم وتنضره، وتنحدر من ذاتها من غير إكراه وتغصب، ومنظر الإنسان يتغير والجسم يدسم لأنه يقول إذا مـا فرح القلب أزهر الوجه وحسن الجسم.

سؤال: ما هى قيامة النفس التي يقول عنها الرسول: إن كنت قمتم مع المسيح؟.

جواب: يقول الرسول في موضع آخر: **" لأنَّ اللَّه الذي قال: أنْ يُشرق نورٌ مِنْ ظُلمَةٍ، هو الذي أشرَق في قُلوبنـا "** (٢ كو ٤ : ٦)، دل على أن القيامة هى الخـروج من الأمور العتيقة التي هى مثل هاوية الجحيم مغلوقة في وجه الإنسان، لئلا يـشرق لـه نور الإنجيل بالسر الذي هو نسمة الحياة برجاء القيامة، تلك التي تنظر بها الحكمة الإلهية داخل القلب.

وإن الإنسان يصبح جديداً ليس فيه شيء من الأمور الحاضرة حسبما يقول: **" وأعْطيكُم قلباً جديداً، وأجْعَلُ روحاً جَديدةً في داخِلِكُم " (حز ٣٦ : ٢٦)**، وعند ذلك بالحقيقة يرتسم فيهم المسيح بتوسط روح الحكمة وانكشاف الاستعلان للمعرفة به.

سؤال: ما هى قوة فعل السكون على سبيل الإيجاز؟

جواب: إن السكون يميت الحواس الخارجية وينهض الحركات التي من الداخل، وأما التصرف الذي من خارج فيفعل بضد هذا، أعني أنه يقيم الحواس التي من خارج ويميت الحركات التي من داخل.

سؤال: ما هى علة المناظر والإعلانات؟ وذلك أن قوماً من الناس ينظرون، وآخرون يتعبون أكثر منهم وما يفعل فيهم المنظر فعله؟

جواب: إن عللها كثيرة وذلك إن منها ما هو على سبيل السياسة وتدبير العامة ومنها ما هو على وجه التعزية وتقوية المنة والتعليم وهذه كلها تتوجه إلى الناس لأجل رحمة الله.

وأولاً على أكثر الأمر أنها تام ثلاثة أصناف من الناس:

١ - إما أن تأتي إلى قوم بُسطاء وعادمي الشر ودعاء فوق الغاية.

٢ - إما إلى قديسين كاملين.

٣ – إما لقوم لهم غيرة تتوقد في الله تعالى وقد هجروا العالم ورفضوه بالكلية، وابتعدوا من مساكنة الناس وخرجوا وراء الله مجردين لا يتوقعون معونة ما من المنظورات ولا يغشاهم جبن من الانفراد ويحدق بهم ما يضاهي الموت خطراً من الجوع والموت والمرض أو شيء غير هذا من الضوائق والكوارث، حتى أنهم يدنون من اليأس وقطع الرجاء.

عند ذلك فالتعزيات تأتي لهؤلاء، وغيرهم الذين لهم أعمال أكثر منهم لا يحصل لهم شيء من هذا، وهذه علتها الأولى الطهارة، ولست أعني طهارة الضمير وأما الثانية فهى

هذا حقاً.

وبمقدار ما يكون للإنسان عزاء بشري أو من جهة شيء من المنظورات فإن هـذا العزاء، أي عزاء المناظر لا يتوجه إليه إلا لأجل سياسة ما من أجل الجماعة.

وكلامنا هو من أجل المنفردين المبتدئين، وأحد من الآباء يشهد بهذا أنـه توسـل وتضرع إلى الرب من باب العزاء، فسمع يكفيك للعزاء مفاوضة الناس.

وآخر كان بهذه الصفة فعندما كان منفرداً ومتصرفاً تصرف المتوحدين كان يتمتع بهذا العزاء من النعمة كل ساعة، ولما قرب من العالم التمسه على العادة المألوفة فلم يلقه، فابتهل إلى الله أن يدله إلى العلة قائلاً: ترى نعمتك قد انصرفت مـن أجـل الأسـقفية؟ فقيل له: لا بل في ذلك الوقت كانت برية وكنت أهتم بك.

فنقول إنه لا يمكن أن يشترك العزاء الروحاني مع العزاء المنظـور الجـسداني. لا يتوجه إلى أحد من الناس إلا لسياسة من السياسات المتقدم ذكرها.

سؤال: هل المنظر والاستعلان شيء واحد وإلا كمثل ما هما مفترزان بالاسم هما أيضاً مفترزان بالعقل؟

جواب: لا بل بينهما فرق بين الاستعلان للنظر أما الاستعلان فيقع على أمرين بأن الخفي يظهر شيئاً كان مخفياً أولاً وخرج إلى الظهور بشيء من هذين النوعين فكل منظر استعلان وليس كل استعلان يقال له منظر لأن الاستعلان على أكثر الأمر إنما يتحصل في الأمور المعلومة والمذاقة المدركة من العقل.

أما المنظر فيكون من كل صنف بمثالات وأشكال ورسوم كما صار فـي القـدماء قديماً، إما في نوم مستغرق وإما في يقظة وتارة على التحقيق وتارة على الخيال، فالناظر نفسه على أكثر الأمر لا يعرف ما قد نظر إن كان يشاهد الأمر، ساهراً أو راقداً، ولا إذا رجع إلى ذاته ما يعرف إن كان حقيقة قد حصل له الشيء الذي كان أم لا، ودفعة يرمـق رسما ما، ودفعة ينظر وجهاً إزاء وجه.

والمناظر والمحادثات والمسألات والجوابات هى قوى قدوسه تظهـر للمـستحقين

وتصنع الاستعلانات وتخبر الذين في القفار والمنفصلين من بني البـشر مـن حيـث أن الإنسان مضطر إليها لأجل أنه ليس في المكان مؤازرة ما ولا عزاء، وأما الاسـتعلانات المحسوسة بالفهم والعقل بتوسط الطهارة تحصل وتقبل ووجودها للكاملين العارفين فقط.

سؤال: ما هى العلامة التي تدل على أن الإنسان قد وصل إلى طهارة القلب؟ ومتى يعلم هو في ذاته أن قلبه قد طهر؟

جواب: متى رأى الناس كلهم جياداً ولم يظهر له ولا واحد منهم دنـساً ولا غيـر طاهر حينئذ يكون قلبه قد طهر على الحقيقة وإلا كيف يتم ذلك الأمر قول الرسـول: أن يكون الإنسان كاملاً في كل فضيلة **(يع ١ : ٤)** ويحسب كافة الناس أنهم أفضل منه مـن كل قلبه وبالحق، وكيف أيضاً يصح قول القائل: **" إن عينـا نقيـة لا تنظر أمـوراً رديئـة ."**

سؤال: ما هى الطهارة؟ وما هى حدها؟

جواب: الطهارة هى نسيان معرفة أنواع العالم الخارجة من الطبـع، الأمـور التـي وجدها الطبع في العالم واقتناها منه، وحدها هو الانعتاق من هذه الأمور حتى يرجع الإنسان إلى بساطة طبيعته الأولى وعدم الشر ويصير كطفل بمعزل عن النقائص فقط إلا ما كـان للطفـل فقط.

سؤال: هل يمكن للإنسان أن يبلغ هذه الرتبة؟

جواب: نعم .. ها الأب شيشوي قد بلغ إلى هذا المقدار حتى أنه سأل تلميذه هل أكل أم لا ؟

وآخر من الآباء في زماننا وهو شيخ قديم وصل إلى الطهـارة وهـذه البـساطة والوداعة حتى قارب الأطفال، وحتى نسى ما هو هاهنا، وأكل قبل تناول الجسد الإلهـي، ولو لم يمنعه تلميذه لكان قد تناول وهو لا يعلم بأنه قد أكل، وكان تلاميذه يقربونه كالطفل، وأما في النفس لدى الله تعالى فكان كاملاً.

سؤال: أي هذيذ ومفاوضة ينبغي للناسك أن يستعمل في موضع سكونه وحبسه حتى

لا يشتغل عقله بأفكار باطلة؟

جواب: عن هذيذ الراهب تسأل .. وكيف يكون الإنسان المائت يتصرف في قلايته؟ هل الإنسان الحريص المتيقظ في نفسه يحتاج أن يسأل كيف يتصرف؟ وأي عمل يكون له إذا كان وحده.

ما هو هذيذ الراهب في قلايته إلا أن يكون البكاء ولعله من البكاء يجد فسحة وتمكنا من الإصغاء إلى فكر آخر وأي هذيذ يكون أفضل من هذا الهذيذ.

لأن جلوس الراهب وانفراده في شبه القبر الهادئ من كل مفرحات العالم يعلمه أن البكاء هو عمله والنوح هو ديدنه، وهذا اللقب أي اسمه أعني نواح يحرضه أيضاً على هذا الأمر، ومعنى هذا هو ألم القلب، وكل القديسين خرجوا من الدنيا وهم نائحون، وإذا كان القديسين قد ناحوا وانتحبوا وامتلأت عيونهم دموعاً إلى أن رحلوا عن هذا العالم، فمن ذا الذي لا يبكي؟ عزاء الراهب من البكاء يتولد، إن كان الكاملون الفائقون قد بكوا هاهنا فالمملوء جراحات كيف يصبر على هذا النحيب.

الذي له ميت ملقى بين يديه هل يحتاج إلى تعليم، وأن يقاد بأي فكر يذرف الدموع والعبرات؟ نفسك ميته بالذنوب ملقاة بين يديك وهى أفضل عندك من كل العالم وتفتقر إلى البكاء، إن نحن وردنا إلى السكون لنقدر به على الصبر ولملازمة البكاء لهذا الحال نحن مفتقرون إلى أن يكون الرب تعالى في فكرنا دائماً ليمنحنا هذا الأمر، لأننا إن ظفرنا بهذه النعمة التي هى أفضل من بقية النعم وأجل، لندخل بواسطتها إلى الطهارة، وإذا دخلنا إليها لن تنزع منا إلى أن نخرج من هذه الدنيا.

" طُوبَى للأنْقياءِ القلب " (مت ٥ : ٨) فأنه لا يوجد وقت إلا ويتمتعون فيه بهذه النعمة ـ نعمة الدموع ـ وفيها يشاهدون الرب عز وجل دائماً. وأيضاً فإن الدموع إذا كانت في العيون فأنهم يؤهلون لمشاهدة استعلانات في علو صلواتهم ولا توجد لهم

صلوات بمعزل عن العبرات، وهذا هو المعقول من الرب طوبى للباكون الآن لأنهم سيتعزون.

لأن الإنسان من البكاء يأتي إلى الطهارة، ولذلك قال الرب تعالى أنهم سيعزون، ما فسر أي عزاء هو هذا العزاء.

فإن الراهب إذا ما استحق أن يجوز بلادة الآلام بتوسط انسكاب الدموع ويصل إلى ميدان الطهارة التي للنفس، بها يصادف هذا العزاء الذي لا يزول من الذي وجده من هنا، وحينئذ يفهم أي عزاء أثمرت غاية الندب وهو الذي يجود به الله على الباكين النائحين بتوسط الطهارة.

لأنه لا يمكن أن تضغط الآلام إنساناً يبكي دائماً لأن البكاء هو بمعزل عن الآلام. فإن كانت الدموع تقدر أن تنقل عقل النائح وقتياً من الآلام وذكرها، فماذا نقول في الذين هذا الفعل كدهم وديدانهم ليلاً ونهاراً.

من يعرف المعونة التي تحصل من البكاء إلا الذين قد أسلموا أنفسهم لهذا العمل.

كل القديسين اشتاقوا إلى الدخول وبتوسط الدموع فتح الباب قدامهم ليدخلوا إلى بلادة العزاء التي رسمت فيها آثار الله بتوسط الاستعلان.

سؤال: وإن لم تكن في الإنسان كفاءة مداومة البكاء لأجل ضعف الجسد فلعل ثمة شيء آخر يضبط به فكره لئلا تقفز عليه الآلام من أجل بطالة عقله؟

جواب: لا تستطيع الآلام أن تقفز على النفس وتضغط المتوحد الذي قلبه خال فارغ من العالم لأجل التصرف الفريدي في سكون القفر البرية العادم من اضطراب وأصوات وسجس الخليقة إلا إذا تهاون في تكميل صلوات أوقاته وبما يليق بعمل الوحدة، وبالأكثر له مع مفاوضة الكتب أفكار يتساعد بها، أعني نظر الإفهام.

ومن هاهنا تبتعد من عنده الأفكار السمجة الباطلة، ولا يقدر أن يتفرغ الفكر منها لكي يلتفت إلى العالم بالكلية من أجل حلاوة تلك المفاوضة التي بها يرتفع العقل كالسكران

بواسطة السكون الحادث من القفر في البرية وينسى ذاته وهذيذه الأول ويكـون كإنـسان سكران ولا يذكر هذا العالم بالكلية.

وبالأكثر إذا ما أخذ في عقله هذيذاً من عظمة الله ومجد طبيعتـه وتعجـب مـن أعماله، ومحقرة الإنسان ذاته، وإلى أين وصل حتى أنه يهدس ويهذ بهذه العظمة.

وأي فكر يجسر أن يأخذ في نفسه لتنعمه لكي يهدس في كل وقت بدهش حركاتـه كالتصرف الذي يكون بعد القيامة.

كثيراً ما يساعد السكون على هذا بأن ينتصح العقل برجوعه إلى ذاتـه بواسـطة السلام الذي وجد له من السكون، ويتحرك من هاهنا بتذكار قصد تصرفه، ويأخذ في فكره مجد العالم الجديد والرجاء المعد للصديقين وتلك الحياة المتحركة بالروح المزهرة باللـه جميعها، وذلك التصرف الجديد الذي ليست فيه حركة ذكر شيء من هذا العالم.

وإذا ما سكر بهؤلاء ينتقل بتصوره عن كونه في هذا العالم، ويقول متعجباً يالعمق غنى حكمة الله وضميره غير المفحوص ولا مدرك، وأحكامـه التـي لا تعـرف إذ أن عالماً آخر هكذا عجيباً قد أعد لكل الناطقين ليدخلهم إليه ويحفظهم بغيـر انتقـال بحيـاة أبدية لا حد لها.

ما هو السبب الذي لأجله صنع هذا العالم أولاً وأوسعه جداً بتواتر كثـرة الطبـائع ووضع فيه أسباب ومواد الآلام الكثيرة وجهاد وضعنا فيه أولاً، وركز في طبيعتنا محبـة الحياة فيه كثيراً وينقلنا منه بعد ذلك بالموت ويحفظنا مدة طويلة بعد ذلـك بغيـر حـس كالحجارة والأخشاب، ويفسد أشكالنا ويشتت مزاجنا ويخلطه بالأرض وتسقط هذه حينـاً وتنتثر حتى يخرج من كل شكل الترييب. وفي الوقت المحدد من حكمتـه إذا مـا شـاء ينهضنا ويقيمنا بشكل آخر كمثل ما يعرف وهيئة أُخرى، وليس نحن فقط وبل الملائكـة القديسين غير مفتقرين لاستعمال هذا العالم لأجل طبيعتهم العجيبة لأنهم قائمون بشيء من قليل أنقص من الكمال وينتظرون قيامنا ونهوضنا من الفساد، وحتى يقوم جنس البشر من التراب ويتحرك ويأتي إلى التجديد لأنهم متعوقون لأجلنا من الدخول لكي بواحدة ينفـتح باب العالم الجديد الذي ينتظرونه لنا ولهم، لأن خليقة الملائكة تتنهد معنا من ثقـل هـذا

الجسد الذي ينتظروننا فيه وينتظرون ويترجون استعلان بني الله لكي تنعتق الخليقة مـن عبودية الفساد بعتق مجد أبناء الله، وكيف تهدم هذه التقانة والترتيب جميعه ويتلاشى أمره كمثل ما تعدم تقانة جسدنا القديم.

ويرتفع أيضاً بعقله إلى قبل مبدأ هذا العالم وقبل أن تكون هذه الخليقة، إذ لم تكـن لا سماء ولا أرض ولا ملائكة ولا شيء من هذه المكونات وكيف أتي بهـا بغتـة إلـى التكوين وحيث شاء خلق كل شيء قام قدامه تماماً.

وينزل بفكره إلى جميع خلائق الله ويتفرس في أعماله العجيبـة وحكمـة خلقتـه المدهشة وسياسة تدبيره غير المدرك من كل المعقول وقوة استطاعة فعله العجيب كيـف أتي بالخليقة من العدم إلى الوجود بكثرة إفرازات لا عدد لها، وكيف هو مزمع أن يفـسد هذا الترتيب العجيب من اهتمام الطبائع وترتيب جريان الخلائـق والأزمـان والأوقـات وموافقة الليل مع النهار وغيارات فصول السنة وأمور الأرض والأنواع المختلفـة التـي فيها، وبنايات المدن الشامخة، وجرى الناس المتواتر الطبيعة المتعوبة من حيث يدخل إلى العالم حتى يخرج منه، وكيف يبطل فجأة هذا الترتيب العجيب ويأتي إلى عالم آخر بالكلية لم يكن يصعد على قلب إنسان بذكر شيء من هذا العالم ويكون فيه تصرف آخر وأفكـار أخرى وهذيذ آخر، ولا يعود طبع البشر يذكر هذا العالم ولا تصرفهم فيه أولاً لأنه ينضبط بنظر عقلهم بهيئة وتقانة ذلك العالم الآخر ولا يتفرغ أن يفتكر شيئاً من أجيال اللحم والدم ومع زوال هذا يبدأ ذاك.

يا أيتها الوالدة التي تعدم أولادها بغتة التي ولدتهم وربتهم وحملتهم، وبلمح بـصر يجمعون إلى حضن آخر ويكونون بنين حقيقيين للعاقر التي لم تلد، افرحي أيتهـا العـاقر التي لم تلد بالبنين الذين ولدتهم لك الأرض (إش ٥٤ : ١).

ويفكر في هذا متعجباً: ترى متى يزول هذا ويبدأ ذاك؟ وكم مدى رقـاد الأجـسام على هذا النوع وهى ممتزجة بالتراب؟ وكيف يكون ذلك التصرف؟ وبأي شبه يقوم هـذا الطبع! وبأي نوع يأتي إلى الخليقة الثانية؟

وبهذا وما يشبهه يقع عليه سكون وذهول ويقوم في تلك الساعة ويجثو على ركبتيه

ويقدم الشكر والتمجيد للرب الحكيم في أعماله.

مغبوط هو المهتم بهذه الأشياء ليلاً ونهاراً، طوبى لمن تفاوض بها كل أيام حياتـه وإن كان في البداية ما يحس بالمعونة التي تكون من هذا من أجل طياشته فـلا يـضجر ولا يمل، لأن ليس في حال ما يلقى الفلاح البذار ينتظر السنبل، لأنه يقفو الزرع الضجر وقطع الأوصال، ولكن يلذ للفلاح إذا ما أكل من عرقه خبزاً.

هذا الهذيذ في السكون والتحفظ يسكب في القلب حلاوة لا حد لها، ويجذب العقـل بسرعة إلى دهش لا ينطق به، طوبى لمن انفتح قدامه هذا الينبوع وشرب منه فـي كـل ساعة الليل والنهار.

سؤال: ما هى غاية كل أعمال هذا التدبير متى إذا وصل إليها الإنسان يعرف أنـــــــــــــــــه قـــــــــــــــــد وصـــــــــــــــــل إلى هذه السيرة؟

جواب: إذا ما أؤهل للصلاة الدائمة، لأنه إذا ما بلغ إلى هذه السيرة يكون قد وصل إلى غاية كل الفضائل، ومنذ الآن يكون مسكناً للروح، وإن لـم يقبـل الإنـسان موهبـة البارافليط على التحقيق ما يمكنه أن يصلي على الدوام براحة لأن الروح إذا ما سكن في الإنسان لا يفتر عن الصلاة، لأنه هو الروح على الـدوام يـصلي، وإن كـان راقـداً أو مستيقظاً لا تنقطع الصلاة من نفسه إن أكل أو شرب أو نام أو صنع شيئاً مـا، أو كـان غارقاً في نوم ثقيل بخور الصلاة يتحرك داخل قلبه بغير تعب.

ولا تكون له أوقات محدودة للصلاة عند ذلك، بل في كـل الأوقـات، وإذ يكـون صامتاً يخدم بالصلاة خفياً لأن صمت الأتقياء صلاة كما قال قديس، لأن أفكـارهم هـى حركات إلهية وهواجس الضمير النقي هى أصوات هادئة بها يرتل للخفي خفياً.

سؤال: ما هى الصلاة الروحانية؟ وكيف يستحقها الإنسان؟

جواب: هى حركات نفسانية قد شاركت الروح القدس بالطهارة الحقيقية، واحد من ربوات الناس يؤهل لهذه لأنها سر التصرف الذي يكون في العالم الجديد بأن يرتفع القلب

ويتخلف عن حركة كل تذكارات الأمور الحاضرة.

وليست صلاة يصلى بها، بل حسبما تحس النفس بالأمور الروحانية التي لذلك العالم.

شيء يفوق عقل البشر هو فهم الأشياء التي يتحرك بها، لأنه نظر عقلي وليـست حركة صلاة، بل من الصلاة يأخذ له سبب، لأن الذين هم هكذا قد بلغوا إلى غاية النقـاوة وليس يمر وقت لم تزهر حركاتهم الداخلة بالصلاة كما قلنا، وكل وقت يزورهم فيه يجددهم في الصلاة، ومن الصلاة يخطفهم إلى الثاؤريا التي تفسيرها نظر الروح.

وليسوا هم مفتقرين إلى مدة طويلة في الصلاة أو إلى ترتيب فـي الخدمـة، بـل يجذبهم تذكار الله فقط وفي الحال يسبون بالمحبة ويخطفون ولكنهم ما يهملـون القيـام، ويقسمون للصلاة كرامة بأن يقفوا على أقدامهم في الأوقات المعروفة وليس على الدوام.

هوذا القديس أنطونيوس إذ كان واقفاً على قدميه في الصلاة تسع ساعات أحس أن عقله قد ارتفع.

وقديس آخر كان واقفاً ويداه مبسوطتان في الصلاة، مكث في دهش أربعة أيام ..

وكثيرون مذكورون في سيرتهم أنهم كانوا هكذا.

تعطي هذه الموهبة إذا ما أؤهل الإنسان أن يتعرى من الخطية من داخـل ومـن خارج بحفظ وصايا سيدنا لأنه شرعها لقلع الخطية، وإذا ما تيسر بهـا الإنـسان حـسب الواجب يضطره الأمر تغصباً أن يخرج من كل الأفعال البشرية حتى أنه كما يقال يريـد أن يتعرى من الجسد ليس من طبيعته، بل من استعمالاته.

ليس أحد سار بحفظ الوصايا حسب قصد واضعها وقدرت الخطية أن تثبت فيـه، ولأجل هذا يجعله سيدنا مسكناً له كمثل وعده في إنجيله المقدس.

سؤال: ما هو كمال أثمار الروح؟ وبأي أمر يعرف أنه أهل لذلك؟

جواب: إذا أؤهل الإنسان لحب الله الكامل كل وقت يتحرك فيه ذكر الله في الفكر في الحال يحتر القلب كمثل بنار محبته، وتهطل الدموع بزيادة من عينيه، وبتـساع، لأن عادة المحبة أنه بذكر المحبوب تخرج الدموع لأنه ما يبطل على الدوام مادة ذكر الله حتى

أنه أيضاً في النوم يتفاوض معه لأن من عادة الحب أن يفصل هكذا. هـذا هـو كمـال الإنسان في هذه الحياة.

سؤال: الذي هو بعد أعمال كثيرة وتعب وجهادات ونشاط في الفضائل، يثبت عليه فكر العظمة، بأن يأخذ مادة من محاسن فضائله ويجلب لذكره أتعاباً نالها.

بماذا يمكنه أن يضبط أفكاره؟ ويقتني لنفسه احتراساً لئلا يخضع لهذا الألم الأمر الرديء؟

جواب: بأن يعرف على التحقيق أنه هكذا يسقط من الله كمثل الورقة اليابسة مـن الشجرة وعند ذلك يعرف قوة ذاته إن كان بقوته قد اقتنى الفضائل واحتمل لأجلها كل هذه الحروب.

عندما يقبض الرب قوة معونته ويتركه مع الشياطين وحده في الجهـاد ولا يمـده بالعناية كمثل العادة وبتلك القوة التي يعضد النشطاء في جهادهم، هاهنا تظهر قوة الإنسان أو ضعفه.

لأنه ثم قوة مع القديسين عناية إلهية تعضدهم كل وقت وتحفظهم وبها يغلـب كـل رتب البشر في جهادهم إن كان في الشهادة أو في مقاسات الصعوبات والضواغط التـي تكون لأجل الأمور الإلهية، وهذا معروف وبين وليس فيه شك، وإلا كيف يستطيع الطبع أن يصبر على هذه الدغدغات التي بغير فتور موضوعة في أعـضاؤه وتلـذه للـشهوة والتنازل، وكيف يمكنهم الغلبة عليهم وقهرهم.

إن كثيرين يحبون هذه الغلبة ويشتاقون إليها ولم يقدروا، ويتعبون كثيراً ويجاهدون، وكل يوم يجاهدون وينغلبون وينوحون على شقاء أنفسهم، وأنت تريد أن تحمل بـسهولة صعوبات الطبيعة وضغطها ولست تريد الضيقة الوقتية من أجل الجهاد.

وكيف يقدر أن يصبر الآخر بهذا الجسد المتألم على تبـضيع الأعـضاء بالحديـد وتقطيعها، وكل أنواع العقوبة والعذاب ولا ينغلب ولا ينحل من الآلام الوقتية وهو الذي لم

يقدر أن يحتمل شوكة صغيرة تعبر في أحد أصابعه، وتجلد العذاب المختلف ولـم يتـألم ويتوجع حسب عادة الطبيعة لولا قوة أخرى خفية خلاف الطبيعة من ناحية أخرى قمعـت وردت عنه قوة العذاب.

وليس عندنا مانع من أن نذكر هذه السيرة وكلامها لأنها تدهش سامعيها :

قال سقراطيس كاتب سيرة البيعة: أنه كان في أيام يوليانوس الملك شـاب اسـمه ثيؤذوروس دفع للعذاب في مدينة أنطاكية لأجل اعترافه بالمسيح وبعـد عـذاب عظـيم مشطوا جسده بأمشاط من الحديد حتى انتثر لحمه كله على الأرض، وبعد ذلـك تركـوه لمعرفتهم أنه ما يعيش.

والله الرحوم نجى هذا القديس بعد كل هذا العذاب وعاش مدة طويلـة بعـد هـذا الاعتراف وإن كاتب هذه السيرة سأل بعد مدة من الزمان تادرس نفسه: ألم تتألم يا تادرس وقت العذاب؟ فأجابه: إن شيئاً قليلاً من الألم كان يحس به، لأنه كان ينظر شاباً بهياً واقفاً بجواره يمسح عرق جهاده ويشجعه ويقويه ويشرحه وينيحه وقت عذابه.

يا لمراحم الرب .. ما أقوى نعمته من الذين يقاسـون مـن الجهـاد ويـصبرون على الآلام.

لا تجحد (لا تنكر) عناية الله أيها الإنسان لأنك لست الغالب، بل أنت مثل الآلـة هو الغالب فيك، وأنت تأخذ اسم الغالبين موهبة مجانية.

وإيش مانعك أن تسأله أن يجود عليك في كل وقت بهذه المعونة لكي تنشط وتغلب في كل أوقاتك وأنت معترف بهذا، أما سمعت أيها الإنسان من مبدأ الزمان إلى وقتك هذا كم من شجعان ونشطاء قد سقطوا من علو مراتبهم لما جحدوا هذه العناية؟

كثيرة هى مواهب الله ومختلفة لسائر جنس البشر بل فيها فرق وإفـرازات شـتى لقابليها، وكبر أو صغر وزيادة أو نقصان، وإن كانت في الجميع عجيبة لكن فيها موهبـة ترجح على موهبة بالمجد والكرامة، ودرجة أرفع من درجة حسب قول الكتـاب، حتـى وهذه إن إنساناً يفرز لعمل الصلاح ولسيرة خدمة الله واحدة هى مواهب الله الكبار.

ولأجل أن كثيرون ضلوا عن معرفة هذا أن لا فرق بينهم وبين بقية الناس، أؤهلوا

هم من الله أن يكونوا مستحقين لهذه الموهبة وخدمة الرب، فعوضاً عن الـشكر الكثيـر والاعتراف الذي كان ينبغي أن يكون في أفواههم مالوا إلى الافتخار وزاغـوا للعظمـة بأفكارهم فلم يؤهلوا أن يكونوا فائزين بهذه النعمة أو يخدموه بالسيرة الطاهرة والأعمـال الروحانية، لا بل ظنوا أنهم هم المحسنون إليه كأنهم أشرف من بقية الناس بهـذه التـي صاروا بها من خاصته وعارفي أسراره.

ولم يرغبوا في أنفسهم لما فكروا بهذه الأمور إذ ينظرون غيرهم لما آلت بهم هذه الأفكار كيف أخذت منهم القوة التي كانت تحفظهم وسقطوا في لمح البصر من كـرامتهم وزلوا في الفسق وربما إلى أعمال الخزي وتدبير الحيوان الغير الناطق لأجل أنهـم مـا اختبروا قوة أنفسهم واعترفوا وذكروا بلا فتور ذلك الذي أهلهم لهذه الكرامة، أن يكونـوا خدامه في جلال ملكه، وجعلهم خلاناً للروحانيين وأدناهم من سيرة الملائكة القديسين.

لهذا نبذهم من خدمته وأراهم في الوقت بتغيير تدبيرهم وأنهم لم تكن من قوتهم أن يثبتوا في السيرة الحسنة والصبر على عوارض الطبيعة وشر الشياطين وبقية المصاعب والمضغطات بل من قوة عنايته وموهبته، الشيء الذي إذا سمعه الناس ما يصدقونه لأجل صعوباته، وثبتوا هم فيه زماناً ولم ينغلبوا لأن القوة اللاصقة بهم كانت فيها قوى للحفـظ والمعاضدة ولجحودهم هذه المعرفة كمل فيهم قول الكتاب لأجل أنهم لم يحكموا من أنفسهم أن يعرفوا الله، أعني سيدهم الذي أهل التراب وأدناه من خدمة الروحانيين أسـلمهم اللـه للرأي الفاسد ومكافأة ضلالتهم نالوها في ذواتهم.

سؤال: إذا جسر إنسان وخرج للوحدة ورفض مسكن الناس ومضى إلى البرية غير المسكونة والقفر الصعب بغيرة حسنة أتراه يموت من الجوع أو من عدمان مسكن يستتر فيه؟

جواب: الذي أعد موضعاً للوحوش قبل أن يخلقها ويهتم بجميع ما تحتاج إليـه .. كيف يتخلى عن أصفيائه وبالأكثر الذي خرج في طلبه بسذاجة فكر ولا استعداد، بـإرادة توافق مرضاة الله، ولم يفتكر بالجسد ولا ما يعرض له لكي لا يحيا فـي سـيرة رديئـة

مملوءة من حياة الخزي إذا ما جبن من الضواغط.

بل هذه مختارة له أن يتغرب من هذا العالم بتدابير سيرة الطهـارة، ويـشقى فـي الجبال ويتوه في بلاد الوحوش، ولا يتنيح بالجسد في حياة مملوءة من كل دنس ويعد نفسه للموت في كل وقت ولا يتخلف عن السيرة العفيفة المرضية لله سبحانه وتعالى.

قال أحد القديسين أن بهذا يصير الجسد مصاحباً للخطية إذا ما جبن عن مقاسـات الضوائق لئلا ينضغط ويموت بالحياة، ولهذا روح الله تضطره أن يموت لأنه معلوم أنـه إن لم يمت ما يغلب الخطية.

الذي يريد أن يسكن فيه سيدنا، يضغط جسده ويخدم الله بحفظ وصاياه المكتوبة في الإنجيل والرسل، لأن الجسد الممتزج بالخطية على أعمال اللحم يتنيح، وروح الله يتنـيح على أثماره.

إذا ما ضعف الجسد بالصوم والاتضاع، عند ذلك تتشجع النفس بالصلاة بـالروح لأن عادة الجسد إذا ما انضغط كثيراً بـسيرة الـسكون والعـوز وقربـت حياتـه مـن الاضمحلال، يسألك ـ الجسد ـ اتركني قليلاً أتدبر بمقدار لأني قد تقومـت وارتـضيت بتجربة الضوائق، وإذا سمحت له قليلاً وأرحته من الضوائق، وأرحته زماناً يسيراً لشفقتك عليه، عند ذلك يخادعك قليلاً قليلاً إلى أن يخرج أيضاً من البرية لأن مخادعاته كثيـرة، ويقول لك أنه يتدبر بسيرة حسنة بالقرب من العالم، لأننا قد تحنكنا كثيراً وأخذنا تجربة كل شيء، فامتحني وأبصر إن كنت ما أسير حسب اختيارك وإلا ترجع إلى البرية.

لا تثق ولو وعدك بأشياء كثيرة، لأنك إذا سمحت له بشيء صغير خدعك في أمـر كبير لا يمكن أن تتخلص منه، وإن تضجرت وملات من كثرة الضوائق قل أنـت لـذاتك العلك تشتهي الحياة النجسة؟

وإن قال لك إنها خطيئة أن تقتل نفسك، قل له اقتل نفسي لأني ما أقـدر أن أحيـا بالطهارة في وسط العالم، فأموت هاهنا في البرية ولا أنظر موت نفسي من الله.

أوفق لي أن أموت من أجل الطهارة ولا أعيش بحياة رديئة في العالم.

اخترت لي الموت بإرادتي لأجل خطاياي، اقتل نفسي لأني قد أخطأت قدام الله لئلا أعود أغضبه.

ما لي والحياة المبتعدة عن الله، اصبر لهذه الضغطات لئلا أكون غريباً عن الرجاء السماوي، آية منفعة عند الله من حياتي بالرداءة والسماجة، وأغضبه؟ بئس ذلك.

وهو المسجود له من كل البرية.

الباب الخامس

في تدابير السيرة الرهبانية وأقسامها على الإيجاز وكيف وبأي جهة تتولد الفضائل بعضها من بعض

إن الحرارة التي لا مقدار لها تتولد من العمل الذي يغصب الإنسان ذاته فيه ويقسرها عليه، وهى التي تلهب في القلب من جهة الأفكار الحارة الحادثة في القلب حديثاً، وهذه الأعمال وهذا الاحتراس يلطفان العقل بحرارتهما ويمنحاه نظراً (بصيرة)، وهذا النظر يولد الأفكار الحارة التي قلت بواسطة عمق النظر النفساني، وهو الذي يدعى ثاؤرية، أي التصور العقلي. وهذا التصور يولد الحرارة، وعن هذه الحرارة الحادثة للنظر الذي من النعمة.

يتولد انسكاب الدموع، وفي الابتداء يأتي للإنسان منه الجزء اليسير، أي يوم واحد على أكثر الأمر ثم يمسك، وبعد ذلك يتواتر بغير تقتير ولا انقطاع.

ومن الدموع هذه تقبل النفس سلامة الأفكار، ومن سلامة الأفكار يرتقي إلى نقاوة العقل، وبتوسط نقاوة العقل ينظر الخفايا، لأن الطهارة مدفونة في السلامة وتحفظها من القتالات.

وبعد هذه الأمور يبلغ العقل إلى أن ينظر الاستعلانات والأدلة كما شاهد النبي حزقيال، وهى التي ترسم وتمثل هذه المنازل الثلاثة التي بها تدنوا النفس من الله تعالى؛ ومبدأ هذه كلها هى الإرادة الجيدة والطوية الصالحة نحو الله تعالى،

وأنواع أعمال السكوت التي لا تتغير وعدم الانحراف عن طريق الجهاد، وهى التي تتولد من فرط الانقطاع والابتعاد من العالم وأموره.

وإن كانت لا تلجئنا الضرورة أن نصف نوعا نوعاً من أنواع الأعمال لأنها معلومة عند الكل، ولكن على كل حال لما كان شرحها للحاضرين لا خسارة فيه بلا فائدة كثيـرة جداً حسب ما أرى.

فمن الواجب أن نبين ذلك فنقول أنها هذه الأمور: وهى الجوع والقـراءة والـسهر بتيقظ كل الليل حسب قوة كل واحد، وكثرة المطانيات التي يصنعها الإنسان في سـواعي الليل والنهار على أكثر الأمر، وعلى أقل فينبغي أن تكون المطانيات في كل دفعة ثلاثين وبعد ذلك يقبل الصليب المكرم، ويأخذ في الرجوع **(أي يعيد الكرة مرة أخرى).**

وقوم يزيدون على هذا العدد حسب قوتهم، وقوم يمكثون في صلاة واحـدة ثـلاث ساعات بعقول متيقظة، ويلقون ذواتهم على وجوههم وعقلهم مجذوب إلى الله مـن غيـر تغصب ولا طياشة أفكار.

وهذان النوعان فيدلان ويوضحان كثرة النعمة وتوفر غناها التي تفتقد كل إنـسان حسب استحقاقه إن كانت تلك بالغلوة الحارة والتي وبكثرة العدد، وإن كان التي بالهـدوء وتقبل في النفس وتحبس بواحدة كثرة عدد الأوليات.

أما ما هى جهة الصلاة الأخرى والثبات فيها الخالية من التغصب والخاليـة مـن العنف، فما أظن أن من الواجب والعدل إبانة ذلك وإيراد نظامه بقـول يبـرزه اللـسان والكتابة وخوفاً من أن يظن القارئ إذا قرأ ولم يحصل على شيء من ذلك، إن ما سـطر لا فائدة منه. وإن كان من العارفين بهذا يستزري مـن لا يعـرف حـدود الأمـور أن يوضحها، ويصير من هذا مذمة ومن ذلك ضحكاً.

وأوجد في هذه الأمور كبريري حسب قول الرسول الذي قاله فـي الـذي يـتكلم باللسان.

فالمؤثر إذاً أن من يعرف هذه الأمور فليسير في الطريق التي سطرت ويتبع ذلـك بالعمل في فكره، وإذا ما باشر ذلك علمه من نفسه بالفعل، لأنه كمـا قـال أحـد الآبـاء **(اجلس في قلايتك وهى تعلمك كل شيء).**

الباب السادس

في أقسام جهات القتال الموجهة من المحال إلى السالكين في المنهج الضيق الذي يفوق العالم

النوع الأول:
حروب المحال للمتهاونين.

إن عدونا المحال من شيمته أن يتلطف ويحتال على مبارزيه والمنحدرين إلى هذا الجهاد بأن يوزع عليهم مصادماته من شكل سلاحهم، ويغير جهات جهاده بحسبما يلوح له من وجوههم.

فأما الذين يعاينهم فاشلين وفي عزائمهم ركيكين وفي نياتهم متوانيين فإنه من الابتداء يقاتلهم ويثير عليهم تجارب قوية حرصاً على أن يذيقهم من الابتداء أنواع شروره وصعوبة الطريق ليشملهم الجبن من أول جهادهم وتظهر لهم السبل خشنة حرجة شاقة المسالك.

فيقولون إن كان ابتدءوها هكذا مستصعباً جافياً إلى نهايتها فمن الذي يقدر أن يباشر الجهادات المقدرة في وسطها؟

ومنذ ذلك فإنهم ما يقدرون أن يثبتوا أو يسعوا إلى قدام، نعم. ولا يتمكنون مـن أن ينظروا إلى شيء آخر من قبل ما قد دهمهم من الهم بها، ويصعب المحال قتالـه علـيهم قليلاً ليهربوا على الحقيقة، والأولى أن نقول أن الله عز وجل يفسح له في هذا أو يمكنـه من أن يقوى عليهم، ولا يعاضدهم في شيء البتة، لأنهم ولجوا إلى الجهاد بـشك وعـزائم باردة، لأنه يقول ملعون من يعمل عمل الرب برخاوة ويمنع يده عن الدم، وأيـضاً الـرب قريب من خائفيه.

لأن الرب تبارك اسمه يأمر بأن نصادم المحال خلواً من الجبن وبرودة الهمـة، إذ يقول الآن ابتدأ بإبادته وانهض عليه مقاتلاً، وبارزه بشجاعة، فأضع خوفـك علـى كـل أعداءك الذين تحت السماء.

لأنك أن لم تمت موتاً محسوساً طوعاً بإرادتك من أجل محبة الله، فإنك تموت بغير إرادتك موتاً معقولاً من الله الذي هو نصيبك وخاصتك.

فلا تتكره أن تتقبل من أجله بإرادتك آلاماً وقتية وتدخل إلى مجده لأنك أن مت من جهاد الله بالجسم فإنه بذاته يعينك ويتوجك ويكرم أعضاؤك كما كرم أعضاء الشهداء.

لهذه العلة كما قلت أن المتوانيين الممرضين من الابتداء، والـذين مـا يغـصبون أنفسهم ويكرهونها إلى الموت على مباشرة الموت، يوجدون في كـل حـرب فاشـلين، والأولى أن نقول أن الله تعالى يطلق أن يضطهدوا ويقاتلوا لأنهم ما طلبوه محقـين، بـل كمجربين وهازئين حاولوا إتمام عمل الله تعالى.

لهذا عرفهم المحال من الابتداء وخبر كيفية أفكارهم أنهم جبناء ومحبون أنفـسهم، لا بل ويشفقون على أجسادهم، ولذلك يعنف بهم ويطردهم كالزوابع، لأنه ما شاهد فـيهم القوة المعقولة التي اعتاد أن يشاهدها في القديسين، لأنه حسب انصباب إرادة الإنسان نحو الله تعالى ومحبته في الأتعاب من أجله يعاضده ويريه سياسته واهتمامه به، لأن المحـال ما يقدر أن يدنوا من الإنسان ولا يورد إليه تجارب دون أن يتوانى بإرادته أو يفسح اللـه له في ذلك، أو إن أرضى ذاته في أفكار سمجة بالطياشة أو تعظم أو شك وتقـسم، مثـل هؤلاء القوم يلتمس المحال أن يجربه.

أما المبتدئون السذج، فما يسمح الله تعالى أن يجربهم كمثـل الفـاتكين الكـاملين، وهو أيضاً يعلم ـ المحال ـ أن الله لا يسلمهم ليده لأنه ليـست فـيهم كفـاءة لاحتمـال تجاربه، إلا أن امسكوا سبب واحداً من أسباب التجارب التي ذكرت، فإن قوة عناية اللـه تعالى حينئذ تبتعد عنهم.

النوع الثاني:
من قتالات العدو.

أما القوم الذين يرى المحال أنهم أبطال أقوياء، لا يعدون الموت شيئاً، وقد خرجوا بغيرة حارة وانصلبوا وأسلموا أنفسهم لكل التجارب متهاونين بحياة الجسم وبكل محناته؛

لا يواثبهم في الحين ولا يظهر لهم ذاته على أكثر الأمر، بل يجمع نفسه ويفرج لهم ويمكنهم ولا يهجم عليهم في مبدأ نهوضهم، ولا يصافقهم في القتال، لأنه يعلم إن كل ابتداء قتال هو ذو حدة واجتهاد وقد تصور أن مبارزة ذو غيرة كثيرة وأن ذوي الحمية من المقاتلين لا ينغلبون كيفما اتفق.

وليس كون المحال بهذه الصفة أنه على جهة الجبن منهم، بل إنما هو يتخوف من القوة الإلهية المحيطة بالمؤمنين لأجل أصناف أعمالهم، وبمقدار ما يشاهدهم على هذه الحال، على ذلك لا يجسر على الدنو منهم.

إلى أن يرى أنه قد بردت حرارة عزائمهم ورموا السلاح الذي كانوا قد أعدوه في قلوبهم وسلحوا به أفكارهم بتغاير الأفكار الإلهية والتذكارات المعينة لهم، ويترصد وقت تكاسلهم ورقادهم، ومتى يرجعون قليلاً عن أفكارهم الأولى، وكم من وقت هم في ذوات أنفسهم يوجدون له سبب الفتك بهم من الملق وخداع العقل، ويحفرون لأنفسهم وهده للهلاك بطياشة الأفكار المتولدة في قلوبهم من جراء التواني والكسل الذين منهما تملك البرودة فيهم، أعني في قلوبهم.

والمحال ليس من تلقاء نفسه يتباطأ في محاربتهم، ولا ذلك منه على جهة الإشفاق عليهم ولا للاستحياء منهم، لأنه ما يعدهم شيئاً بل ما يوجبه القياس أن قوة ما تحيط بالذين قد تزكوا عند الله سبحانه، بحرارة الغيرة والذين قد برزوا وتصافقوا من غير تفكير وعلى سبيل اللائقة بالأطفال راجين من الله سبحانه حسن الدفاع واثقين بالأمانة به

وبلطيف المعونة من جهته وغير عالمين مع من هو حربهم، لذلك يصرف الله عز وجـل دهاء الخبيث ولا يمكنه بالقرب إليهم، فلهذه العلة يلتجم العدو إذ يرى الحافظ لهم.

وطالما هم لم ينبذوا عنهم أسباب المعونة التي هى التضرع والتعـب والاتـضاع، لا يبعد عنهم البتة المعين والناصر.

تأمل هذا واكتب هذه الأمور في ترس قلبك وهى أن محبة اللذة والشغف بالراحـة سبب التخلية.

فإن لازم الإنسان الإمساك، وعفا عن هذه الأشياء بجلد، فلن يعوز من معونة اللـه جل اسمه البتة ولن يسمح للعدو أن يواثبه، وإن أفسح له دفعة واحدة من جهة التأديب إلا أن القوة القدسية تتبعه وتسلمه فلا يخاف من تجارب الشياطين لأن عقله واثق بها متهاون بهم من أجلها.

لأن هذه القوة الإلهية تعلم الناس كما يعلم المعلم الصبي الصغير السباحة، فإذا مـا أشرف على الغرق ينشله لأنه يسبح فوق يدي معلمه، وإن ضـعفت منتـه خوفـاً مـن الانضغاط يهتف إليه مشجعاً وقائلاً: لا تخف فهأنذا حامل لك.

كما أن الأم تعلم ولدها الصغير المشي وتبعد منه ذاتها وتستدعيه إليها، فإذا ما وفد إليها، يرتد ويشارف الوقوع لنعومة رجليه فتبادر إليه أمه عدواً وتحمله في حضنها، هكذا نعمة الله تعالى تحمل الناس ذوي الطهارة والبساطة الذين ألقوا مقاليدهم في يدي بـاريهم ونبذوا العالم من كل قلوبهم وساروا وراءه سبحانه وتعالى.

وأنت أيها المرء الخارج وراء المسيح عز وجل اذكر كل وقت الجهاد وغيرة ابتداء الطريق التي بها خرجت من دارك ومسكنك الأول، ووفدت ذاتك إلـى مـصاف القتـال وامتحن نفسك كل يوم لئلا تبرد حرارتها من بعض الأسلحة التي أنت متسلح بها وحرارة الغيرة المضطرمة فيك منذ الابتداء، أعني أول الجهاد.

وارفع صوتك دائماً داخل المعسكر وشجع أولاد اليمين وقو منتهم، أعني الأفكـار الخاصة وحقق عند الآخرين، أعني جهة المضاد أنك متيقظ.

فإذا نظرت في المبدأ مواثبة المجرب وقد نهض ليخوفك فـلا تـسترخي، فلعلهـا موافقة لك، لأن مخلصك جل اسمه لا يسمح لأحد أن يدنوا منك جزافاً دون أن يكون ذلك بسياسة ما، تعود بصلاح حالك.

ولكن لا تظهر أنت من الابتداء كسلاً لئلا إذا تراخيت هاهنا لا تقدر فيما بعد على الثبات لدى ما يرد عليك من الأحزان، أي لا تنثني عن رأي واضع الجهاد من أجل جوع أو ضعف أو تخايل أو ما تبقى من ذلك لأنه يسبب لك ويجود عليك بالمؤازرة على العدو، حتى لا يجدك عدوك كما كان يتوقع.

بل اتضرع إلى الله سبحانه وتعالى دائماً وابك تجاه نعمته ونح وكابد الشقاء إلى أن ينفذ لك المعونة لأنك إذا رأيت مخلصك قريباً منك من أول وهلة ما تنهـزم مـن العـدو المعاند لك.

فهذان صنفان من قتال المحال ..

الكلام في الصنف الثالث:
من عناد القتال وهو نحو الأبطال

إذا وثب المحال بعد هذه الأقوال كلها إلى إنسان ما فلم يطقه في الجهاد لأجل الذي قواه وأعانه ومن أجله استظهر الإنسان عليه لأنه أخذ قوة من الله وصبر كثيراً حتى أن هذا الجسم الكثيف الهيولي غلب الجوهر العقلي الذي لا جسم له، فمتى ما نظر ورمق هذه القوة التي قد حظى بها الإنسان من الله تعالى، وأن حواسه البرانية ما تقهر من المنظورات والمسموعات، ولا أفكاره تسترخي من الخداع والملق حتى أنه يتجاسر على الضربات من العدو.

حينئذ يلتمس الغاش جهة ما يتوصل بها إلى إبعاد الملاك المعين للإنسان عن الإنسان ليوجد غير معان ويحرك فيه أفكار العظمة ليظن أن هذه القوة كلها من مقدرته الخاصة وأنه هو الذي اقتنى هذه الشجاعة لذاته وبحرص نفسه من المضاد القاتول.

وتارة يقول في فكره أن فتكه إنما يكون بطريق العارض وتارة يعتقد أن ذلك لضعف العدو. وأنا أصمت عن الأفكار الأخرى من ذكر أفكار التجديف التي منها تسقط النفس في الخوف من ذكرها فقط.

ودفعة يأتي في الوسط بطغيانه في شكل استعلان من الله عز وجل، ويظهر له في نومه أموراً، ويتصور له أيضاً إذا كان يقظان في صورة ملاك نور ويبذل الجهد في إقناع الإنسان إذ يطابقه على رأيه ليسلم في يديه.

وإن احترس المرء اللبيب من أفكاره ويضبطها بحرص وتوفر على ذكر الله ونظر إلى السماء بعين قلبه لئلا يلتفت ويلحظ هذه الوساوس، فإن المحال يسلك طرقاً أخرى من طرق التحايل.

الكلام في الصنف الرابع:
من عناد القتال المحاربة بحاجات الطبيعة.

هذا الآن قد تبقى له ـ المحال ـ والطبيعة مناسبة له، لذلك يتوقع هلاك الناس بـه خاصته، فإن سألت يا صاح ما هو هذا الأمر؟ أجبتك هو مصادمة الإنسان بلوازم طبيعته واحتياجاته، فيتحايل بكل الأسباب أن يصادمه بكل الأشياء التي كم من وقت قـد صـار مديوناً مخصوماً لها من أجل الطبع.

إن قلب المجاهد ليظلم من قرب ونظر المحسوسات وبسهولة ينقهر في الجهـاد إذا ما دنا منها، وأكثر كثيراً إذا ما كانت تجاه عينيه.

لأن المحال الداهية يستعمل هذه الحيلة بعلم من عمل أعني من التجربة مع كثيـر من المجاهدين الجادين الأقوياء الذين قد زلوا في مثل هذه الأشياء، ويفعل ذلـك بخـداع وعن طريق القياسات الفاسدة، لأنه إن لم يتمكن من إقناع الإنسان بالفعل أن يفعل لأجـل التحفظ الوارد من جهة السكون وابتعاد السكن من جهة العلل والأسباب إلا أنه على كـل حال يحرص أن يتخيل قدامهم أشكالاً ويصور صوراً وخيالات كاذبة في شكل حق حرصاً أن يتغرموا بها.

وذلك أنه يحرك فيهم حركات ذات لذة ودغدغة ليتفكروا أفكاراً سمجة وينطاعوا لها ويحصلوا تحت جريرتها فيبتعد منهم المعين لهم، لأنه قد عرف أن فتك الإنسان وانهزامه وكنزه ونصرته وكل ما للناسك إنما قدامه في الفكر.

وحدوثه بألطاف إشارة فإنه مع حركة الفكر فقط ينحط إلى الأرض من ذلك العلو.

ويدل على الإجابة والميل والاختيار بلمح الغمز، كما عرضه الكثير من القديـسين في تخايل جمال النساء، وعلى أكثر الأمر قد بعث للقريبين من العالم إما مسافة ميـل أو ميلين أن ساق إليهم نساء على الحقيقة.

أما المبتعدون عن العالم فلا يقدر لهم على مثل هذا الفعل، فهو يخيل لهـم جمـال النساء تارة بحسن الثياب وتصور الفسق، وتارة بشكل امرأة عارية ويريهم ذلك ويغلب .. فهذه الأمور وما جرى مجراها قد قهر كثيرين منهم بالفعال ومنهم بالخيال.

وطائفة منهم هزأ بهم لأجل رخاوة أفكارهم وضعف مقاييـسهم، حتـى أن قطـع الرجاء واليأس تمكن منهم ومالوا إلى العالم وخيبوا نفوسهم من الرجاء السماوي.

وآخرون أقوى منهم ممن قد استناروا من جهة النعمة قهروا تخايله، وداسوا مـلاذ الجسد، ووجدوا محنكين في محبة الله.

ودفعات كثيرة يخيل لهم ذهباً وأمور جليلة القدر ويظهر لهم كنوزاً حقيقية خفيـة، وربما أراهم هذه الأشياء على الحقيقة حرصاً على أن يعوق بعضهم بهـا عـن مـسيره ويعرقله بواحدة من هذه الفخاخ والشباك.

لكن اللهم ربنا لا تدخلنا في تجربة مثل هذه التجارب أنت الخبير بـضعفنا، تلـك التجارب التي بالكاد فلت منها الأقوياء والمجربون وظفروا ناجين من هـذه المـصارعة ناجين.

كما يفسح للمجرب ليجرب عقول قديسيه لكي تتهذب محبة الله عز وجـل فـيهم بتوسط هذه المحن ويوجدوا وأدين له سبحانه وتعالى، وليختبر بها حبهم، إن كانوا لأجـل البعد وعدم وجود الأمور هم يحبون الله ويثبتون في وده، أم بالحقيقة محبتهم له صـادقة، حتى لو كانت هذه الأشياء قريبة وموجودة عندهم يجتهدون ويرذلونها لأجلـه بابتعـادهم وانصرافهم عنها وملازمة مقتها.

إن كانوا يحبون الله على الحقيقة بالتهاون والاطراح بالأشياء ولا ينقهرون لها ولا يحولون المحبة عنه سبحانه وتعالى مما هى عليه انخداعاً بملق الشيطان بل يثبتون ثبـات الأبطال ويتجربون على هذه الصفة.

ولا يتسامح الباري عز وجل في تجربتهم لكي يعرفهم هو فقط، وليخبرهم المحـال نفسه، وذلك أنه خزاه الله يؤثر كثير أن يجربهم، ويختبر صبر كافتهم إن كانوا يقبلون منه

أفكاره وأنه يطلب ذلك كما جرى الأمر في أيوب الصديق في ثلبه قـائلاً: **" أباطل يعبد أيوب اللّه ".**

فإنه عندما يسمح الله تعالى له يسيراً يدنوا فيجرب بحسب قدرة قوة المجربين منه، ويصادمهم المنافق حسب غرضه، فيختبرون منه، ويتبين ثباتهم في محبة الله تبارك اسمه وإخلاصهم له.

إن تهاونوا بهذه الأشياء كلها ولم يعتدوها شيئاً تجاه عيونهم بالقيـاس إلـى محبـة الله عز وجل، وأذلوا ذواتهم دائماً أمام عرش النعمة، ممجدين الله مؤازر الكـل، وعلـة ظفرهم، وأسلموا نفوسهم في يديه قائلين له في جهادهم: **" أنت يـارب هو القـوي فقاتل وافتك عنا من أجلك ".**

وحينئذ يمتحنون كالذهب في الكور، ويتبين الدنـسون مـنهم بهـذه الاختبـارات، وينبذون كالخبث الذي يطفو فوق الذهب النقي، ويلقى خارجاً، إذا قد مكنوا عدوهم مـنهم ويخرجون منهزمين لأجل تراخي عقولهم، ولذلك لم يؤهلوا لقبول القوة التي كان القديسون يحظون بها معينة لهم في الشدائد ومظافرة لهم فـي التجـارب والمـصاعب لأن القـوة المساعدة لنا لا تنقهر.

لأن الرب القادر على كل شيء أقوى من الكل ويغلب في كل وقت بهـذا الجـسم المائت، إذا ما نزل معهم في القتال، وإن هم انهزموا فمن البـين الظـاهر أن انهـزامهم كان بمعزل عنه، وذلك أنهم عروا أنفسهم منه باختيارهم جهلاً ومن ظلمتهم لـم يؤهلـوا للقوة الناطقة للفتاك والمعاضدة للغالبين .. نعم ويحسبون في وقت المصاف أنهم فارغون من قوة العادة التي كانوا يألفونها في وقت الحرب الصعبة أنها قد زالت عـنهم وخلـت منهم.

أما كيف يحسون بها، فلأنهم يرون سقطتهم لذيذة في عيونهم والصبر على عنـاد العدو مستصعباً عندهم، الذي كانوا يقهرونه قديماً بغيرة خالصة يحركها الطبع ينهضه في هذه الأوقات بحرارة واحدة، وهذه الآن لا يجدونها في نفوسهم.

أما الفاشلون المسترخين من مبادئ أمرهم فليسوا يجبنون من هذه المعـارك ومـا يجري مجراها فحسب، بل وينزعجون من صوت ورق الشجر ومن ضيقة يسيرة ومـن الجوع والعوز ومن مرض قليل ينغلبون وينكسروا وإلى الوراء يرجعون.

وأما المحنكون المحقين فما يشبعون ولا من الحشائش والبقول، ولا يغتـذون مـن نبات يابس قبل ساعة الغذاء، ولا يستجيزون ذوق شيء وهم مـع هـذا راقـدون علـى الأرض، وضعف أجسادهم ودوار عيونهم من فرط هزالهم وخلو بطونهم مـن الطعـام، حتى ولو باشر الواحد منهم الخروج من الجسد من أجل الشدة التي هو مكابد لهـا، ومـا يفسحون له في الانغلاب والسقوط من الغرض المستقيم.

لأنه حلو لديهم اجتياز الأهوال من أجل حب الله وعمل الفضيلة دون الرغبة فـي هذه الحياة الوقتية والراحة المنوطة بها.

ومتى ألمت بهم التجارب منهم في نفوسهم يعلمون أنهم بها يكملون، وليس من أجل الشدائد وضغوط الجسد لم ينقسموا على حب المسيح، بل وحتى إلى الموت والخروج من هذه الحياة، حلو عندهم الموت لأجله، وأنهم لم يفترقوا من حبه.

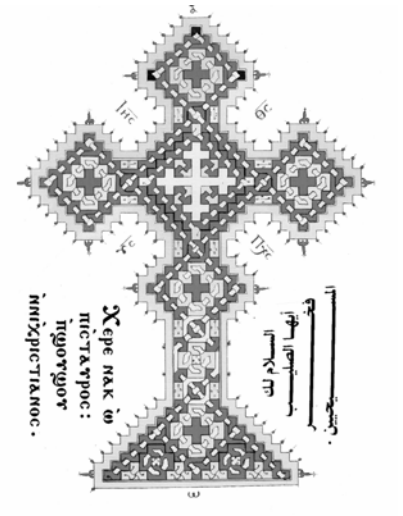

الباب السابع

في المنفعة التي تكون نتيجة القرب من الله تعالى
وفي السبب الذي يجعل معونته تقترب من الإنسان
وفي الأسباب التي تقرب من الاتضاع

طوبى للإنسان الذي يعرف ضعفه، لأن هذه المعرفة تصير له أساس ومبدأ لكل صلاح والحسنات، لأنه إذا علم الإنسان وأحس بالحقيقة أنه ضعيف وعاجز وعند ذلك يجمع نفسه من الطياشة والاسترخاء الذي هو مشتت المعرفة، ويكثر لذاته الاحتراس.

وليس أحد يقدر أن يحس بضعفه دون أن يهمل قليلاً ليجرب، لأنه إذا أحاطت به التجارب، إما بأشياء توعك الجسم أو بالآلام وتضغط النفس، حينئذ من قياس ضعفه يعرف عظم معونة الله سبحانه وتعالى.

وأيضاً متى عاين المرء كثرة حيله واحتراسه ونسكه وتصرفه وكلما يتحيل لنفسه أسباب المشقة ووجود الاتكال لا يورد له سكون من الخوف، ولن يهدأ القلب من الرعب فيميز حينئذ ويعلم أن القلب من داخل يشهد بالخوف الملقى داخله، ويدل على أعواز الشيء، ولذلك لا يقدر أن يسكن بثقة لأنه يقول أن معونة الله تعالى هى التي تخلص.

فإذا ما علم الإنسان أنه محتاج إلى المظافرة الإلهية فليكثر من الصلاة، فإنه بمقدار ما يكثر منها على ذلك الحد يتضع قلبه لأنه أخذ يسأل ويضرع ولا يمكن أن لا يتضع لأن الباري عز وجل لا يرفض قلباً منسحقاً أو متواضعاً.

وإلى أن يتضع القلب لا يقدر أن يكف عن الطياشة لأن الاتضاع يجمعه، وإذا ما اتضع الإنسان في الحال تحيط به الرحمة ويحس القلب بالمعونة الإلهية، فإنه يجد قوة الاتكال والثقة متحركة فيه.

إذا شعر الإنسان بحضور المعونة الإلهية لمساعدته في الحين يمتلئ القلـب مـن الأمانة ويعرف من هذا الموضع أن الصلاة هى معدن المعونة وينبوع الخـلاص وكنـز الثقة والميناء المنقذ من طمر الأمواج، ومنير المظلمين وركن الضعفاء والكنف للخلاص في وقت المحن والمعونة في حدة المرض وترس الخلاص في القتال، والسهم المـسموم قبالة الأعداء.

ونقول على الإطلاق أن كل الخيرات بتوسط الصلاة تجد المدخل إليهـا ويحظـى الإنسان بها.

وبعد ذلك يتنعم الإنسان بصلاة الأمانة، وأما قلبه فيبتهج بالثقة والرجاء ولا يمكـث البتة في الظلام الأول ونطق الفم المرسل فقط الذي كان إلى هذا الوقت، وإذا ما عـرف هذه فحينئذ بها يتوفر على الصلاة ويحصلها في نفسه كالكنز ومن فرحه بها ينقل شـكل الصلاة إلى عبارات وأقوال شكر.

وهذا قول أنبا وغرى الذي حدد لكل نوع من الأمور شكلاً خاصـاً: **" إن الصلاة بهجة خاصة وتـأتي مـع الشكر ".** ويرمز بهذا إلى الصلاة التي تأتي بعد قبول معرفـة الله وقوله تأتي بشكر لأن الإنسان ليس يصلي للحين بتعـب ومـشقة كبقيـة الـصلوات المحزنة التي يهذ قبل هذا الإحساس بهذه النعمة، بل هو القلب من فرحه يصور حركـات شكرية دائماً بسرور وتعجب وجثو ركب لا يشوبها نطق، ومن كثرة حركتـه بالـدهش والتعجب على إفهام نعمة الله تعالى يرفع صوته فجأة ممجداً ومسبحاً بلا شبع شاكراً الله تعالى ومحركاً اللسان ليتلو متعجباً.

ومن وصل إلى هاهنا بالحقيقة لأعلى جهة التخيل ووقف على أدلـة هـذا الأمـر بإفراز ووضع فيه دلائل على هذا الأمر، فإنه قد علم الذي أقول ليس بمضاد مـن أجـل فرط اختباره بالتجربة، ومن الآن فليكف عن تصور الباطل ويلازم الله تعـالى بتوسـط الصلاة الدائمة خائفاً ومراقباً وهلعاً ألا يعدم كثرة معونته سبحانه.

وكل هذه الخيرات تتولد للإنسان من معرفته بضعفه الخاص به، لأنه مـن أجـل شوقه إلى معونته يدنوا إلى الله بمثابرة صلاته وتضرعه بمقدار ما يتقدم إليه بفكره على

ذاك الحد يقرب هو تعالى منه بتوسط مواهبه ولا يرفع عنه معونته ونعمته لكثرة اتضاعه وإن قد ضارع الأرملة التي تواصل عجيجها إلى القاضي لكي ينصفها من خصمها.

لهذه العلة يقبض الله الرؤوف الرحوم نعمته عن العبد لكي يصير له هـذا الأمـر طريقاً إلى الدنو منه لأنه من جراء حاجته يلازم المانح إياها فهو يجـود عليـه بقـضاء بعضها سريعاً، أعني ما لا يمكنه أن يخاص ويستتب حاله خلواً منه.

وبعضها لا يقضيه له وفي أشياء ما يطرد لهيب العدو عنه، وفي غيرها يسمح بأن يتجرب، ليصير له ذلك سبباً إلى القرب منه ليبارك اسمه كما تقدم وقلنا، وليتأدب ويتحنك بالمحن وقد نطق بمثل هذا في الكتاب إذ يقول: " أن الرب ترك أمماً عدة لئلا تهلك، وما سلمها ليد يشوع بن نون لكي يجرب بهم ويؤدب بني إسرائيل، وأيضاً لكي تتعلم قبائل بني إسرائيل وتعرف القتال ".

لأن صديقاً لا يعرف ضعفه هو في خطر كبير وليس بعيداً من السقطة، ولا مـن الأسد المفترس أعني شيطان الإعجاب. وأيضاً من لا يعرف ضعفه فقد أعوزه الاتضاع، ومن أعوزه الاتضاع فقد عدم الكمال، ومن خلا من الكمال فهو دائم خائف. لأن أي وقت يكون للعدو عليه سبيلاً لأن مدينته ما أسست على أعمدة حديدية ولا عتب نحاس.

وأشير بهذه الأمور إلى الاتضاع.

الاتضاع ما يقدر أحد أن يقتنيه من دون أسبابه التي من أجلها ينسحق القلب علـى الدوام وتهدم كل أفكار الظنون والعظمة.

لهذه العلة يجد العدو على أكثر الأمر سبباً لتمييل الإنسان، لأن عمـل الإنـسان لا يكمل خلواً من الاتضاع ولا يوضع خاتم الروح على كتاب عتقه، بل إلى الآن هو عبـد وعمله ليس بمعزل عن الخوف، لأن المرء ما يثبت عمله خلواً من الاتضاع.

من دون المحن لا يقتنى الأدب والحكمة، ومـن دون الحكمـة لا يحـصل علـى الاتضاع.

لهذا السبب أطلق الرب تعالى علل الاتضاع وانسحاق القلب والصلاة المحزنة التي بغير طياشة على القديسين وكثير ما يفزعهم بألم الطبيعة ويذلل الأفكار النجـسة الدنـسة وبشتائم ومهازئ الناس وصلفهم وطنجرتهم وتارة بأمراض وأوجاع جسمانية، وتارة بفقر وعوز الحاجة الضرورية.

وقد اعتاد أيضاً أن يخوفهم بمخاوف الشقوة المتصعبة والتخلية وحـرب المحـال الظاهرة، وأحياناً بتهاويل أُخرى مختلفة كل واحد أضغط من الآخر.

كل هذه يوردها عليهم ليظفروا بأسباب الاتضاع ولئلا يعرض لهم الفشل والتواني أو من أجل الأشياء التي هو بها قائم وهو المجاهد بها مريض أو من جراء خـوف مـا هو مزمع.

فإذا التجارب بحكم الاضطرار نافعة للناس.

ولست أقول هذا، أي ينبغي للإنسان أن يسترخي للقبائح بإرادته لكـي يكـون لـه ذكرها سبب للاتضاع، ولا لكي يحرص أن يدخل في تجارب أخر، بل أقول أن الخليق أن يصنع الخير ويتيقظ في كل وقت ويفتكر أنه مخلوق ولابس الميالة وسريع الزال، لأن كل مخلوق مفتقر إلى قوة الله تعالى ناصره ومساعده، وكل فقير إلى معونة غيره قد دل على ضعفه الطبيعي وكل من عرف ضعفه فضروري أن يتواضع تحت يد الله العالية لينـال بغيته من القادر على إعطائه.

ولو كان منذ الابتداء، قد فهم خموله لما كان انضجع، ولو لم ينضجع لما كان قـد رقد وسلم إلى يد عدوه محزنه.

والآن ينبغي للسالك في طريق الله عز وجل أنه في كل تجربة تأتي عليه يـشكره ويلوم نفسه ويذمها ويعلم أنه إما قد أهمل وتوانى فينبهه المجرب بأمر المدبر، أو تعظـم وتصاف وأن ذلك ليستيقظ ويتوب ويلوم نفسه ولا يقلق لئلا يتضاعف له الشر إذا ما زكى نفسه، لأن الله الفائض بالعدل لا جور عنده، وكلا وحاشا أن يكون ذلك الذي هو ينبـوع البر والتحنن.

عن الخطايا التي من جهة الإرادة والتي من جهة العرض

ثمة خطية من الضعف وتحصل للإنسان بنفس العارض، وثم خطية مـن الإرادة، وأخرى من عدم المعرفة، وأخرى يصادف بها الطبع، ومنها ما هو على الدوام، ومنها ما هو من العادة.

هذه هى رتب وأنواع الخطايا وجميعها محصورة تحت اللوم، ولكن فـي الانتقـام منها اختلاف وزيادة ونقصان.

منها ما هو متصعب وقبول توبته عسرة وملامته عظيمة وبعـضها قريـب مـن المغفرة، والدليل على ذلك أن الله تعالى لام آدم وحواء والحية ولم يبرئ أحد منهم مـن الخطية وجازاه عن ذنبه، ولكن غياراً كثيراً صنع في لعنته الحية وبما أوجبه على حـواء وبما قضى به على آدم، وهكذا يجري الحال في أمر أولادهم.

فإن كل إنسان حسب اهتمامه ومحبته للخطية كذلك تصعب الدينونة عليه، لأن ثـم من لا يحب الخطية ومن توانيه في أعمال البر وعدم احتراسه فيه ينجذب إلى الخطيـة، وهذا دينونته صعبة، فإن كان هو مهتماً بعمل البر وتصادفه التجارب ويخطئ فالرحمـة قريبة منه وهى تغسله بلا شك.

لأن شيئاً هو أن يكون الإنسان مهتماً بعمل الفضيلة ومداوماً فعلاً ليلاً ونهاراً يفكر لئلا يعتاز شيئاً من واجباتها وحاملاً ثقلها في كل وقت واهتمامه كله بعمل البر.

وثمة من عدم المعرفة ومن اضطرار المضادات التي في طريق الفضيلة والأمواج واللذات المتحركة في كل وقت في أعضائه، أو من الميالة الموضوعة فينا لأجل اختبـار حريتنا، ترجح كفة ميزاننا قليلاً إلى ناحية الشمال، ويزل الإنسان بضعف البـشرية فـي شيء من أنواع الخطية وهو متألم محزون من أجلها ويتنهد على ذاته بحزن وألم لأجـل انغلابه وعدم ثباته قدام العوارض التي تصادفه وقتاً.

وشيء آخر هو أن يكون الإنسان متراخياً في عمل البر أو قد تخلى بالكليـة عـن طريق الصلاح. وكمثل العبد يسرع بكل طاعة لإتمام الخطية، ويتحايل ليجد فسحة ويعتني لكي يكملها بكل لذة، وكعبد مستعد بحرص لعمل إرادة أعداؤه، وجعل أعـضاؤه سـلاحاً للشيطان، طوعاً ولا يلتفت إلى الندامة ولا إلى الدنو مـن الفـضيلة ولا أن يجعـل حـد لإثمه.

وأيضاً شيء آخر هو الزلل والسقطات الموضوعة في طريق الفـضيلة .. فيهـا سقطات .. فيها غيارات .. فيها اضطرار .. وما تبقى ..

وأيضاً شيء آخر هو سقوط النفس والهلاك الكامل والرفض الكلي خـلاف الـذي سقط، لا ينسى حب الأب، وإن زل بأنواع كثيرة لا يتخلف ولا يتعوق من حرصـه فـي عمل الفضيلة ولا يتخلف عن سيره ويكافح لكي يقوم في الجهاد ولا يمـل أيـضاً وقـت انغلابه، وأن كل يوم ينهدم بنيانه يجتهد أيضاً في وضع الأساس وكلمة النبى في فمه مـا تنقطع إلى آخر حياته: **" لا تفرح أيها العدو بسقوطي لأني أعود وأقوم، وأن جلست في الظلمة فالرب ينير لي ".**

ولا يهدأ إلى ساعة الموت من الجهاد ولا يعطي ذاته إلى الانغلاب البتة ما دام في هذه الحياة.

وإذ في كل يوم تنكسر مركبه وتقع تجارته إلى العمق لا يهدأ أن يقترض ويركـب سفناً ويسير على الرجاء إلى أن ينظر الرب جهاد حرصه ويشفق على انكساره ويجني له مراحمه ويمنحه حركات شجاعة حتى يصبر ويصادم سهام العدو المتقدة.

هذه هى الحكمة من الله، وهذا هو المريض الحكيم، قطع الرجاء واليأس لا منفعة فيه، أوفق لنا أن ندان على زلات ما ولا على رفض الفضيلة بالكمال.

لهذا يجذنا الأب مرتنيان من طغيان الشياطين، وأن لا نمل مـن كثـرة التجـارب وأنواع الحروب المتواترة التي في طريق البر، ولا نرجع إلى الـوراء ونعطـي لعـدونا فرصة الفتك بنا بشيء من أنواع الشر، لأنه وضعها كالرسم وقال إن كنتم بالحقيقة لكـم

حرص على اقتناء الفضيلة والاهتمام بنقاوة العقل والعمل بما يرضي الله بحكم الضرورة، ينبغي لكم أن تصبروا للحروب والمجاهدات التي لأجلها إن كان من مجاذبات العالم والآلام الطبيعية أو شرور الشيطان المعاند أن يثيرها عليكم متواتراً، فلا تتراخوا وتهربوا من مداومة الجهاد.

ولا ترتعبوا من شدة تواتر عسكر الأعداء ولا تيأسوا إن سقطم في شيء من الخطايا والعذبات والجراحات التي تنالكم في الجهاد على وجوهكم واثبتوا في سيرة تدبيركم الحسن، لأن هذا يحسب لكم مدحة ومجداً أن تكونوا متلطخين بدم جراحاتكم وأنتم منتصبون في الجهاد ولم تتخلفوا عن العناد مقابل عناد الأعداء أبداً.

هذه هى تحذيرات الشيخ العظيم الأنبا مرتنيان، لهذا ينبغي لنا أن لا نتراخى ولا نيأس من أجل تلك الحروب الشيطانية الوقتية.

الويل للراهب الذي يجحد عهده ويطأ نيته ويعطي للشيطان فسحة للدخول إليه بشيء من أنواع الخطية ولا يعود يقوم قبالة الأعداء ولا ينهض من الوقعة التي صنعها في ذاته..

بأي وجه يظهر إذا ما اجتمع الأعضاء رفقاؤه إلى بعضهم البعض وقد أفرز طريقه منهم ليمضي إلى طريق الهلاك وقد خاب من دالة الأطهار عن الله؟

وقد خاب أيضاً من الصلاة التي من القلب النقي تصعد وترتفع وتخترق عساكر الملائكة، ولا تتعوق حتى تأخذ مسألتها، وترجع إلى فم مرسلها بفرح وأصعب من هذا أنه كما أفرز طريقة منهم هاهنا كذلك يفرزه المسيح منهم هناك في اليوم الذي فيه تحمل السحب النيرة الأجساد التي تعبت بالطهارة وتدخل بهم في أبواب السماء، لهذا لا يقوم المنافقون في الدينونة لأن عملهم قد قضى عليهم آنفاً ولا الخطاة في مجمع الأبرار الفضلاء بقيامة الدينونة، ولا الفسقة في صفوف الصديقين القديسين.

الباب الثامن

يتضمن المقصود بالتوبة المذكورة في الكتاب المقدس الإلهي ،
لأجل ضعف البشر
وأنه ما ينبغي أن يتصور فيها أنها طريق إلى الخطيئة

إننا ما ينبغي أن نعتقد في القوة التي أودعها الأنبياء والرسل والآباء في كتبهم على ذكر التوبة أنها السبيل المؤازر على الغي والهفوات واحتقار تهديد القضاء الإلهي وتنقض حدود الرب التي لا تنقض، المحدودة بقوته سبحانه وتعالى منذ الأيام القديمة بتوسط أفواه كل القديسين في الكتب والمواعظ لإزالة الخطية.

لأنه عز وجل لرغبته في أن يكون لنا أمل في الخلاص تلطف في أن أزال خوف اليأس من الحس بالرجاء الذي أعطانا بالتوبة، لئلا توجد لنا منه فسحة لكي نخطئ بلا مراقبة ولا جزع الأشياء التي في كل نوع قطع عليها الخوف المفرز بختوم كلام الله في الكتب.

ومن الخطايا ما جلب النقمة على فاعليها جزئياً في الوقت ويرهن بتوسطها أن الخطية ممقوتة عنده تعالى.

فالجيل الذي كان على أيام نوح لما غرق بالطوفان؟ أليس لأنهم توفروا على الشهوة من أجل الفسق الذي سرى بينهم من قبل جمال بنات قايين، وفي ذلك ما كان حرب مال ولا عبادة أوثان ولا سحر ولا حروب.

ولم احترقت أيضاً مدن سادوم وعامورة؟ أليس لأنهم توفروا على الشهوة النجسة، حتى أنها استولت عليهم كلهم بحسب الإيثار لها فاستعملوا كل الأفعال النجسة. أو ليس من

زنا إنسان واحد مات كثيرون في لحظة واحدة من بني إسرائيل ولد الله البكـر حـوالي أربعة وعشرون ألفاً؟

وأيضاً لأي حال أقصى الله شمشون الجبار المنذور لله مـن الـبطن والمقـدس والمبشر بولادته بواسطة ملاك كيوحنا بن زكريا، والمؤهل للقوة العظمى والآيات الجسام؟ أليس لأنه دنس أعضاؤه الظاهرة بجمال زانية؟ ولهذه العلة ابتعد الله عنـه ومكـن منـه أعداؤه.

وداود الذي كان قلبه كقلب الله تعالى والذي لأجل فضائله أؤهل لكي يكـون مـن ذريته موعد الآب وأن يظهر منه المسيح سبحانه لخلاص كل المسكونة، أما لأجل زنـاه بامرأة واحدة عوقب، وهو عندما نظر جمالها بعينيه وانغرس سهم هواها في نفسه، لهـذا الحال أثار عليه البار عز وجل قتالاً من بيته واضطهده الذي كان من ظهره. وهذا بعد أن تاب وسكب الدموع الكثيرة حتى أنه بل فراشه بدموعه من كثرتها وقال الله تعالى له على لسان النبي أنه قد سامحه بذنبه.

وإني أؤثر أن أذكر قوماً قبله: لأي علة شمل الرجز بيت عـالي الكـاهن الـشيخ والصديق، الذي حسن تصرفه في الكهنوت مدة أربعين سنة .. أما كان بسبب ولديه حفني وفينحاس لأنه هو ما أجرم، ولا فعل هذا أن ما فعلاه كان عن رأيه، إلا أنه ما كانت لـه غيرة وحمية في أخذ الحق " حق الله تعالى " بل احبهما أكثر من طاعة الله.

فلئلا يظن ظان أنه أظهر سخطه على الذين نافقوا مدة حياتهم فقط، لأجل سـماجة تلك الخطية المبغوضة من الله، بين ذلك في كهنته ورؤساء شعبه وأناس القديسين الـذين عملوا معجزات، أي أنه لا يغفل عن المتجاوزين سنته والنابذين فرائـضه، كمـا سـطر حزقيال إذ قال للإنسان الذي رسم له ضرب أورشليم بالحربة التـي لا تُنظـر **" الشيخ والـشابَّ والعذراء والطفل والنِّساء، اقتلـوا للهـلاكِ. ولا تقْرُبـوا مـنْ إنـسانٍ عليـهِ السِّمَةُ، وابْتدئوا من مَقْدسي. فابْتدِأوا بالرِّجال الشيوخ الذين أمـام البيت "** (حز ٩ :

٦). ليقيم البرهان على أن السالكين بخوف وخشوع قدامه وصانعي إرادته هـم قديـسوه وأحباؤه ذو الفعل الفاضل والنية الطاهرة، ولكنهم إذا ما طرحوا طرق الرب تبارك اسمه فأنه يطرحهم ويقصيهم عن وجهه ويرفع منهم نعمته.

والدليل على ذلك ما أقوله: لأي حال خرجت القضية على بلشاصر وضربه بشكل يد! أليس لأنه تجاسر على ما أُخذ من أورشليم من الأواني المقدس التي ما كان يدنى منها وشرب فيها هو وجلساؤه؟

هكذا الذين نذروا أعضاءهم لله سبحانه وتعالى ثم يتجاسرون على استعمالها فـي الأعمال العالمية يهلكون بضربة لا تعاين ويقضي عليهم كبلطشاصر الذي جـسر علـى الشرب في الأواني المقدسة، التي أخرجوها من مقدس الرب.

وإن كان هذا هكذا فلا تتهاون إذن بأقوال الله وتهديداتـه بأمـل ورجـاء التوبـة والجسارة التي سلمت إلينا من الكتب الإلهية ولا نسخطه بقبيح أعمالنا ولا ندنس أعضاءنا التي جعلناها من أول وهلة برسم خدمته.

لأننا قد تقدسنا به كإيليا وأليشع وأولاد الأنبياء وبقية القديسين الأطهار الذين صنعوا الجرايح والآيات العظيمة وخاطبوا الله تعالى قبالة وجهه وكل من كان بعـدهم كيوحنـا الحبيب البتول والقديس بطرس وجماعة المبشرين بالجديدة الذين نذروا أنفسهم لله سبحانه وتعالى فقبلوا منه الأسرار، قوم من فمه وقوم بتوسط الاستعلان وصاروا واسـطة بينـه وبين الناس وخاطبوا المسكونة إلى الملكوت.

الباب التاسع

الأسباب التي يحفظ بها
جمال السيرة الرهبانية وتمجيد الله تعالى

ينبغي للراهب أن يكون في كل أموره رسماً ومنفعة لناظريه لكي من كثرة فضائله البهية ومناقبه التي تضارع شعاع الشمس نوراً التي يعاينها أعداء الحق يعترفون إن لـم يؤثروا بأن للمسيحيين رجاء خلاص أكيد، فيسارعون إليه من كل مكان كأنه ملجأ حتى أن قرن البيعة يعلو على أعدائها ويتحرك كثيرون إلى مماثلة فضائله ويخرجون من العـالم ويكتسب بنو البيعة البهاء من جمال سيرته.

لأن السيرة الرهبانية فخر بيعة المسيح تعالى، فلهذا ينبغي للراهب أن يتشكل بكـل أشكال الفضيلة ويقتني سائر أجزاءها الجميلة، من اطراح كل المنظورات والتوفر علـى عدم القنية الخالصة والتهاون الكلي بالجسد والصوم العالي، ملازمـة الـسكون وحـسن تصرف الحواس وحفظ النظر، وقطع كل خصومه تتعلق بهذا الدهر، والإيجاز في الكلام، وعدم الحقد والنقاوة من وسخه والبساطة بإفراز، والعلم بأن هذه الحياة بائدة وسريعة وأن تلك الروحانية الحقيقية قريبة وسلامة قلب وسذاجة عقل.

ويكون مجتمعاً إلى ذاته في كل وقت، ويكون غير معروف بين الناس ولا مـرتبط مع أحد بمرافقة، ولا يكون له تعلق مع إنسان وأن يكون موضع سكناه هادئاً.

وأن يهرب من الناس وأن يلازم دائماً الصلوات والقراءة، وأن لا يحـب الكرامـة ولا يفرح بالضيافات، ولا يربط ذاته بهذه الحياة، وأن يصبر على المحن بتجلـد ويعتـق نفسه من السماعات العالمية والبحث عنها.

ويثبت في القلاية بسكون من كل أحد ويصرف الاهتمام ويهذ دائماً في معنى تلـك البلادة الحقيقية.

ويستدل عليه في أن يكون وجهه مقطباً معبساً وعيناه تسكبان الدموع ليلاً ونهاراً، وما هو أكثر من هذا كله أن يحفظ عفته وأن يتنقى من نهم البطن، وأزيد من كل شيء أن يحفظ حواسه من مصادمة الملاقاة من الأصاغر والأكابر.

فهذه على سبيل الإيجاز فضائل الراهب الظاهرة الشاهدة له بالموت الكلي من العالم وقربه من الباري عز وجل، فينبغي لنا دائماً يا إخوتي أن نهتم بهذه المناقب في كل وقت ونقتنيها.

وإن قال قائل: وما كانت الحاجة إلى تحديدها جزءاً جزءاً دون إيرادها على سبيل الكلية، وذكرها موجزاً؟

أجبته إن الذي اضطرني إلى ذلك هو ما أقوله الآن: هو لكي يعلم المـرء المهـتم بنفسه نقصه وما قد أعوزه من جملة هذه الفضائل، إذا طلب واحدة فواحدة مما تقدم ذكره منها فلم يجده فيه، فيصير له التذكر بها.

وإذا ما اقتناها كلها حسب ما قد حددت، حينئذ يعطى علم ما قد تبقى مما لم أذكر، ويصير للناس والملائكة والقديسين علة لتمجيد الله تعالى، ويعد من هاهنا لنفـسه مكـان راحة قبل رحيله من هذه الدنيا.

الباب العاشر

في أنه ما ينبغي لعبد الله تعالى
الذي خرج في طلبه أن يعود فيسبب لنفسه اضطراباً
بالمحادثات البطالة لئلا بهذا السبب يتخلف الفكر في الطياشة
الرديئة

المراتب التي ينجح فيها الإنسان ثلاث:

١ ـ مرتبة المبتدئين. ٢ ـ الوسطى. ٣ ـ الكاملين.

١ – أما الذي في المرتبة الأولى فأنه إن كان عقله يميل إلى الخيـر إلا أن فكـره يتحرك في الآلام.

٢ - أما المرتبة الثانية: فإنها متوسطة ما بين التألم والروحانية، والأفكار التي مـن اليمين، والأفكار التي من الشمال تتحرك فيه بالسواء، ولا يهدأ من هو في هذه المنزلة من أن يصدر عنه ظلام ونور على السواء كما قيل.

وإن أمسك قليلاً عن هذيذ الصحف الإلهية التي يتفكر فيها، يلتهب الجواني بتنـور يناسب الحق حسب قوته مع التصون من خارج الذي منه يكون التصون الجواني والعمل الحقي، فأنه عتيد أن يجتذب إلى الآلام.

وإن هو غذى حرارته الطبيعية بما قد قلت ولا يكف عن البحث والتفتيش والطلب والصبابة إليها، أي الأمور الإلهية من بعد، فإنه إن لم يعاينها، إلا أنه مما تلوح به قـراءة

الكتب الإلهية يغذي أفكاره ويجمعها لئلا تميل إلى الجانب الأيسر فتقبل زرعـاً محاليـاً. شيطانياً بتحايل من الشياطين بشكل الحق ويحفظ نفسه بشوق ويطلب مـن اللـه تعـالى بصلوات ذات حزن وطول صبر ولم يشأ الله عز وجل أن يجود عليه بملتمسه، فإن الباب ينفتح قدامه ولا سيما لأجل تواضعه، لأن الأسرار تنكشف للمتواضعين قلباً.

وإن هو مات على هذا الأمل ولم يعاين تلك الأرض من قرب فعلى مـا أظـن أن ميراثه يكون مع الأبرار المتقدمين الذين أؤهلوا أن يدركوا الكمال ولم يعاينوه حسب قول الرسول: **" أنهم برجاء صنعوه كل أيام حياتهم ورقدوا ".**

لأنه ما عسانا أن نقول إن لم يلحق إنسان أن يدخل إلى أرض الموعد التـي هـى رتبة الكمال، أي أنه لم يدرك الحق إدراكاً ظاهراً حسب مقدار كفاءة الطبيعة، أتراه مـن أجل هذا يعاق عن ذاك ويمكث في المنزلة الأخيرة كالذي تميل كل عزائمه إلـى الجهـة اليسرى.

ولأجل أنه ما حصل على كل الحق ألعله يثبت في تعليمـه الأولـى (هجوتـه) المرتبة النذيرة والدرجة الحطيطة التي لا تعلم هذه الأمور، نعم ولا تشتهيها، أو يليـق أن يعتلى إلى الأمور الوسطى التي ذكرت.

لأنه وإن كان قد شاهدها كما بواسطة مرآة، إلا أنه قد أملها من بعده، وبتوسط هذا الأمل قد وضع مع آبائه، وإن كان ما قد أؤهل من هاهنا للنعمة الكاملة، إلا أنه لأجل هذه في معناها دائماً وترديده إياها في عقله شغف بها وقد قدر في مدة حياته أن يقطع الأفكار الخبيثة وأن يخرج من العالم وقلبه ملآن من هذا الرجاء، فإذن كل ذي اتضاع على أحسن نظام.

لأن كل تخيلات العقل غير الجسدانية من إفهام الكتب بقصد محبة اللـه المتـصلة بمعنى الشوق تحجز مداخل النفس قدام الأفكار الخبيثة الغريبة وتحفظ العقل وتصونه بذكر الخيرات العتيدة لئلا يتراخى لأجل البطالة بتذكار الأمور العالمية لأن منها تبـرد حركـة حرارته وتنقلب إلى الشهوات.

الباب الحادي عشر

في التغيير الحادث للسالكين في طريق السكوت ، لأنه يعرض لهم في وقت اختناق نفساني وفرح بغتة وحرارة غير مألوفة

من رأى أن يسير بعقله في التدبير الانفرادي والوحدة مع ذاته فليرتب نفسه ويتصرف بقية أيام حياته بحسب نظام السكون والعمل بأنواع ترتيبه.

إذا ما عرض لك كالمألوف في ترتيب السكون المحدود من النعمة الإلهية أن تنحل نفسك وتنغشى من داخل بالظلام فينستر عنها الإشراق الإلهي كستر الضباب الراقي من الأرض، والغمام لأشعة الشمس، وأن تعدم زماناً يسيراً العزاء الروحاني من أجل شمول ديجور الآلام، وتنقبض عنك القوة المفرحة، وتحيط بالعقل قتام غير مألوف، فلا تنزعج نفسك وتميل ميل الجهال وعماة النفس، بل اصبر وواظب على قراءة الكتب المقدسة والمهذبة التي صنعها أفاضل المعلمين، ودوام على الصلوات الاغتصابية وإكراه نفسك عليها، فستوافيك النعمة والمعونة وأنت لا تعلم.

لأنه كما أن شعاع الشمس يزيل عن الأرض ظلمة الهواء الشامل لها ـ الضباب ـ هكذا صلاتك تقدر أن تقشع عن قلبك غمامة الآلام وأن تنير عقلك بنور السرور والعزاء وتولد مثل هذا في أفكارك كالمألوف منها.

لا سيما إذا ما كنت قد تناولت مادة الكتب الإلهية، واقتنيت سهراً يجلو العقل.

لأن النظر الدائم في كتب القديسين يملأ النفس دهشاً لا يوصف وفرحاً إلهياً.

في ذوي السكون
متى يتصورون الجهة التي وصلوا إليها
من أعمالهم ، ويحسون أن أعمالهم بدأت تجود عليهم بالثمار

إني يا صاح سأذكر لك أمراً، وإياك أن تتهاون به كأنه شيء حقير، ولا تشك في بقية أقوالي لأن الذين سلموها لي هم صادقين:

إن علقت ذاتك من جفون عينيك إلى أن تصل إلى سكب الدموع، فلا تظن أنك أدركت أو بلغت شيئاً في سيرتك، لأن غوامضك (خفايا قلبك)، إلى الآن تخدم العالم، أي أنك قائم في سيرة العلمانيين، وصانع عمل الله بتوسط الإنسان البراني، أما الذي من داخل فخال من الثمرة، لأن ثمره يبتدئ من الدموع.

وإذا ما وصلت إلى بلدة الدموع فاعلم حينئذ أن فكرك قد خرج من سجن هذا العالم ووضع رجله في مسيرة الإنسان الجديد وابتدأ أن يستنشق نسيم ذلك الدهر الجديد العجيب، وحينئذ يبتدئ أن يسكب الدموع، لأن طلق خروج الطفل الروحاني قد دنا.

لأن النعمة العامة أم الكل حريصة على أن تولد للنفس في السر رسماً إلهياً يقود إلى نور العالم الجديد وإذا ما حان وقت الولادة حينئذ يتحرك العقل في أمور مما هناك، وهذا الحال يضاهي حال الطفل فيما يرقبه عندما يخرج من البخار المحيط به داخل رحم أمه التي فيها خلق، وبسبب أنه يصبر على ما لم يكن معتاداً به فيبتدئ يحرك جسمه مختلطاً ببكائه بفرح يفوق لذة العسل، وبقدر ما يتغذى الطفل من داخل تكون زيادة البكاء.

وهذا النظام الذي ذكرته، أعني منزلة الدموع ليس هو ذلك الذي يعرض للسالكين جزئياً، لأن العزاء يحدث من وقت إلى وقت لكل من هو يعمل مع الله في السكون، فتارة يكون يتصور في عقله، وتارة يكون يتطلع في الكتب، وتارة يكون في الصلاة والتضرع.

بل إنما كلامي في ذلك الكل الموجود في الباكي ليلاً ونهاراً بلا انقطاع ومن آلـف ذلك بحقيقة السيرة وجد الحق الذي يكون داخل السكون لأن عينيه تصيران شبه معين ماء مدة سنتين أو أكثر.

وهذا يحدث في وقت العبور، أعني بقولي العبور السري، ومن بعد الدموع يـدخل إلى سلام وأمان الأفكار، وبأمان الأفكار هذا يدخل إلى تلك النياحة الإلهية التي قالها بولس الرسول جزئياً حسبما تسع الطبيعة.

ومن بلد الأمان والنياح يبتدئ العقل أن يبصر الأسرار، حينئذ يبتدئ الروح القدس أن يكشف قدامه الأمور السمائية ويسكن الله تعالى فيه وينهض فيه أثمار الروح القـدس، ومن هاهنا يحس بالتغيير العتيد أن تقبله الطبيعة العامة بتجديد الكـل إحـساساً متواريـاً كالرمز.

وهذه الأشياء إنما كتبتها ودونتها تذكيراً لي ولكل من ينظر في هذا الكتاب حـسبما أدركت وحصلت من معاني الكتب ومن أفواه الصادقين ومن تجربة يسيرة ولتتوجه لـي معونة بتوسط صلوات المنتفعين منها لأني ما تعبت فيها تعباً قليلاً.

واسمع يا أخي شيئاً آخر أقوله لك وهو ما تعلمته من فم لا يكذب وهـذا فحـواه: " إذا ما دخلت بلادة السلامة الأفكار، حينئذ ينتزع منك تواتر الدموع وبعد ذلك تأتي بمقدار وقياس، وهذا هو الحق لا محالة وباقتصار الموثوق به من كـل البيعـة ومـن الحـذاق والرؤساء المجاهدين أولادها.

الباب الثاني عشر

في صحة الرجاء بالله ، ومن هو المؤهل له

ثمة رجاء واتكال يحدث من أمانة القلب، وحسن هو هذا وذو إفراز ومعرفة، وقـد يكون آخر مخالفاً لهذه وحدوثه من الجهل والنفاق، وهو رجاء كاذب.

أما المرء الذي لا يصرف الاهتمام بالكلية إلى الأمور الوقتية الزائلة، بل قد وقـف ذاته للرب عز وجل ليلاً ونهاراً لا يهتم بشيء عالمي لأجل كثرة اعتناءه باكتساب الفضيلة وقد جعل اهتمامه كله في تحصيل الأمور الإلهية لذلك يتهاون في إعداد غذاء لنفـسه أو لباس أو مكان برسم السكن والمقام، وكل ما هو سوى هذه وما يجري مجراها لأنه هـو راجي الله سبحانه وتعالى بعلم، وعلى ما ينبغي، لأنه متوكل على الله، إنه هو يعد له ما تدعو الحاجة إليه.

فرجاؤه إذاً هو حق الرجاء، وبالعدل يتكل مثل هذا على الله تعالى إذ هـو حامـل اهتمام عبادته من غير إهمال وتوان بالأسباب، ولا تضجيع يتجه من علة إلى علة.

ومن الواجب أن يظهر الله تبارك اسمه صفة جميع الاهتمام به، وعنايـة مفـرزة تخصه دون بقية الناس لأنه حفظ وصية اللـه القائلـة: **" لكن اطْلُبوا أوَّلاً ملكوت اللَّـهِ وبرَّهُ، وهذه كلُّها تزادُ لكُم " (مت ٦ : ٣٣).**

ولا تهتموا بالجسد، لأننا إذا ما كنا هكذا فالعالم يهتم لنا بكل شيء كأنه عبـد لنـا ويطيع أقوالنا وينتهي إلى مراسيمنا من غير شك، ولا يناقض إرادتنا، وبالجملـة يكـون قياسه إلينا كقياس العبيد إلى سادتهم.

فلئلا يتعطل، أعني هذا الفاضل من دوام قيامه واتصال مثوله تجاه الله تعالى، مـا يرى أن يشتغل ولا بما تدعو الحاجة الضرورية إليه، من حوائج الجسم ولا يهتم بـشيء آخر، إلا أنه عاطل من المراعاة القائدة إلى اللذة والنياحات، صغرت أو كبـرت لأجـل خوف الله تعالى.

وإنه ليحظى بما يحتاج إليه حظوة عجيبة من غير صرف اهتمام إليه مهما كان من الأمور الأرضية من غير نصب ولا تعب في معناها، فأما الذي قلبه مملوء بالكليـة مـن الأمور الأرضية وهو يغتذي دائماً التراب مع الحية ولا يعاني شيئاً مـن الأشـياء التـي ترضي الباري عز وجل، بل قد صرف العناية إلى الأمور الجسمانية، وانحل وتعطل من كل فضيلة لأجل كثرة حديثه وصنوف احتجاجاته وتعالى وجفائه، فإنه لأجل فشله وكسله يخيب من أعمال الفضيلة.

وإذا ما ضاقت به الحال أو ضغطه الموت أو أحزنته ثمرة جهله بأمرها، وانعصر بسوء أعماله يقول لنفسه أيها الجاهل إلى الآن ما ذكرت الله تقدس اسمه، بل أنك نـسيته بانحلال أعمالك، واسمه من أجلك يفترى عليه في الأمم كما كتب، والآن تتجاسر أن تقول بفمك عليه أتكل وإياه أرجو وبه أعتصم وهو يساعدني ويراعي أحوالي.

ما أحسن ما قاله الله تعالى على لسان إشعياء النبي مخجلا لمثل هـؤلاء القـوم: **" وإيَّايَ يَطلُبون يوماً فيومـاً، ويُسَرُّونَ بمعرفـةِ طُرُقِي كأُمَّـةٍ عَملت برّاً، ولـم تتـرك قضاءَ إلـهِهَا. يَسألونني عن أحكام البرِّ "** (إش ٥٨ : ٢).

فالجاهل الذي من هذه الجماعة الذي ليس بقريب بفكره من الله تعالى، ولكـن إذا اضغطته المصائب وأحدقت به التجارب والضوائق فإنه يرفع يديه في ثقة ويسأل.

هذا ينبغي له أن يحترق على أكثر الأمر ليتأدب من هنا ومن هناك، لأنه ما اقتنى فعلاً حسناً أهلاً للاعتماد على الله سبحانه، فلأجل وخيم أعماله وذميم أفعاله وتهاونه وجب عليه الأدب، أما الله فقد تغاضى عن معاصيه واحتمله وتأنى عليه لأجل وفـور رحمتـه وتكاثر رأفته.

ومن هو بهذه الصفة فلا يخدعن نفسه ولا ينسى نظام تصرفه، ولا يقولن أنه يعتمد على الله تعالى، لأنه سيؤدب لا محالة، لأنه ما حصل على فعل الأمانة.

فلا يمد رجليه في البطالة ويقول لي ثقة بالله تعالى أنه ينعم علي بما تدعو الحاجة إليه وكأنه سلك في سبله وتصرف في مرضاته. ولا يتجاهلن فيرمين نفسه في هوة مـن جراء تجاهله، وإن لم يصعد ذكر الله على قلبه هاهنا يقول بعد انكساره " على الله اتكـل وبه أتعضد وهو يخلصني!!

لا تضل أيها الجاهل، فإن الاعتصام بالله تعالى يجب أن يتقدمه التعب في طاعتـه والعرق في عمله.

فإن كنت تؤمن بالله تعالى فحسناً تفعل إلا أن الأمانة تفتقر إلى الأعمال والاعتماد على الرب سبحانه وتعالى ويحتاج إلى شهادة الضمير التي تتولد من التعب في الفضيلة.

ثق وصدق أن الله يسوس برأياه وأنه قادر على كل شيء وليتبـع إيمانـك عمـل ملائم، وحينئذ يسمع منك.

لا تؤثر أن تمسك الرياح في كفك، أعني أمانة بلا عمل.

على أكثر الأمر أنه قد يسير الإنسان في طريق بها وحش خبيث أو سفاك دم أو ما جرى هذا المجرى، فنتبين من هاهنا عناية الله العامة، أي كم من وقت ينقـذ مـن هـذه المضرة: بأن يعوق المرء من النهوض لسبب من الأسباب، إلى أن يجوز ذلك الوحش، أو يسبب من يلقاه ويرده عن طريقه لأجل ما ذكرناه من الآفة المعترضة.

وربما أيضاً كان في الطريق صلّ (ثعبان) غير ظاهر وملتف، ولأن اللـه عـز وجل ما يؤثر إلقاء إنسان في هذه التجربة يبعث على الصل للحـين الـدبيب الـصغير، أو المضي من المكان أو السعي قدامه فيراه ويحترس منه وينجو من أذيته.

فإن لم يكن أهلاً لهذا التفضل لأجل ذنوب خفية له لا يعلم بها إلا هو وحده، إلا أن الله ينشله من هذا الخطر المؤلم جوداً عليه ورحمة به.

وأيضاً ربما عرض لبيت السقوط والزوال من مكانه بواجبه ويكون هناك قوم جلوس فيتحنن الله عليهم ويتقدم إلى ملاك ما بإمساك البيت ومنعه من السقوط إلى أن ينهضوا منه أو يخرجهم بعلة من العلل لئلا يؤخذ واحد منهم تحته ومع خروجهم للحال يهوي، وإن اتفق أن يحصل إنسان ما تحت الردم لا يتمكن الضرر منه تعالى لأنه يريد أن يري قوته في هذا الأمر.

فهذه الأمور وما يجري مجراها تشهد بعناية الله تعالى العامة، أما الصديق فلا تفارقه هذه العناية وقد اقتنى هذه النعمة على الدوام مخصوصة به دون العامة.

أما بقية الناس فأمرهم الله تعالى أن يدبروا أمورهم بنقد وتمييز ويخرجوا المعرفة بعناية الله تعالى.

أما الصديق فلا يحتاج أن يدبر بواسطة هذه المعرفة لأنه استعاض عنها بالإيمان الذي بتوسطه ينقهر كل ترفع يثور على معرفة الله سبحانه وما يخشى شيئاً مما عددناه لأنه مكتوب أن الصديق يتجاسر على كل أمر واثقاً كالأسد بتوسط الأمانة لا كمجرب للرب تبارك وتعالى، بل كواثق به وبمنزلة من قد تسلح ولبس قوة الروح.

وبمقدار ما كان اهتمامه منصرفاً دائماً نحو خوف الله تعالى على ذلك الحد يقول الله سبحانه وتعالى **" أنا معه في الحزن وأخلصه، وأشرف قدره وأطيل عمره وأريه خلاصي ".**

أما الفاشل المتراخي في عمله فلا يمكن أن يقتني هذا الرجاء ولا تكون له هذه الثقة، بل الملازم لله تعالى دائماً بمشكور أعماله وحميد أفعاله والشاخص بنظر قلبه إلى نعمته دائماً كقول داود الإلهي **" كَلَّتْ عَيْنايَ من انتظار إلهي "** (مز ٦٩ : ٣).

الباب الثالث عشر

في إنه نافع لذوي السكون التعطل من الاهتمام الأرضي وأن الخروج والدخول والتشبك بالأمور يسبب لهم خسارة

إنسان كثير الاهتمام لا يمكن أن يكون وديعاً، هادئاً لأن علل الأمور الـضرورية التي فيها يشقى وينصب تضطره إلى أن يتحرك فيها مكرها مجبراً، وتزيل عفة الـسكون والهدوء.

فينبغي للراهب أن يقف ذاته لدى وجه الله تعالى ويكون شاخصاً إليه إن كان يؤثر على الحقيقة أن يحفظ عقله وينقي الحركات اللطيفة التي تدب فيه ويتعلم مع سكون الأفكار أن يفرز ما يدخل وما يخرج.

لأن الأشغال المفرطة دليل على استرخاء الراهب عن تدبير وصايا المسيح تعالى. أنها لتبرهن على تقصيره في الإلهيات.

لا تلتمس نوراً في نفسك خلواً من زوال الاهتمام ولا سكوتاً وهدوءاً فـي تـسييب الحواس، ولا قبضاً للحواس مع تواتر الأشغال. فإذا لم تستكثر من الأشغال فإنك لا تجـد في عقلك اضطراباً.

إنك لا تقدر على الدنو من الله تعالى وأنت بمعزل عن الصلاة الدائمة، فما ينبغـي إذا أن تجعل للعقل اهتماماً آخر مع الصلاة، فأنه أمر يشتت الفكر.

الحركات الحارة التي تحركت فيك وقت مذاقتك حلاوة الله تعالى بالاشتعال الحار في الأشياء التي من أجله ترجع بعد فتجدها قد بردت وعدمت مذاقتها داخل نفسك بهذيـذ

مفاوضة إنسان حضر إليك من مكان، أو أنك أكرمت العمل الجسداني أكثر منها وتوفرت على الشغل، لهذا بردت حرارة أفكارك.

إن الدموع في الصلاة والتلاوة بحرارة لتثير حلاوة حرارتها داخـل القلـب مـع الذهول الحميد ليطيرن إلى الله تعالى هاتفاً **" عَطشتْ نفسي إلى اللَّه، إلى الإلـه الحـيِّ. مَتى أجيءُ وأتراءى قُدَّام اللَّه؟ "** (مز ٤٢ : ٢).

الذي قد شرب من هذا الخمر وعدمها بعد ذلك هو وحده يعرف في أي شقاء هـو، وما الذي سلب منه لأجل تراخيه.

ما أردأ النظر والحديث لذوي السكون والسائرون في الهـدوء يـا اخـوتي فـإن مضرتها لتؤثر فيهم أكثر من الذين هم بمعزل عن السكون.

وبالحقيقة يا اخوتي كما أن شدة التجمد إذا لامست أطراف النبات تيبـسه، هكـذا مفاوضة الناس حتى وإن قلت جداً وكانت على ما يظن في أمر جميل تيبس زهر الفضائل الذي هو أو ما قد أزهر في ضياء فضاء السكون.

الذي قد أحاط مع البساطة والنعومة بشجرة النفس المغروسة على مجاري التوبـة، وكما أن شدة البرد إذا ما مرت بالنبات في ابتداء نشوءه تحرقه وتعكف رأسه وتدخله في الأرض، هكذا محادثة الناس تجفف أصل العقل الذي بدأ يورق عشب الفـضائل وتحنـى رأسه وتعكفه إلى مكانه وتقطع طراوته.

وإذا كانت مفاوضة القوم الذين هم من وجه أفاضل وذوي نـسك وتحفـظ يـسبب تعويق عمل العبادة التي من شأنها أن تؤذي النفس، فكم بالأكثر محادثة العوام والجهـال والنظر إليهم، ولا احتاج أن أذكر العلمانيين فإن محادثتهم تؤذي كمثل النار للقش.

وكما أن الإنسان الحسيب النسيب إذا ما سكر ينسى خاص شرفه وتهـون منزلتـه ويستهزئ بنسبه من قِبل الأفكار الغريبة الداخلة عليه والوافدة إليه من قوة الخمر، هكـذا

عفة النفس تتعكر من محادثتهم ومشاهدتهم وتنسى قصد تحفظها أو يُمحى من فكرها غرض إرادتها ويقلع من عروقها كل أساس السيرة الحسنة.

الاتساع ومفاوضة الفرجة (كثرة المشاهدات). حتى لو كان الإنسان ساكتاً وألم بها، أو أنه صادف قربها بالنظر والسمع فيها كفاءة بالشيء الذي يدخلانه إلى أبواب عينيه ومسامعه على تعكير الفكر وتبريد حرارته من الإلهيات.

وإن كان تكدر قليل أو نظر الناس فقط يحدث خسرانا هذا صفته وهذا مقداره ومفاوضته ساعة صغيرة تصنع هذا الفساد كله في المتوحد المتحفظ، فماذا نقول في اللقاء المتواتر والإدمان على هذه الأمور المتوفرة ..

إن البخار الراقي من البطن يُحدث ظلاماً ويحيل بين القلب وبين معرفة الإلهيات على حذوا ما يفعل الضباب النابع من رطوبة الأرض من إظلام الهواء.

أما الإعجاب فيجعل صاحبه لا يفهم أنه سالك في الظلام، ولأجل هذا الظلام المتقدم ذكره لا يخبر معنى الحكمة فهو يتحال على الكل، وهو أحقر منهم، ولا يقدر أن يفهم طُرق الرب.

أما الرب تعالى فيُخفي عنه إرادته إن لم يؤثر المسير في طريق المتواضعين.

الباب الرابع عشر

في أن السهر وتيقظ العقل يوصلان
إلى معرفة الأسرار الإلهية ويعطيان المواهب

لا تظن أيها الإنسان أن في كل عمل الرهبان شيئاً أفضل من سهر الليل.

حقاً يا أخي إنه إن لم يحدث للناسك تشتت واضطراب في الأمور الجسدانية والاهتمام بالأشياء السالفة في النهار بل يحفظ ذاته بالانقطاع عن العالم ويحرس نفسه مع السهر ليطيرن فكره كما بأجنحة في زمان يسير ويصعد إلى الله تعالى لبهجته ويتفرس في ذلك المجد بسهولة ويسبح في تلك المعرفة التي فوق التصور البشري بتوسط خفته.

الراهب الملازم السهر بإفراز من العقل لا تظن أنه ذو جسم لأن هذا الفعل على الحقيقة لرتبة الملائكة.

إنه لا يمكن أن يكون السائرون في هذه السيرة دائماً خاليين من المواهب العظيمة ينالونها من الله تعالى ليقظتهم ونور قلوبهم وملازمتهم له تعالى وصرف اهتمامهم إليه.

إن نفساً منعكفة على هذه السيرة ذات السهر ومنصبة في معناها سيكون لها لواحظ أعين الشاروبيم تنظر بها دائماً بخفة وحدة الثاؤريا السمائية.

أما أنا فأظن أنه ممتنع أن يكون المختار لهذا التعب الإلهي العظيم الحافظ نفسه بمعرفة وإفراز المعتني بحمل هذا الثقل ويجاهد في هذا الجزء الشريف الفاضل والنصيب الكريم اللطيف الذي ارتضاه ويحفظ ذاته في النهار من اضطراب المحادثات واهتمام الأعمال الباطلة، لا يمكن أن يخلو من الثمر العجيب المشكور والنعيم العظيم المأثور والمتوقع قطافه والمنتظر إدراكه.

أما المتهاون في هذا الأمر فأتجاسر أن أقول أنه يجهل العِلة التي لأجلها يتعب ويمتنع عن النوم.

وإنه في قراءة الأسطر المتواترة وأتعاب اللسان في التزمير والألحان والتلاوة في الكتب الإلهية جميع الليل والوقوف على قدميه وتعبه فيها، وعقله ليس حاضر هناك ولا يصغي ولا ينصت إلى ما يقوله في معنى التزمير والصلاة، بل ينقاد مع العادة بغير إفراز ولا انتقاد للنفس، وإن لم يكن الأمر هكذا كما قلت وإلا كيف يعدم أن يقطف من زرع أعماله المتواترة الثمار الفاضلة.

والدليل على ذلك أنه لو كان قد انعكف على النظر في الكتب الإلهية التي هي مقوية للذهن والمشجعة خاصة على الصلاة، والمساعدة على السهر الذي هو قرينها ونور الفكر ومرشده إلى الطريق وزراعة مادة الثاؤريا في الصلاة، ورابطة الفكر من الطياشة لئلا يطمح في الأمور الباطلة، وزراعة لذكر الله الدائم في النفس، وسبيل القديسين الذين أرضوه منذ البدء، والملاطفة للعقل والمفيدة إياه بالحكمة، لوجد ثمرة هذه الأعمال يانعة.

لأية حال أيها الإنسان تدبر أمورك بلا إفراز؟! وذلك أنك تقف الليل كله في الصلاة وتجهد ذاتك للتمجيد والطلبات، وتعتقد أن أقل شيء من الاحتراس بالنهار يؤهل لنعمة الله من أجل تعبك في أشياء أُخرى، ولأي سبب تُتعب نفسك وتزرع في الليل وفي النهار تبدد أتعابك فتصير بلا ثمرة ؟!

ولما تُشتت تلك اليقظة والحرارة التي اقتنيتها وتُضيع ربحك بالمحادثات مع الناس، وتتحدث في الأمور ذات الخباط.. إنك لو كنت أضفت إلى هذيذ الليل فِلاحة النهار وحرارة القلب ولم تفصل بينهما، لكنت عانقت في أقصر وقت صدر يسوع عز وجل.

إلا أنه قد تبين من هاهنا أنك تصرفت وصرت بلا إفراز ولم تعلم لأية عِلة ينبغي للرهبان أن يسهروا.

أنت يا هذا تظن أن هذه الأمور موضوعة لأجل تعب الجسد فقط، وأنه لا يتولد من هناك شيء آخر، أما الذي أهلته النعمة أن يفهم من أجل أي رجاء يجاهد المجاهدون

والقديسون ويعاندون النوم ويكرهون الطبيعة ويغصبونها لكي يكونوا متيقظين بأجـسادهم وبأفكارهم في تقديم الصلاة جميع الليل يعرف أيضاً القوة الصائرة من التحفظ النهـاري، وأي معونة تُفيد العقل في هدوء الليل وأي سلطان علـى الأفكـار وأي طهـارة تمنحـه واجتماع ذهن وجميل تصور لكي بغير اغتصاب ولا جهاد يشخص الفكر مع حرية أعظم في معنى كلام الصلاة.

أما أنا فأقول أن الجسم إذا ما استرخى من العمل لأجل ضعفه ولو لم يقدر علـى الصوم فإن العقل يتمكن بالسهر وحده أن يقتني الذهن التقانة إلى الهيئة بالـصلاة ويفيـد القلب تمييزاً، أي القوة الروحانية، إن كان لعمري ما يدخل عليه اضطراب من الانحـلال في الأسباب النهارية التي شأنها إتلافه والأضرار به.

لذلك أضرع إليك أيها المؤثر يقظة العقل ومعرفة الحياة الجديـدة، وأقـول لـك: لا تتوانى في حياتك بسيرة السهر لأنه بتوسطه تنفتح عيناك فتنظران كل مجد التدبير وقوة طريق البر.

وإن عرض عليك أيضاً ـ وكلا أن يكون ذلك ـ فكر استرخاء وفطن فيـك مـن تجربة، ناصرك الذي هو معتاد أن يثبتك ويحكمك في هذه الغيارات بهذه الأمور أعني إما في حرارة أو برودة أو من عوارض وأسباب وإما من ضعف الجسم وإما لأنك لا تقـدر على التعب المألوف منك من التوتر على التزمير والصلاة وتواتر السجود، الأمور التـي كنت دائماً تألف إتمامها بالكمال، فأنا أضرع إليك بمحبة إن أنت تجربت بمثل هذه الأشياء ولم تقدر على فعلها فاسهر وأنت جالس سهراً قلبياً ولا ترقُد، وعبر الليل بكل وسيلة قاعداً ومفكراً أفكاراً صالحة وبهذيذ العادة، ولا يغلظ قلبك ويظلم من قبل النوم، فـإن الحـرارة الأولى ستَنفُذ إليك بواسطة النعمة، وإذ تفرح بها اشكر الله تعالى.

لأن البرودة والثقل الذي هو صفته يطلقان على الإنسان ليتحنك ويختبر، فإذا هـو أنهض ذاته بحرارة ونفضهما عنه وغصب نفسه قليلاً، حينئذ تدنو النعمة منه كما كانـت وتأتي إليه بقوة أُخرى مخفي فيها كل خير.

وأنواع كثيرة من المعونات، ويتعجب ويذهل من الثقل الأول والخفة الوافدة والقوة المتجدد الواردة وكيف قِيل بغتةً هذا التغيير.

ومنذ ذلك يتفلسف حتى إذا ألم به هذا الثقل في وقت آخر يعرفه من تجربته الأولى، ولو لم يجاهد في الوقت الأول لما أمكنه أن يقتني مثل هذه المعرفة.

أرأيت يا أخي كم مقدار ما يتفلسف المرء إذا ما أيقظ ذاته قليلاً وصبر في أوان القتال.

أما إذا ضعفت طبيعة الجسد فقط فلا يكون قتال بل هو مرض وضعف وضرورة، وفي مثل هذا الحين لا يليق أن تحارب الطبيعة لأن ذلك لا ينفع، أما في سوى هذا فجيد للإنسان أن يجهد نفسه ويغصبها في كل ما ينفعه.

إن السكون الدائم مع قراءة الكتب وغذاء بقياس والسهر، تحرك بسهولة في العقل التعجب في الأمور إلى أن تحدث أسباب تُبطل دوام السكون.

أما الإفهام التي تتحرك من الأعمال بالسكوت من ذاتها بغتة بغير عناية واختيار فإنها تجعل العينين مثل بِركة العماد بالمدامع الفائضة التي تشمل الخدين بكثرتها.

إذا ما ريض جسمك بتوسط النسك وتواصل الصوم في السكون والتحفظ وأحسست فيه بحدة ألم الزنا قد تحرك خارجاً عن الحركة الطبيعية، فاعلم أنك امتحنت من أفكار العظمة في عقلك.

فاخرج في غذائك رماداً والصق بطنك بالأرض وتأمل ماذا تصورت وأعرف غيار طبيعتك وأن عملك يفوق طبعك فلعل الله يرحمك ويرسل لك نوراً تعرف به الاتضاع لئلا تنمو وتزداد رذيلتك.

فينبغي لنا أيها الخلان إذاً ألا نكف عن الجهاد الروحي والحرص إلى أن تستريح في قلوبنا التوبة ونجد الاتضاع ويستريح قلبنا بالرجاء بإلهنا.

الذي له المجد إلى الأبد. آمين.

الباب الخامس عشر

في قوى الرذائل وفي أي الأشياء تقوى ، ومن أيها تبطل

ما دام الإنسان لا يبغض من القلب بالحقيقة عِلة الخطية وسببها فليس ينعتق من لذة فعلها في القلب، وهذا هو الجهاد القوي الذي يعاند الإنسان إلى الدم، وهذه هى القوى التي يدعونها تحريضاً وحرباً، ومن رائحتها تضعف النفس الشقية، أي مـن أجـل المجاذبـة والعناد الموضوع فيها الذي لا منفذ منه.

وهذه هى القوة العظيمة التي للخطية وبها قد اعتاد العدو أن يدنس ويخبط نفـوس الأعضاء وإذ يضطر حركاتهم الطاهرة إلى أن تتجرب بما لم تباشره البتة.

فالخليق بنا أيها الأحباء أن يظهر هاهنا صبرنا لأن هذا الوقت هـو أوان الـشهادة الحقيقية وبتوسطه يقال إن مصاف الرهبان يغلب كل وقت.

وبمباشرة القتال هذا يتنجس العقل السديد المتقن ويتخيل إن لم يواثب أعظم مواثبة ويحترس جداً.

صلاة: اللهم ينبوع كل معونة والقادر على كل شيء أعضد أنت في هذه الأمـور، أعني أوقات شهادة النفوس التي خَطَبتْ ذواتها لك أيها الختن السمائي، وعاهـدتك علـى القدس بكل نقاوة وحركات بغير الْتِواء أنعم عليهم بقوة تهدم بها أسوار منيعة، وتخفض كل علو يرتفع على الحق، لئلا تجبن عن غرضها وتَخيب عن مقـصدها باغتـصاب غيـر محتمل في الوقت الذي يكون فيها الجهاد إلى الدم.

ليس كل وقت يكون فيه جهاد العفة تكون فيه هذه الصعوبة الخطرة، لأن هذه تكون تخليه على سبيل الامتحان، فالويل للنفس المختبرة بهذا القتال المميز لأنه ذو قوة جـسيمة قد اقتناها من العادة على الذين بالكمال أعطوا أنفسهم إلى الانهزام بتنازلهم مع الفكر.

فالجدير بنا أيها الإخوة أن نتحفظ من البطالة، لأن موتاً معقولاً كـامن فيهـا مـن قبل. إنه لا يمكن أن يسقط الراهب في يدي المحارب ولا في أسره خالـواً منهـا، أعنـي البطالة.

إن الله تعالى ما يديننا في ذلك اليوم من أجل عدم التزمير ولا من أجل عـدم أداء الصلاة، بل من قِبل أنه بتركها نعطي فرصة للشيطان للدخول إلى قلبنا.

وذلك إنه إذا ما لقى موضِعاً دخل إليه وأغلق أبواب عيوننا، حينئذ يكمِل بنفاق تمرد وغصب الأشياء الموجِبة على فاعليها القضاء الإلهي المصحوب بأصعب انتقام، ونصير عبيداً خاضعين من أجل التخلف عن الأصاغر التي تستوجب الاهتمام من العارفين لأجل المسيح سبحانه.

كما هو مكتوب عند الحكماء: من لم يخضِع إرادته لله تعالى يخضع لمعانده.

فلتكن عندك هذه الأصاغر بمنزلة أسوار تجاه آسرينا هذه التي تظن أنهـا ليـست شيئاً، إنما تُقِيم داخل القلاية، هذه المرتبة من الحكمـاء رؤسـاء رتـب البيعـة بـروح الاستعلان والحكمة، وضعوها لحفظ حياتنا.

وأما الجهال فيستهينون بالصلاة ولا يفكرون في الخسارة المتولدة من ذلك، هؤلاء بدء طريقهم ووسطها، حرية لا يشوبها أدب، وهى أُم الضرر والآلام.

لأنه الأفضل أن نجاهد وألا نتخلى عن الأصاغر أوفق من أن نعطي للخطية فسحة بالراحة منها لأن هذه الحرية ليست في وقتها، أخرتها تعب أصعب.

بمقدار ما تكون حواسك حية عند مباشرة العوارض على ذلك الحد أحسب نفـسك مائتاً من الله لأن لهيب الخطية ما تخاف عنك في كل الغيارات بكل أعضاءك ولأنك لست بقادر على اقتناء سلام لنفسك.

من قال مِن الرهبان أنه مع هذه الأمور يحترس في قلبه فإنه ليس يريد أن يـتعلم متى يتدرب ومن خدع غيره فإنه مستوجب لعنة الناموس، وأما من يغالط ذاته فبأي انتقام يحظى لأنه تجاهل عن عِلم أي أنه يعرف وجعل نفسه لا يعرف، والدليل على أنه يعرف التوبيخ الذي يحسه من ضميره وظهور ذلك عنده مستقلاً لأنه يعرف ما يتجاهله.

إن أسباب الألم لعذبة وحلوة والدليل على ذلك أن الآلام قد يـتمكن الإنـسان مـن قطعها وفي دفعها وكفها يسكن وفي تبطيلها يفرح ويبتهج أما أسبابها فلا يقدر على تركها ولذلك نُجرب كارهين بغير إرادتنا إذ نود أن نُثِبت عللها فينا.

أما الذنوب فلا تؤثر وأما السبب الذي يجلبها فنقبله بلذة ولـذلك تـصير الثـواني علل لفعل الأوائل.

المحب لعلل الآلام هو متعبد لها قسراً بغير إرادته ومتعبد للآلام كُرهاً والمـبغِض لِما يختص بالآلام والخطايا هو سيكِف عنها والمعترف بها سيحظى بـالعفو والغفـران، ولا يمكن للإنسان أن يترك الخطايا التي اعتادها إن لم يبغضها ويعاديها ولا ينال صـفحاً إن لم يعترف بالجرائم، لأن المعاداة عِلة الاتضاع الحقيقي وأما الإقرار فعلـة الخـشوع التابع للقلب من الخزي.

إن لم نبغض ونمقت ما يستوجب الذم من الأمور، فلا تكون لنا قدرة على الإحساس بنتن فعلها ولا بغلبتها ما دمنا حامليها في نفوسنا، لست تعرف الخزي والخجل الشامل لك دون أن ترمي عنك السماجة.

إذا شاهدت وسخك في آخرين حينئذ تعرف الخزي الشامل لك.

ابتعد عن الشر وحينئذ تعرف نتنه لأنك إن لم تهجره فلست بعارف هذا منه. بـل أنك لتضم إليك نتنه كأنه عرف زكي تشغف به، وعري فضيحتك كأنه رداء مجد.

لسعيد المبتعد عن الآلام والمتأمل والناظر نفسه لأن النظر والإفراز لا يفعلان في المتصرفين فيها.

لمغبوط المتخاف عن ثقل سكره والمعاين في آخرين جهل وزال سكره لأنه للحين يفُق ويعرف كيف ذلك ويفهم خزيه المختص بنفسه.

ما دام الإنسان متوافر على السكر من الخطية فإن كل ما يفعله جميل عنـده، لأن الطبيعة إذا ما خرجت عن نظامها المختص بها فهي بالسواء إن كانت سكرانة بالخمر أو بالشهوات والأوطار، لأن الأمرين كليهما يبعدان من الواجب ويحركان على الجسم الـذي هما فيه لهيباً بمزاج قابليها.

أما الأنواع فمفروزة، أعني الخمر من الشهوات، وأما المـزاج فواحـد والتجـنن فواحد، وأما فصول الأسباب فغير متساوية وتُفرز حسب قبول كل واحد.

كل راحة يتبعها شقاء، وكل مشقة من أجل الله تقفوا بها راحة.

كل ما في هذا العالم متغير هو، والمتغير يقبل ما يـضاده إمـا الآن وإمـا فـي المستقبل وإما في وقت الخروج، ولا سيما لذة الفِسق فأنها تُفسد بالشقاء المضاد لها الـذي يحدث تطهيراً وتقديساً.

إن كان الله تعالى يسوس هذا الأمر جوداً منه ومحبة للبشر وهو أن يذاق العقاب، إما في الطريق وإما في آخرها على سبيل الجزاء ويجوز وهذا من توفر رحمته ويكـون ذلك كالعربون لأن فائدة الخير لا تتخلف حتى إلى الساعة الأخيرة، أما الشرور فلا كمـا كتب أن الذي لا يتأدب هاهنا يتغذى من جحيمه.

احذر يا أخي من الحرية التي قبل التعبد، وتحفظ أيضاً من العزاء الذي قبل مباشرة القتال. واحذر أيضاً من المعرفة المتقدمة التي من قبل ملاقاة التجارب وبالأكثر من الحب الذي قبل كمال التوبة.

إن كنا كلنا خطاة فليس واحد أعلى مـن التجـارب ولا واحـدة مـن الفـضائل تقدم التوبة.

تذكر أن كل لذة تقفوا بها كراهة ومرارة، تحفظ من الفرح الـذي لا يقتـرن بـه سبب التغيير.

كل شيء يحدث من السياسة من العلو عسر على المعرفة وجود عِلة غياره، خَـفْ من المظنون به أنه حامل مساواة الأمور الذي تظن به تثقيفاً لأن من كانت هذه صفته فأنه يسير خارجاً عن الطريق المألوفة المسلوكة، والمدبر سفينة العالم بحكمته قد أناط كل مـا فيه يتغير ويحول والمفترز عن هذا هو تشبه.

إنه ليتبع راحة الأعضاء طياشة الأفكار واختلاطها ويتبع العمل الذي بـلا قيـاس ضجر ويتبع الضجر طياشة وحيرة وقد تنفصل الطياشة عن الحيرة.

وأما الأولى فيقفو بها قتال الزنا، وأما الثانية أعني الحيرة فيتبعهـا التخلـف مـن المكان المرسوم بالهدوء والتنقل من موضع إلى موضع العمل الدائم المعتدل فلا ثمن له، والنقص عن هذا يجلب الشهوة، وأما الزيادة والإفراط فيجلب الحيرة.

أيها الأخ اصبر على جهل الطبيعة القاهر فيك إياك لأنك تهيأت أن تكون في تلـك الحكمة التي لم يزل تاج رأسها.

لا تجبن من اضطراب ذلك الجسم الآدمي المستعد أن يكون في ذلك النعيم الـذي العلم به هاهنا خارج عن عقل ذو الأجسام.

إذا ما ثبتت الصورة السمائية التي هى مِلك السلامة، فلا تقلق مـن تـضاد تغيـر اضطراب الطبيعة لأن الشقاء هاهنا زمان قليل لمن يقبله بلذة، لأنها مثل الكلاب التي ألفت جهات القصابين التي بصوت الفم فقط تهرب، أما إذا تهاونت وتفاوضت معها فإنك تجدها كالأسود الضارية.

ازدري بقذارة لذة الشهوة اليسيرة التي تتفكر في شدة ناريتها، لأن الصبر القليل من أجل الأمور الصغار يزيل ضرر أمور كبار، لأنها تمنع مخاطرة مجيء الأمور العظـام، لأنه ممتنع أن تستولي على الشرور العظيمة وأنت لم تغلب النذرة الحقيرة.

تذكر أيها الأخ منزلتك وذلك الشكل الذي أنت عتيد أن تكون فيه الذي حياته ليست بتوسط الكيموس والأخلاط التي بها تضمحل الميتوتة وليس يوجد فيها حرارة المزاج الذي بمالق لذاته يضني ويشقي الطبيعة الطفلية.

احتمل تعب الجهاد الذي إنما ولجت إليه لتتحنك وتختبر وتأخذ منه إكليلاً وتجـوز وبعد قليل تنزح من هذا العالم وتستريح تذكر تلك الراحة التي لا نهاية لها وتلـك الحيـاة التي لا يشوبها خداع وتلك القامة التامة والنظام الكامل والتدبير الذي يحول وذلك الـسبي الباعث على محبة الله والمستولي على الطبيعة، ولا يمكن أن تغلب الأفكار الردية التـي تتحرك بالتنازك في الجسم أو تقهر السلاح المتضاعف الموضـوع تجاهنـا ولا سـكون هذه الأفكار مع الشبع من الخبز. والماء والنوم، والدنو مـن قـرب الأمـور المحركـة للحواس.

الخليق بنا الموت من هذه الحياة ولا العيش بالخزي إذا رأينا أنها توجـب تبطيـل الانفعال من الأعضاء الجسدانية.

لا يمكننا أن نهتم بالأشياء المحسوسة ونقدر بعد ذلك أن نبطل الآلام ونُقوم أنفسنا.

من دون الصلاة الدائمة والتضرع وجثو الركب دائماً لا يمكننا أن تأتينا الرحمـة وكيف يمكن اقتناء هؤلاء إذا اعتنينا بأولئك، أعني الأشياء المحسوسة من دون الاهتمـام بالأشياء الصغار لا يمكننا أن نفلت من الأمور الكبار.

يارب: أعن النفوس التي صلبت ذاتها لك وتركت الكل من أجلك.

أعنا: يارب في الوقت الذي يكون فيه الجهاد حتى الدم وأسقط العالم من قلوبنا.

أنر: يارب النفوس التي هربت من ظُلمة هذا العالم طالبة النور الذي من عندك.

حكمنا: يارب في كل حين حتى نصل إلى عندك لئلا نسقط قبل أن نبلغ بالضربات التي من اليمين والتي من اليسار.

لأنك لا تُخزي طالبيك بشفاعة ستنا أُم النور وأب هذه البرية وكل الـسكان فيهـا والذين سكنوا في خوفك .. آمين.

الباب السادس عشر

في حفظ القلب والتصور اللطيف

لا تَفت معرفتك القوة الموضوعة في إنعام الروح إذا استعملتها بـإفراز ومعرفـة لأنها تسبي الفكر من العالم وتبعد الطياشة في العقل وإن كان المظنون بهـا أنهـا تليـق بالأطفال ـ البسطاء ـ ينتفع العقل المشتت بها في تلك الساعة لأن حركات الروح أقوى من اضطرار المعرفة قبالة الآلام.

إذا كنت في قلايتك وحدك فهذ في الاطروباريات وفـي ذكـر المـوت ورجـاء المستقبلات لأنه بهذه ينحفظ قلبك. إن كنت بعد ما اقتنيت قوة التصور الذي هو مفاوضـة المعرفة والإفراز لحفظ ذاتك، وبمداومة ذكر الموت تأمل الأشياء المرجوة مـع مداومـة الوجبات التي تصنع الحلاوة التي هى الابتعاد عن الأمور المحركة للآلام وما تأتيه مـن التحفظ القليل في قلايتك.

إن وجدت مع هذا أنه بعد كثرة التعبد قد تقدم في الحرية فاسمح له، وإن كـان لا، فاربطه بالسنن لأنه يتقوم بها ههنا بسهولة.

وإذا فزت بهذه السهولة بتلك الغيارات بالأفهام السائرة بسفينة القلايـة الموسـوقه ذخائر وكنوزاً وموسوقة وسفاً عظيماً ومملوءة من كل ربح للنُشطاء، عند ذلـك تفـرس بحذاقة بالأولاد غير المتشبهين الذين يولدون لك من الغيارات المحسوسة.

وكيف أن كل حلاوة روحانية تتقدمها ضوائق وصلب وأن كل لذة مخطئة يكـون تولدها في الجسم من الراحة والنياح.

لأن في ميناء الطهارة ثاؤرية الروح تشفي العقل وهذه يكون اقتناؤها بالحب الإلهي الروحاني ولا يمكن وجود الثانية من دون الأولى، ولا الفضيلة الثالثـة مـن دون التـي تحصل قبلها.

طهارة ثاؤرية حب الإلهي:

لأنك تجد أجنحة العقل تنمو في بطن الطهارة وهى التي بها يرتفـع إلـى الحـب الإلهي الذي بواسطته يهدس العقل أن يتجاسر من الدنو من السحابة، وفهم هذه الأشـياء يمنح الإنسان قوة جسمية وأن يستعمل الحفظ والاحتراس في جميع أموره.

التدبير الذي بلا بصيرة يبطُل، لأنه بسهولة يجلب الضجر لأجل الطياشة، تـضرع إلى سيدنا أن تحظى في كل سيرتك ببصيرة، لأن الفرح من هاهنا يبتدئ أن ينبع، حينئـذ تجلو لك الأحزان أحلى من العسل، ويحلو لك حبس القلاية كحجلة العريس.

ليس أحد يقدر أن يقهر الآلام إلا بفضائل محسوسة، أما طياشة العقل فلـيس أحـد يستولي عليها إلا بملازمة ومذاقة مفاوضة المعرفة الروحانية، لأن عقلنا شيء خفيف هو إن لم يرتبط بفكر ما، فلن يكِف عن التصاعد والطياشة.

وخلواً من كمال الفضائل المتقدم ذكرها لا يمكن اقتناء هذا الاحتراس، لأنه إن لـم يقهر الإنسان الأعداء لا يمكن أن يكون في سلامة، وإن لم تملك السلامة فكيـف يمكـن وجود ما هو موجود داخلها؟

لأن الآلام كالسياج حول فضائل النفس الخفية، فإن لم تسقط أولاً بتوسط الفـضائل الظاهرة لن ترى التي هى داخلها، فليس أحد يكون داخل حجرة ويقـدر أن يتـصرف أو يتكلم مع الذين في الخارج، ولا أن ينظر نور الشمس ولا الضباب منبـسط، ولا فـضيلة النفس واضطراب الآلام مقيم بعد.

تضرع إلى الله عز وجل أن يجود عليك بإحساس غرض الروح واشتياقه لأنهما متى وفدا إلى نفسك، حينئذ يبتعد منك العالم وأنت تتخلف منه، هذين اللذين من دون النسك والسكون ومفاوضة القراءة المقصورة على هذه الأمور لا يمكن الإحساس بهما.

وخلواً من هؤلاء لا تطلب أولئك لأنك إن لم تطلبهم من دون هؤلاء تعود بعد قليل وتصير جسدانيه، فالذي يستطيع أن يفهم فليفهم.

لأن الله تعالى رأى أن بحكمة أن يكون هذا الخبز بعرق، ولم يكن يصنع ذلك على سبيل الشر، بل حذراً لئلا تحصل لنا تخمة ويعودنا ذلك إلى الضرر فنموت.

كل واحدة من الفضائل هى أم الثانية، فإن أنت تركت الأم الوالدة للتي بعدها من الفضائل ومضيت تلتمس الأولاد دون تحصيلها، ليكونن أولئك للنفس أفاعي إن لم ترميهن عنك عاجلاً وسريعاً.

الباب السابع عشر

في محبة الله تعالى

لأجل إننا تكلمنا عن الإحساس بالروح وعن حركاته، ينبغي أن نوضح هاهنا مـا هو، لأنه قوي متوارٍ خفي يزهر في القلب من المحبة أولاً بغير أسباب أو فهم ينفعل بـه أو فكر لأنه حسس ما يتحرك المزاج من غير نظر أقنومي أو فهم يعقل يفهم أو فكر مـا ولأجل هذا يظَن به أنه من غير سبب، ولأجل أن غمامة العقل الآن وهذا يحـصل لغيـر المتخرجين هكذا، وأما التامين يظهر لهم بعد ذلك السبب مع دلائـل المـسبب واضـحاً قوياً.

لأن حلاوة ما تسري في القلب وجزء منها ينطلق في الجسم القابل ومنه ما يرسل إلى القوات النفسانية، لأن القلب موضوع في الوسط ما بين الحواس النفسانية والجسم، أما لأولئك فكالآلة، وأما لهذا فطبيعياً وهو قابل الأمر من الناحيتين ويحرك فيهما مذاقة فعله، ومن أجل هذا يغصبه أن يبتعد من العالم ويتخاف من أمور العالم.

وينبغي لنا أن نفحص عن السبب لأن محبة الله سبحانه هى حارة بالطبع، ومتى ما ألمت بإنسان إلماماً مفرطاً أذهلته بإحساس بها ولهذا ما يقدر القلب بإحـساسه أن يـسعها ويثبت وبحسبما يفد إليه من مقدار كيفية المحبة يشاهد فيها غياراً لم يكن فيه.

وهذه هى علامتها المحسوسة، أعني أن يكون وجهه أحمر بهـج وجـسمه حـاراً ويزول منه الوجل والحياء، ويصير كالذاهل وقوة رزانة العقـل تهـرب منـه فيـصير كالطائش ويعتقد أن حياته لا شيء مقابل محبته، ولهذا فالموت الرهيب على الكل يكون له

مسرة ولا تنقطع نظرة عقله من تأمل السماويات ويفاوضه غائباً مع ذاته كأنـه حاضـر والنظر مكتوم في خفيته، ويزول علمه ونظره الطبيعي ويخبط حسس أفعاله كأنه ملتهـب بنظرة واحدة فيكون فكره يتحدث دائماً كما مع آخر ويذهل.

بهذا الانفعال سكر الرسل والشهداء.

أما الرسل فطافوا كل العالم، وشِقُوا وعيروا، وكذلك الشهداء معهم نالوا الهـزء، والقديسون تاهوا في القفار من غير نظام مع كونهم حكماء وذوي ترتيـب سـديد ظنـوا جهالاً، وحقروا ذواتهم بإفراز لدى الشعب، أولئك غير المتألمين مع مطالب الجسد قد هدأ وسكن بغير اغتصاب.

ونحن نبادر ونسأل الله أن يؤهلنا لهذا الجزاء أعني التضاعف والكثرة بمراحمـه الواسعة، هذا الذي جسده من طبيعتنا وبواسطته جاد علينا بهذا كله المجرب في كل شيء مثلنا ما خلا الخطية من أجل اتحاده بالجسد الطبيعي معنا، وإلى الأبد من غيـر اخـتلاط اتحاداً طبيعياً، ابن واحد وأقنوم واحد، الجالس عن اليمين الذي له وعلى يديه نسجد ونمجد الآن وفي الحياة المزمعة التي لا انقضاء لها وإلى الأبد الآبدين. آمين.

يارب: لا تخيبني من محبتك وأحببني يارب ولو أني يارب لستُ أهلاً لحبك.

تغاضى عن ذنوب نفسي ومعاصي صباي وأغفرها واجعلني أهلاً لبرك كما للعشار ولا تتركني فارغاً من موهبتك أنت يا من نفسي قصدتَك وتوكلت عليك ..

آمين.

الباب الثامن عشر

في أنواع الفضائل .. وغير ذلك

النسك أم القدس الذي منه تتولد مذاقة إحساس أسرار الله الأولى التـي يـسمونها النظام الأول من معرفة الروح.

لا يخدعن أحد ذاته ويتصور تخايل كاذبة لأن النفس المدنسة لا ترقى إلى الملكوت الطاهرة، إن كنت أعني عن المثلية أو عن الحقيقة ولا تجتمع بأرواح القديسين.

بل إذا ما انحلت العناصر واختلطت بما يناسبها باقتران الاتحاد الطبيعـي تحفـظ الشقية إلى دينونة مزمعة عظيمة.

اصغ يا أخي جمال عفتك بالدموع والأصوام والسكون منفرداً مع نفـسك إذا مـا انتهى سير سفينة حياتك هذا الطبيعي المستقيم وبلغت إلى النور الأعظم الذي يغذي كواكباً كثيرة ذات أقانيم مفترزة، حسبما قال بولس الرسول في دلائل القيامة المزمعة، واختلطت شعاعاته، لست أعني بالطبيعة الجسدية، وعند ذلك تربط السفينة ـ سفينة حياتك ـ برباط عدم المعرفة، والينبوعان (العينان) الكثيرا الدموع يسيلان من بحر مجراهما، عند ذلك تخرج الكهنة من المقدس من قدام سحابة هيبة الرب، وفي الوقت الذي يكون فيه سـليمان ملكاً على إسرائيل عندما يولد السلام من التواضع وهو الذي يبني بيت الرب ويزينه بكل أواني القدس.

ضيقة يسيرة من أجل الله عز وجل أفضل عنده من العمل الجسيم المصنوع مـن غير انضغاط.

من قبل أن تدخل مدينة الاتضاع إذا ما رأيت ذاتك مستريحاً من ضغط الآلام فـلا تثق بالعدو لأنه قد كمن لك، بل توقع بعد هذه الراحة اضطراباً كثيراً.

إذا ما وفدت إلى الجواز على منازل الفضائل فلن تـصادف راحـة مـن تعبـك ولا انعتاقاً من حيل أعداءك إلى أن تصل إلى منزل الاتضاع.

إن الحزن الاختياري يوضح خالص إيمان المحبة فأما العمل بالراحة فإنه يكون من اكتفاء الضمير وشبع النية لذلك جرب القديسون من أجل محبـة الاـه تعـالى بـأحزان لا براحة، لأن العمل الحادث بمعزل عن التعب والنصب إنما بر أهل العالم الذين يرحمون بما لهم.

ويتبررون بالأشياء الخارجة عنهم وليس يتفاضلون بذواتهم، وأما أنت أيها المجاهد رغبةً في مماثلة آلام مخلصنا سبحانه، فجاهد في ذاتك وذق آلامه لكي تـستحق لمذاقـة مجده، إن كنا نتألم معه وأيضاً نتمجد معه. إذا ما ساهمناه في آلامه فمن البين الظاهر أن العقل لا يتمجد مع يسوع. إذا لم يتألم الجسد مع يسوع فأما المتهاون بالشرف الإنساني هو المؤهل لمجد الله جل اسمه.

وليتمجد جسده مع نفسه .. مجد الجسد هو أن ينطاع للعفة مع الله تعالى، أما مجد العقل هو التصور الحقيقي لله سبحانه.

والطاعة الحقيقية على ضربين: بأعمال وإهانات لأنه إذا تألم الجسد يشاركه أيضاً القلب في الآلام.

إن كنت لا تعرف الله تبارك وتعالى فليس يمكن أن تتحرك فيك محبته ولا يمكـن أن تحبه تعالى دون أن تراه وتنظره إنما يتوجه من العلم به سبحانه لأن التـصور لـه لا يتقدم العلم به له المجد.

صلاة: أهلني يارب أن أعرفك وأحبك لا بالمعرفة الموجودة مـن تـشتت العقـل الحادثة من الرياضة التي بالتعليم تكون، بل أهلني لذلك العلم الذي به يتـصورك العقـل فيمجد طبيعتك وبه يزول من الفكر الإحساس بالعالم.

أهلني أن أرتفع من منظر الإرادة المولدة التخايل وأن أنير بك في اضطرار رباط الصليب بالجزء الثاني من انصلاب العقل الذي بجزء حريته تبطل من الحركات بـالنظر الدائم واتصال تصورك.

ضع في محبتك لكي آتي وراءك من هذا العالم، حرك في فهم تأمل اتضاعك الذي مارسته في هذا العالم بالحجاب الذي احتجبت به في جسمنا لكي أقبـل بحـلاوة اتـضاع طبيعتنا بهذا التذكار الذي لا يشوبه نسيان.

الصعود على الصليب: على ضربين:

الأول: انصلاب الجسد. **الثاني:** ارتقاء العقل للثاؤريا.

أما الأول فيكون من حريتك وأما الثاني فمن الأعمال، منْ لم يخضع له جسده فـلا عقله يخضع له، ملك العقل انصلاب الجسد، لا يخضع لله تعالى إن لم تخـضع الحريـة الذاتية للجزء الناطق.

لصعب هو تعويض أمور مرتفعة لمن هو في سن مبتدئ وفي القامة طفل، الويـل لكِ أيتها المدينة التي ملكك شاب.

منْ أخضع ذاته ووضعها فقريب هو أن تتواضع له كل الأمور، من عـرف ذاتـه يعطى معرفة كل الأشياء، وبخضوع ذاتك تخضع لك كل الأمور، لأن معرفتك لذاتك هى كمال معرفة كل الأشياء.

في الوقت الذي يملك فيه الاتضاع على تدبير سيرتك تخضع لك ذاتـك ويخـضع معها كل الأمور، لأن السلامة تتولد في قلبك من الله تعالى.

ومتى كنت يا هذا خارجاً عنها فلست بمشرف على الانضغاط من الآلام فقط، بـل ومن العوارض تضطهد متواتراً.

حقاً يارب إن لم نتضع فلست تكف عن تذليلنا وتوضيعنا.

الاتضاع الحقيقي يتولد من المعرفة، والمعرفة الحقيقية تتولد من التجارب.

الباب التاسع عشر

عن الصوم الدائم والدوام في موضع واحد

إني تجربت أياماً كثيرة في الميمنة والميسرة وتحنكت في هذين الضربين بغيارات شتى ..

وقد قبلت من جهة المعاند ضربات غير محصاة عدة مرات، وأُهلت لمعونة عظيمة بالخفى، واقتنيت في ذاتي مدة سنين تجربة وفهمت هذه الأمور بالاختبار وهى:

إن أس كل الخيرات وانتشال النفس من أسر الأعداء، والطريق المؤدي إلى النـور والحياة تتوجه من أمرين:

- أن يلزم الإنسان موضعاً واحداً.
- وأن يصوم دائماً.

أعني أن يقتني في نفسه بإمساك البطن إمساكاً ذا حكمة، وعفة في جلـوس غيـر متزعزع لا يحول عنه دائماً، وأن يهذ دائماً بهذيذ الله.

من هذا الموضع يكون قمع الحواس وخضوعها، من هذا المكان يتوجد تيقظ العقل، من هاهنا تهدأ الشهوات الحيوانية الوحشية المتحركة في الجسم، وتحـدث وداعـة فـي الأفكار وحركات الفكر النيرة.

والاجتهاد في عمل الفضيلة، والأفهام العالية اللطيفة والدموع المتصلة فـي كـل وقت، والعفة النقية التي تُبعد من العقل كل تخايل الأشكال والنظر الحاد ـ بعد النظـر ـ لِما بعد الموجودات.

وتمييز عمق يغوص ويدرك قوة الأسرار التي في الإلهية.

والحركات الخَفية التي في النفس داخلاً وتمييـز الأرواح وأنواعهـا، والمنـاظر الحقيقية من التخايل الباطلة.

من هاهنا ينجم خوف السبل والطرق الموجودة في بحر الفكر القاطع التواني والتمريض ولهيب الغيرة الوطئ كل هول وخطر، ويجسر على كل مخوف وحـرارة تـرذل كـل الشهوات والمزيلة إياها من الفكر والجالبة نسيان كل ذكر يختص بالعابرات مع ما سواها.

أنا أوجز فأقول إنه من هذا الموضع المقدم ذكره يحدث حرية الإنـسان الحقيقـي وفرح النفس والقيامة مع المسيح تعالى في ملكوتـه، ومـن يتهـاون بهـذين الـصنفين الموصوفين فليعلم أنه خسر ذاته وخيبها ليس من كل ما تقدم ذكره فقط، بل وقد زعـزع أسس الفضيلة كلها باستحقاره وازدراءه بهاتين الفضيلتين.

وكما أن هذين الأمرين هما في النفس ورأس كل عمل إلهي وباب وطريق إلى المسيح تعالى إن تَمسك المرء بهما ولازمهما هكذا إن انفصل عنهما وتباعد منهما، لاقى ما يقابلهما، أعني التوسع الجسماني الذي هو طياشة الجسد ونهم البطن على السبيل السمجة.

هذان الأمران مبدأهما يضادد ما تقدم ذكره ويصلِحان للآلام مكاناً في النفس.

أما المبدأ الواحد وهو الأول فإنه أولاً يفُك لجم الحواس ويطلقهما من رباط بعد أن كانت خاضعة منقبضة.

وإن سألت وقلت ماذا يحدث الآن من هذا الأمر؟

أجبتك إن مِن هاهنا تأتي أمور شنيعة لم تخطر على بال، وتقرب أمكنـة الزلـل والسقوط ومصادمة ملاقاة سمجة ويتوجد اضطراب أمواج قوية ولهيب العيون الكائن على النظر المستولي على الجسم والجامع في القلب زلات سهلة بالفكر، وأفكاراً غيـر ممكـن ضبطها تُسرعه نحو السقوط، وفتور الاشتياق إلى أعمال الله عز وجل.

والاسترخاء قليلاً قليلاً عن إفراز السكون وعن استيفاء القانون بالكمـال، وتجديـد الشرور القديمة التي قد نُسِيتْ وتعلم أشياء أُخر لم يعرفها ذلك الإنـسان مـن أصـناف المناظر والسماعات التي تلم به دائماً من غير إرادته لأجل انتقاله من موضع إلى موضع،

ومن مكان إلى مكان، والآلام التي كانت قد ماتت من النفس بتفضل الله تعـالى ونُـسِيت وزال ذكرها من الفكر تبتدئ بالتحرك والنهوض، وتضطر النفس إلى فعلها، ولخوفي من الإسهاب أمسك عن إيراد كل ما تبقى.

وأقول إن هذه الأحوال تنفتح عليه من العِلة الأولى، أعني من التوسع الجـسماني أي: الطياشة وترك تعب الهدوء ملازمه، فأما ما يحدث من العِلة الأخرى أي مـن فعـل الخنازير فسأذكره ..

يا ليت شعري ما هو فعل الخنازير إلا السلوك بالبطن سلوكاً لا حد له وملؤها من غير أن يكون لها حد، ولا وقتاً بيناً برسم قوت الجسد كما الناطقين ..

ونعود إلى ما كُنا فيه فنقول أنه يحدث من العِلة الثانية ثقل الرأس والتعب الكثير مع استرخاء المنكبين، لذلك يضطر الإنسان إلى التخلف عن خدمة الله تعـالى، وذلـك أنـه يحدث له الكسل في السجود إلى الركب وظلمة وبرودة وتكدر في الفكر وغلظ في العقـل وعدم إفراز من انزعاج الأفكار وظلمتها، وقِتام مكثف حالك مفروش على كـل الـنفس، وضجر في كل عمل لله تعالى.

ويتعطل كثيراً من القراءة فيما يلزم لأجل أنه ما يذوق حلاوة إفهام الكلام، وبطالة كثيرة من غير ضرورة، وعقل غير مضبوط مشتت بالطياشة في كل الأرض.

ويجتمع كيموس كثير في الأعضاء، ويحدث في الليل تخايل نجس بتوسط صـور دنسة قبيحة مملوء من الشهوة التي في النفس المتممة ما يخصها فيه إتماماً نجساً. وأمـا فراش الشقي ولباسه وجسده كله فدنس لأجل كثرة ذلك السيلان الفائض منه كمـن مـن عين.

وليس في الليل فقط يعرض له ذلك، بل وفي النهار، لأن الجسد دائماً يسيل ويدنس الفكر حتى إنه بتوسط هذه الأمور ينكر العفة لأن لذة الدغدغة تعمل في كل الجسم بلهيب لا يكِف ولا يحتمل.

ويحدث له هواجس أفكار مدغدغة تصور الجمال قدامه وتحرض العقل وتدغدغـه بمفاوضتها وشهوتها في كل الأوقات، ويتنازل العقل معها ويوافق باشتياق وهذيذ من أجل قوة عمى إفرازه، وهذا هو الذي ذكره النبي قائلاً: **" هذا كان إثمَ أختك سَدوم: الكبرياءُ والشبَعُ منَ الخبز وسلامُ الاطْمئنان "** (حز ١٦ : ٤٩).

وقد ذكر هذا بعض الحكماء الأجلاء إذ يقول: من غذى جسده ونعمه ليلقين بنفـسه في حرب عظيمة، وإن هو رجع إلى ذاته وطلب إمساك نفسه بالغصب والقهر فلن يقـدر لأجل فرط لهيب حركاته الجسدية ومن جرى اضطرار الدغدغة التي أسرت النفس بقوة.

أشاهدت يا أخي قساوة العدو ومداهنته؟!

وهو أيضاً يقول: نعيم الجسم في الترفه والرفاهية ونُعومتُه تُوجِـب حـدوث الآلام بقوة وتحيط بالنفس الموت وتباشر قضاء الله تعالى.

أما النفس التي تهذ دائماً في الأمور النافعة فإنها تستريح بحريتها وثقل اهتماماتها، وما تندم على شيء وتراعي أمر الفضيلة أشد مراعاة، لأن الاعتناء بالفضيلة يقهر الآلام وتتزايد تربية ونشوء بغير شك، وسرور لا يشوبه هم.

وتحظى بحياة صالحة وميناء لا خطر فيه. فأما المتع الجسمانية فليس إنها تقـوي الآلام فحسب بل وتؤكدها وتغصبها على النفس كمثل أنها تجعل لها عروقاً، ومـع هـذه الأمور فأنها تشعل البطن وتؤول بها إلى فساد المزاج والنظام. وتخرج به إلى حد الجهل وتضطره إلى حد تناول ما لا يحتاج الجسم في غير الوقت، ولا يقدر الإنسان على الجوع قليلاً، بل يستولي على نفسه التي أسرتها وسبتْها منه اضطراراً آلام شهوة البطن والعوائد الذميمة.

هذه هى أثمار الخزي الذميمة الناجمة من نهم الجوف وأما التي قبلها أثمار عـدم الصبر في موضع واحد والتصرف بالسكون، وذلك أن العدو اللازق بنا في كـل وقـت يعرف هذه الأزمان، لأن بهذين الأمرين بالأكثر يتكدر الطبع ويتحرك فيه الألم ويتخـبط العقل، أعني من نظر العيون وراحة البطن.

وهو أيضاً يحرص أن يزيد على ما في الطبيعة، ويزرع فينا في هـذين الـوقتين أشكال أفكار بأنواع كثيرة حتى أن أمكن تستولي الآلام على الطبيعـة لفـرط المـشابكة وتغرق الإنسان في السقوط.

فالخليق بنا أيها الإخوة، كما أن العدو يعرف الأوقات، فيجب علينا أن نعرف نحن أيضاً ضعفنا وقوة الطبيعة، وأنها ليست كفؤاً لتلك النهضات والحركات في تلك الأوقـات نحو لطافة الأفكار التي كالهباء التي تؤذي أعيننا، وأننا ما نقدر أن ننظر ذواتنا ونثبت قدام العوارض، ونلقيها عنا لأجل كثرة الامتحانات التي قد جربنا بها العدو دفعات كثيرة.

فينبغي أن نتحكم ولا نرخي أنفسنا في الانحلال أن نـصنع إرادة راحتنـا وأن لا ننقهر للجوع.

بل إن كابدنا كثيراً وتضايقنا منه، فبالأولى بنا جداً أن لا نتزعزع من مكان سكوتنا وننزل حيث تتوجه لنا هذه العوارض بسهولة، ولا نصلح لنا أسباباً وحججاً أن نخرج من البرية، لأن هذه هى مكامن المحال الظاهرة.

فإنك يا أخي إن صبرت في برية السكوت فلن تتجرب لأنك لست ترى فيها نـساء ولا شيئاً يؤذي سيرتك ولا تسمع أصواتاً غير لائقة.

مالك وطريق مصر لكي تشرب ماء من جيحون ..

افهم الشيء الذي أقوله لك .. اظهر للعدو صبرك في الصغار جداً، لتقهر المعانـد بتوسطها، فلا يتفرغ لكي ينصب لك فِخاخاً كبار، لأن من لم يطع العدو ولا يخـرج مـن مكان سكوته وهدوءه ولا خمس خطوات .. كيف يستجيب للعدو ويخرج من قلايتـه، أو يدنو من قرية.

ومن لا يتسامح أن يتطلع من طاقة من قلايته .. كيف يطيع أن يخرج منها .. ومن بالكاد يستجيز أن يتناول الغذاء القليل وقت العشاء، لأنه يريد أن يطـوي يـومين كيـف ينخدع من أفكاره أن يأكل قبل الوقت .. ومن يستحي أن يمتلئ مـن الأشـياء الحقيـرة الضعيفة كيف ينْصب إلى الأمور الجسيمة؟

ومن لا يتسامح أن ينظر إلى جسمه الخاص به .. كيف ينشط أن يتفرس في جمال غريب!

فقد ظهر إذاً أن الإنسان إذا تهاون بالصغار وانقهر لها، فإنه يوجد للعـدو سـبيلاً لمحاربته بالكبار وإلا فمن لا يلتفت إلى الحياة الوقتية ولا يعتني بالمكوث فيها كيف يفزع من الضوائق والأحزان القائدة إلى الموت النافع.

هذه هى حرب الإفراز، أي حرب الحكماء وفيها الحكماء المفرزون ما يتشامخون في أن يدعوهم العدو إلى مجاهدات جسيمة، بل صبرهم الظاهر في الصغار هو الحـافظ لهم وإياهم من مباشرة الأتعاب الكبار.

- لأن المحال، أولاً يجاهد ليبطل صلاة القلب الدائمة.
- وبعد ذلك يقنع الإنسان أن يتهاون بالقانون اليومي.
- وبعد ذلك يسترخي أولاً في الصغار والنذره الحقيرة، فيتناول طعامه قبل الوقت.
- وبعد الهبوط من النسك يسقط في الشره والجهل والتهور.

أما أولاً فأنه ينقهر، لا بل يعتقد أنه ليس نقصاً أن ينظر بعينيه إلى جسمه العاري، وإلى جمال أعضاءه إذا ما خلع سرابيله، أو خرج في حاجة تختص بجسمه أو إلتماس ما وتسترخي حواسه. أو يدخل يده بوقاحة داخل ثيابه، وحينئذ ترد إليه أمور أخـر وأخـر، والذي كان يرصد أولاً تصون العقل، ويحزن لأجل واحدة من هذه الأمور، لأنـه إذا مـا نقض أولاً احتراس حواسه الأول وتهاون بشيء من هؤلاء الصغار، حينئذ ينفـتح عليـه مداخل أمور جسيمة صعبة.

أنا أتكلم على سبيل المثل: فأقول أن الأفكار كالماء بمقدار ما ينحفظ مـن سـائر الجهات يكون سيلانه على نظام مستقر، فأما أن خرج قليلاً عن مجراه فإنه يفـتح الـسد، ويحل محكم الجسر، ويجعل المكان خراباً متلوماً. وعلى هذه الصفة هى الأفكار.

لأن العدو خزاه الله يقف تجاه عيوننا ويرقب أي مدخل ينفتح له بشيء من حواسنا ليدخل فيه، فإن وقع الإهمال فما لوجه ما مما تقدم ذكره، حينئذ يطلق علينا هـذا الغـاش الماكر ما يختص به.

وقد تود الطبيعة الجسدية في بعض الأحيان الراحة، لأن طبعنا يحب الراحة والدالة والضحك والمحادثة والفرجة والانشراح .. والتضجيع، فيحدث ينبوع من الآلام وبحر الخباط.

وفي بعض الأحيان يثير المعاند هذه الأمور، لكن ينبغي لنا أن نتعوض ـ نعتاض ـ عن الأتعاب العظيمة والأسباب الخطرة بأتعابنا الحقيرة النذره القليلة التي يظن أنها لا شيء.

لأنه إذا ما كانت هذه الأمور إذا ما تهاوننا بها تعد جهادات عظيمة هذا مقـدارها وأتعاب عسرة التقويم، ومنازعات متواصلة وجراحات عظيمة.

فمن ذا الذي لا يحرص بتوسط الأتعـاب اليـسيرة التـي للمـدخل أن يـصادف الراحة العذبة.

زاه أيتها الحكمة .. فما أكثر عجبك وكيف تنظرين كل شيء من بعـد .. لـسعيد الواجد إياك لأنه قد انعتق من نوم الضلالة. وذلك أن الذي يطيب آلام عظيمـة، ويعـالج أمراضاً جسيمة بيسير من التلطف وصغير من التدبير، فإنه قد أحسن في فعله وأجمل.

يروى عن أحد الفلاسفة أنه أتى حركة خفيفة غير لائقة وأحس بنفسه، فتلافى الأمر سريعاً وثقف ذاته، فرمقه بعض الناس وضحك عليه، فأجابه: لا أخـاف ولا أسـتحي أن أعدل حالي، بل خوفي من التهاون، لأن الإهمال اليسير على أكثر الأمر يـسبب لبلايـا عظيمة، أما عِدولي عما كنت فيه ومبادرتي إلى تقويم ذاتي وإزالة ذلك العيب فقد برهنت على أني متيقظ وغير متهاون بها بما يستحقه الخوف.

وهذه هى الغاية من حد الفلسفة العليا، لأنه حرص ذاته على التيقظ وإيثار الطريق السديد.

هذه هى الفلسفة أعني أن يتيقظ الإنسان في الصغار، ولأنه يؤثر راحات عظيمـة ولا يرقد لئلا يحدث له ضد هذا.

اقطع العلل قبل أن تستفحل، بتوسط أمور نذره يسيرة، واحتمـل الحـزن القليـل وبتوسطه تفلت من الكبير.

فأما الجهال فيفضلون الراحة القريبة الحقيرة على الملكوت الجليلة غير عالمين أن الأفضل هو الصبر على الجراحات في الجهاد من الراحة على مفرش الملـك الأرضـي

تحت مذلة الفشل. لأن الموت مأثور عند الحكماء خوفاً من أنهم يذمون بأنهم فعلـوا مـا فعلوه خِلواً من انتباه وتيقظ، ولذلك يقول الحكيم: " كن يقظاً في حياتك لأن نـوم الفكـر صورة الموت الحقيقي ".

أما الإلهي باسيليوس فيقول: " إن من تكاسل في الصغار لا تثق به على الكبار ".

لا يثقل عليك أن تموت من أجل الأمور التي تحيا من قبلها، ولا تضجر من ذلـك، لأن دليل الضجر صغر النفس وأُم هذين هو التهاون.

إن الإنسان الجبان يدل على أنه قد مرض مرضين: قلة الأمانة، وحب الجسم.

لأن محبة الجسم هى دليل على عدم الأمانة، فأما المتهاون بهذه الأشياء فإنه حقـق أنه يؤمن بالله تعالى من كل نفسه وأنه ينتظر المزمعات.

إن وجدت إنساناً دنا من الله تعالى خِلواً من أهوال وجهادات وتجـارب، فمائِلُـه يا أخي ..

لأن جسارة القلب والتهاون بالأهوال يتولد من أحد أمرين، إما من قساوة القلـب، وإما من كثرة الإيمان بالله تعالى.

أما قساوة القلب فيتبعها الإعجاب، وأما الأمانة فاتضاع القلب. لا يقدر إنـسان أن يقتني رجاء نحو الله تعالى دون أن يكون قد تمم أولاً إرادته سبحانه وتعالى بعض الإتمام.

لأن الرجاء نحو الله تعالى وشجاعة القلب، إنما يكونان من شهادة الضمير وبتوسط شهادة فكرنا الحقيقي نقتني الثقة بالله جل اسمه.

وشهادة الفكر توجد في أن إنسان ما يلومه ضميره أنه قد انضجع أو تهاون فيمـا يجب، وتصل إليه مقدرته إنه إن كان قلبنا لا يلومنا فلنا عند الله دالة.

والدالة تكون من التدابير الحسنة والفضائل والنية الصالحة.

وإن الخدمة لتعبد الجسم جفاء وقساوة.

أما من أحس بالرجاء نحو الله تعالى ولو القليل من الكثير، ما يـستجيز أن يتعبـد لهذا المولى القاسي أعني الجسد.

يارب: بلغني إلى السلامة التي من عندك ككثرة تحنُنك لأني إياك أطلب.

الباب العشرون

في السـكون والهـدوء

إن الصمت دائماً وحفظ السكون يحدثان من هذه الأسباب الثلاث: إما مـن أجـل تشريف الناس، أو من أجل غيرة حارة لعمل الفضيلة، وأما أن ذلك الإنسان فـي داخلـه مفاوضة إلهية ففكره ينجذب نحوها.

من ليس يصدر عنه هذين الأمرين من قِبل أحد الـسببين الآخـرين، فمـن لازم بالضرورة يتراخى للسبب الأول.

الفضيلة ليست أعمالاً كثيرة تنفعل بالجسد ظاهراً، بل هى القلب الحكيم فـي أملـه ورجاءه، لأن يوصله أعماله بالقصد المستقيم، لأن دفعات كثيرة لم يمكن ولا يصعد بيـد إنسان تكميل الأعمال، وأما الفكر فيقدر أن يتفاضل ويعمل الصلاح خِلـواً مـن أعمـال جسدانية، وأما الجسم أن يفعل فعلاً بمعزل عن حكمة القلب فلن يتوجه من ذلـك منفعـة. على أن إنسان الله إذا امتلأ في فعل الخير لم يتصبر دون أن يظهر محبته للـه سـبحانه وتعالى بمشقة الأعمال الظاهرة.

أما الطبقة الأولى فدائماً تنجح، وأما الثانية فوقتاً تنجح ووقتاً لا.

لا تظن يا أخي أن الابتعاد عن عِلل الآلام أمراً قليلاً أو شيئاً يسيراً.

فصل في حركة الجسد:

إن حركة أعضاء الجسم التناسلية الحادثة بمعزل عن الأفكار الحادة، في معنى اللذة السمجة التي تتحرك مع لهيب الشهوة، وتجذب النفس إلى التجنن والشقوة كُرهاً من غيـر الإرادة، بغير شك كونها من امتلاء البطن.

لأن هذا العارض لا يتولد في الجسم خلواً منها ..

وثق بهذا أن الابتعاد من مشاهدة النساء هو سلاح عظيم في هذا الجهاد. لأن المعاند لا يقدر أن يفعل فينا ما تقدر الطبيعة أن تفعله بقوتها.

لا تظن يا أخي أن الطبيعة تنسى ما هو مغروس فيها من الله تعالى إلى الموت زرعاً طبيعياً برسم النسل والامتحان في الجهاد، إلا أن الابتعاد عن الأطعمة يميت الشهوة الموجودة في الأعضاء ويبعث على نسيانها.

إن أفكار الأمور البعيدة التي تجوز في الفكر مجازاً على الإطلاق تحدث حركة باردة ضعيفة من ذاتها شيء هى وشيء آخر هى الأفكار التي من المادة تغرق الفكر بنظر غير منسي، ومن الدنو تحرك الآلام وتثيرها وتغذي الإنسان كما يغذي الزيت لهيب المصباح، وتشعل الألم الذي كان مطفئاً ومائتاً وتثير لجة الجسم بتوسط حركاته المضطربة على سفينة الفكر، وهذه الحركة الطبيعية الساكنة فينا لأجل النسل فقط لا يمكن أن تخبط وتزعج الرأي عن الطهارة، ولا تضغط العفة خلواً من الزيادة التي من خارج.

لأن الله تعالى ما أعطى قوة للطبيعة أن تقهر الإرادة الجيدة المطابقة لرأيه، بل متى إنغلب الإنسان، إما من الغضب أو من الشهوة فليست قوة الطبيعة التي غصبته وبعثته على الخروج من حد الطبيعة وأن يكون بمعزل عما يجب، بل الزيادة التي نصنعها في الطبيعة بتوسط الأسباب ودواعي الإرادة هى التي من شأنها أن تؤذينا.

لأن الله تبارك اسمه كل ما صنعه هو على ما ينبغي وبموجب الطبع، وبمقدار ما ينحفظ فينا نظام نسب الأمور الطبيعية انحفاظاً مستقيماً على ذلك الحد، لا تتمكن الحركات الطبيعية أن تضطرنا أن نحيد على الطريق المشروعة، بل يتحرك الجسم حركات هادئة.

فإذاً قد ينبغي لنا أن نعلم أن فينا العارض الطبيعي لا على أنه يدغـدغ ويـضغط ويمنع السلوك في منهج العفة، ولا على أنه يظلم العقل من جهة الغضب أو أن يحركه في المسالمة والحرد والسخط غير الطبيعي.

فإننا إن أُنقذنا من المحسوسات التي بتوسطها يثور الغضب ثـورة خارجـة عـن الطبيعة، إما في المأكول، أو في المشروب، الزائدين في الكمية، وإما من الاشتعال الـذي يأتي من الدنو من النساء والنظر إليهن، والمحادثة معهن أو في معناهن (الحديث فيمـا يخصهن)، التي منها تضطرم نار الشهوة وتتأجج في الجسم.

فإننا نحول من ههنا الوداعة الطبيعية إلى وحشية، إما لكثرة الكيموس، وإما لأجل مناظر الأمور المختلفة وقد تكون حركة هذه الأمور من التخلية في بعض الأوقات لأجـل تعظمنا وتيهاننا.

فهذه ليست تلك، أما تلك فندعوها قتالات الحرية وهى على سبيل الطبيعة العامة.

فأما القتال الناجم عن التخلية الحادث من أجل إعجابنا وتيهاننا، فإننا نعلم أننا إنمـا خلينا أن نقاتل لكي نتعلم الاتضاع إذا كان لزوم التيقظ والأعمال مدة من الزمان قد قادنـا إلى أن تصورنا أننا قد أحكمنا شيئاً ما.

فأما بقية الحروب الحادثة خلواً من هذا السبب إذا كانت فوق طاقتنا وإنما تتوجـه من تهاوننا وتكاسلنا، لأن الطبيعة إذا قبلت زيادة ما مما هو عن احتياج البطن وبالحواس فلن تحفظ فيما بعد نظامها الطبيعي الذي جبلت عليه.

لأن الذي يطرح الأحزان ويترك لزوم المسكنة بغير إرادته يضطر لحب الـذنوب والخطايا كُرهاً، لأن خلواً من التعب والحبس ما نقدر أن نبتعد من المجاذبات بـالفكر لأن بمقدار ما يتكاثر النصب على ذلك الحد تقل هذه المجاذبات، لأن الضوائق تبيد لذة الألـم فأما الراحة فتجلبها وتنميها.

فإذا قد علم علماً واضحاً أن الله تعالى وملائكته يبتهجون بالشدائد والضيقات التي نتضايق بها، وأما المحال وشياطينه يسرون بالراحات والنياح.

وإذا كانت وصايا الله إنما تتم بالأحزان والضيقات والضغطات ونحن نتهاون بها، فكأنما نحن نتحايل في إهانة الموصي بها لأجل الآلام التي تتولد من الراحة ونعطل علـة الفضيلة، أعني الكآبة والضيق.

بمقدار ما عشنا في الراحة على ذلك الحد نصنع فينا موضعاً للآلام، لأن الأفكـار لا تعرف أن تصنع عروق الباطل في الجسم تعب وذي ضنك، أمـا إذا باشـر الإنـسان بالفرح الأتعاب والأحزان، فإنه يتمكن من إلجام الأفكار تمكناً قوياً، لأن الأفكار هى نفسها تعطل بالأعمال والتعب.

وإذا ما ذكر الإنسان ما ذهب له ومضى من الجرائم والآثام وعاقب ذاتـه عليهـا، حينئذ يهتم به الباري سبحانه وتعالى وينيحه.

لأنه تعالى يسر به إذا قضى على ذاته بما يجب لأجل جنوحه عن طريقه تبـارك وتعالى ..

هذا هو دليل التوبة ..

وبمقدار ما يعنف ذاته ويضع بها على ذلك الحد، تتوفر كرامته مـن جهـة اللـه سبحانه وتعالى.

كل فرح لا تكون علته من الفضيلة فإنه يحرك للحين فينا حدة حركات الـشهوات، واعلم هذا إننا إنما تكلمنا في كل شهوة ألامية نقصد وليست الطبيعية.

الباب الحادي والعشرون

في أنواع التجارب المختلفة ونتيجة الصبر عليها وفي المنازل التي يسير عليها الإنسان اللبيب

إن الفضائل بعضها يختلف عن بعض، لئلا يكون منهج الفضيلة مستثقلاً باهظاً. وليكون التثقف بها على نظام، وتخاف من هذا الوجه. وتصير المصاعب من أجل الخير مستحبة كالخير ذاته، لأنه ليس أحد يقدر أن يحصل على هذه المنقبة على الحقيقة التي هى عدم القنيان دون أن يقنع ذاته أن يصبر على التجارب بمسرة، وليس أحد يتمكن من احتمال الضوائق والصبر عليها دون أن يؤمن أن شيئاً موجوداً أشرف من الراحة الجسمانية عوضاً عن الضوائق والأحزان التي هيأ ذاته لقبولها.

إن كان من أعدم نفسه الأمور الهيولانية (القنيان) فأول ما يتحرك فيه حب المحن، وحينئذ يلم به فكر الزهد في قنايا هذا العالم.

وكل من دنا من الحزن فإنه يتقوى أولاً بالإيمان وبعد ذلك يباشره.

ومن أعدم نفسه الأمور الهيولانية ولم يتجرد من فعل الحواس، أعني النظر والسمع والكلام فقد جلب لذاته حزناً وضيقاً متضاعفاً، وهو يكابد الشقاء والضنك ومكابدة متضاعفة.

لا بل قد أعدم فائدة من استعمال الأمور المحسوسة فرجع تنعم بها بالحواس فيتأذى وينفعل بالآلام، كما كان يشقى بها أولاً انفعالاً بالعمل.

لأن ذكر الاعتياد بهم لم ينصرف عن الفكر، لأن تخايل الصور التي كان تخايلها الحادث حدوثاً عقلياً يسبب للإنسان وجعاً خلواً منها، فماذا نقول في نفس الأمر الموجود القريب.

فإذاً الابتعاد والوحدة حميدة، لأنه يعاضد جداً لأنه يسكب الأفكار بشجاعة ويفيد قوة لاقتناء الصبر ويعلم الإنسان الاحتمال والصبر العظيم على ما يداهمه من الشدائد والمحن.

لا تشاور من لا يضارعك سيرة ويكون قصده وغرضه مساويك في التدبير ولـو كان حكيماً. بل ماثل الأمي الذي جرب الأمور بالفعل وشاوره أكثر من حكـيم متفلـسف صاحب البحث والنظر الخالي من التجربة والعمل.

وما هى التجربة: أقول التجربة ليست أن يلاقي الإنسان الأمور ويترصدها من غير أن يكون قد أدرك في ذاته عملها بل أن يحس بمنفعتها ومضرتها إحساساً ظاهراً بطـول معاناته لها زماناً لأنه على أكثر الأمر يكون الشيء في الظاهر مؤذياً، أما في الباطن ففيه كل منفعة وعلى هذه الجملة بعينها تصور فيما يضاد هذا، أعني أنه قد يكون شيء علـى أكثر الأمر مفعماً فائدة، أما في الباطن فمخسر وضار لذلك ينال كثيراً من الناس الخسارة من الأشياء التي هى مملوءة ربحاً.

ولا هؤلاء شهادة معرفتهم حقيقية إلا الذي عرف أن يختبر سائر الأمور بالـصبر والإفراز.

ولأجل هذا ليس كل أحد ثقة أن تقبل مشورته .. دون أن يكون أولاً ساس أمـوره أحسن سياسة وتلطف في اعتناق ذاته وله تجربة في كل أمر ولم يحب ذاته وقد انعتق من العوارض الجالبة التعبد، فهو لا يخشى ولا يخاف مذمة ولا يخشى وقيعة.

إذا وجدت في طريقك سلامة لا تتغير، حينئذ خف لأنك بعيد من السبل المـستقيمة الموطوءة من أرجل القديسين ذات النصب (الحرص) وبحسبما تسير في طريق الملكوت وتقرب من بلدة الله تعالى ولتكن لك هذه الإمارة وهى أن التجارب تلم بك إلمامـاً قويـاً وبمقدارها تنجح على هذا الحد تتوفر عليك التجارب، ومتى أحسست في نفـسك بتغييـر محن قوية مختلفة، أعلم أن نفسك على الحقيقة قد قبلت في تلك الأوقات منزلـة أخـرى عالية قبولاً خفيفاً، وقد زادت فيها النعمة في الحال على الرتبة التي كانت قائمة فيها، لأن الله تعالى بحسب عظم الموهبة يدخل النفس إلى ضنك التجارب، لست أعني بالتجـارب العالمية التي إنما تكون من أجل إلجام الرذيلة والأمور الظاهرة، ولا تفهم أن هذه التجارب

مراجف جسمانية بل هى محن تليق بالرهبان في الوحدة بالسكون وسوف نقسمها أخيـراً ونتكلم في أصنافها.

إن كانت نفس ضعيفة وليست كفؤاً لمصادمة التجارب العظيمة والتمست من اللـه جل اسمه أن لا يدخلنا إليها، واستمع منها، فاعلم علماً واضحاً أنها بمقدار ما هـى غيـر ناهضة بحمل الضيقات الصعبة على ذلك الحد هى أيضاً غير كافية من الظفر العظيم من المواهب والنعم.

وكما أنه منع منها وقود الشدائد الهائلة، هكذا تنعاق عنها الفوائد الجليلة.

لأن الباري سبحانه قد رأى بحسب حكمته التي لا يدركها المخلوقون منه أن تكون النعم بمقدار المحن وليس أن تكون الموهبة عظيمة والتجربة ضعيفة لأن هؤلاء مـرتبين بمقدار هؤلاء، فإذاً من الصعوبات والضوائق العارضة لك بسياسة من الله عـز وجـل تدرك نفسك ما قبلته من الجلالة وعظم النعمة لأن العزاء على قدر الحزن.

فإذا سألت قائلاً: فإذاً ما الحال؟ أجبتك: أولاً تأتي التجربة، وبعد ذلـك المواهـب والنعم تفد أولاً وتعقبها التجربة، والتجربة لم تأت بدون أن تقبل النفس في داخلها زيـادة على منزلتها الأولى.

أو روح كنز النبوة التي قبلتها أولاً،

والشاهد بحقيقة هذا تجربة الرب وكذا أيضاً تجارب الرسل.

لأنهم ما دخلوا إليها حتى قبلوا المعزي، لأن المشاركين معهم في الخير يليق بهـم أن يحتملوا محنتهم لأنه مع الخير حزناً.

لأن الله الحكيم هكذا رأى أن يصنع في الكل، ولأن الأمر كان هكذا، أعني النعمة قبل التجربة لا تكون، إلا أنه لابد أن يتقدم الإحساس بالمحن على الإحساس بالنعم، لأجل اختبار الحرية، لأن النعمة لا تتقدم إلى أحد البتة من قبل أن يذوق التجارب، فالنعمـة إذاً تتقدم في العقل وتبطئ في الحس، فالجدير بنا أن نحصل فـي أوقـات المحـن أمـرين متضادين لا يتشابهان في شيء وهما الفرح والخوف.

أما الفرح أننا قد صادفنا ما يشير في الطريق التي وطأتها أقدام محيي الكل، وجميع القديسين، وهذا يتبين لنا من المحن.

أما الخوف الذي ينبغي لنا أن نقتنيه، ألا نجرب بهذا قط مـن علـة العظمـة لأن المتواضعين يتحكمون من النعمة بأن يقدروا على إفراز هذه الأمور والعلم بها.

وما هى التجربة التي من أثمار العظمة، وما هى التي من لطمات المضروبين من المحنة؟ والتجارب تتفاضل وتتميز، أعني التي تأتي بعثاً للسيرة والتربية في الزيادة على عمل الخير.

من التجارب التي تنجم من التخلية تأديباً لأجل تعظم النفس والدليل على ذلك المحن الأبوية الوافدة من جهة العصا الأبوية تحرك النفس على النجاح والفلاح التي بها ترتاض وتتدرب وتختبر وتكون نشيطة.

إفرازات التجارب: وهى: كسل، ثقل جسم، استرخاء الأعـضاء، ضـجر، تخـبط الذهن، أمراض الجسم، انقطاع الأمل في ساعته، ظلمـة الأفكـار، نقـصان المعاضـدة الإنسانية، عوز الأشياء الجسدانية .. وما أشبه ذلك. ومن هذه التجارب يقتني الإنسان نفساً متوحدة متضعة وقلباً مائتاً متضعاً.

ويختبر هؤلاء ويتحنك في الوفود إلى إيثار الخالق والسايس عز وجل، يدبر هـذه الأمور بحسب القوة وبحسب استعمال القابلين إياها، وبهؤلاء مزج عزاوات وأحزان ونور وظلام وحروب ومعونات، وباقتصار أقول أنه يتضيق ويفرح، وهذا هو علامـة نجـاح الإنسان بتوسط نعمة الله.

على العظمة:

أما التجارب الوافدة عن تخلية الله على المتوقحين والمترفعين بقلوبهم تجاه صلاحه والظالمين خيره بتعظمهم: فهذه هى: أعني تجارب الشياطين الظاهرة خارج حدود الحياة النفسانية العادمة من القوة المحكمة فيهم.

إحساس قوي بحركات الزنا المطلق عليهم توضيعاً لترفعهم سرعة الغضب، قيـام الهوى، تثبيت الإرادة، محبة الغلبة بالكلام، الانتهار بتعصب، تهاون القلب، ضلالة العقل الكامل، التجديف، الافتراء على اسم الله سبحانه، ضمائر سخيفة مملـوءة ضـحكاً يولـد البكاء، الازدراء من جهة الناس، إذهاب كرامتهم، استهزاء أنواع كثيرة من الشياطين خفياً وظاهراً.

محبة الخلطة والتصرف مع أهل العالم، الهذيان والهذر دائماً، ونبوات كاذبة، وأن يبشر ويوعد بأشياء كثيرة فوق مقدرته، فهذه هى النفسانية.

أما الجسمانية: فإنه يعرض له عوارض مؤلمة وعسرة الانحلال وتمكث معه دائماً وتلازمه، وتصادفه شرور دائماً وعلاقات الناس الكفرة، ويحصل في أيدي أناس أشـرار ليحزنوه، ويتحرك قلبه دائماً بالخوف الذي بلا سبب وينال هؤلاء القوم ومسقطات عظيمة من صخور وأمكنة عالية وما يجري مجرى ذلك مما يسحق الجسد، وآخر ذلك عدم استناد القلب إلى العناية الإلهية وثقة الأمانة.

وأنا أوجز فأقول أنه يفد على الإنسان الأشياء غير السهلة، وكل ما فوق مقدرتـه، لأن هذه التجارب التي عددناها هى تجارب العظمة، ويتبين مبدأ هذه في الإنسان متى أبتدأ أن يعتقد في ذاته أنه حكيم ولبيب وعالم ويتشخص لدى عينيه أنه كذلك، والإنسان الـذي بهذه الصفة يتحرك في كل هذه الشرور حسب مقدار قبول أفكار العظمة.

إذاً من نوع تجاربك اعرف طرق أفكارك، فإن رأيت بعض هذه التجارب ممزوجاً بما تقدم ذكره من المحن قبلها، فأعلم أنه بمقدار ما نالك منها على ذلك الحد، من العظمة التي ألمت بك.

اسمع شيئاً آخر أيضاً:

كل الضيقات والأحزان التي ليس فيك عليها صبراً واحتمال، فهي عقابها متضاعف .. صبر الإنسان يزيل مصائبه، فأما صغر النفس فهي أم العذاب، وأما الصبر فهو أم العزاء.

وهو قوة ما تتولد من سعة القلب، وهذه القوة عسر على الإنسان أن يجدها في محنته خلواً من النعمة الإلهية التي تحصل للإنسان من تواصل الصلاة وفيض الدموع والطلبة.

ومتى أراد الله أن يحزن الإنسان كثيراً .. يسمح أن يحصل في صغر نفس، وهذا الأمر يولد فيه ضجراً قوياً يذوق به الاختناق النفساني، وهذا هو ذوق جهنم، ومـن هـذا تأتي روح الحيرة وعنه تتولد وتنبع تجارب عدة مثل الاختباط الغضب، الافتراء، ومحبـة الذم، وتقلب الآراء والأفكار، والتنقل من مكان إلى مكان .. وما شابه كل ذلك ..

فإن سألت عن علة ذلك ما هى: أجبتك أن سبب هذا كله توانيك، والدليل على ذلك أنك ما قد حرصت على التماس شفائها.

وطب هذا واحد وهو الذي بتوسطه يجد الإنسان عزاء في نفسه وهو تواضع العقل وخلواً منه لا يمكن أن يهدم أبنية الشرور والحواجز، لا بل يجدها متجبرة عليه.

ولا تجد (تغضب) علي في قولي الحق لك، من أنك ما طلبته البتة في نفسك، فإن أنت أردته فسر في بلادته، وسوف تعاين كيف يزيل عنك الشرور، لأنه بمقدار اتـضاعك ينعم عليك بالصبر في أحزانك، وبحسب احتمالك يخف عليك وقـت شـدائدك وتحظـى بالعزاء، وبقياس العزاء تعظم محبتك لله عز وجل، لأن محبة الله جليلة القدر وعظيمـة الشأن، وبمقدار محبتك تعظم مسرتك في الروح القدس.

فأما الأولاد على الحقيقة، متى رأى أبونا الرؤوف أن يريحهم في تجاربهم، فلـيس يقصيها عنهم ولا ينتقص منها، بل يجود عليهم بالصبر عليها تكميلاً لنفوسـهم فيحظـون بكل الخيرات بصبرهم على التجارب.

ونحن نسأل الله بجوده تعالى أن يؤهلنا للصبر على الشرور بشكر قلب واعتـدال نفس لأجل محبته تعالى، آمين.

يا ربي وإلهي بدد ظُلمتي.

الميمر الثاني والعشرون

عن أقسام الفضيلة: قوتها وتميزها

إن التدبير الجسداني بالسكوت يطهر الجسم من الهيولي الذي فيه، وأما تدبير فضيلة الفكر فتوضع النفس وتنقيها من الحركات والمعاني الكثيفة والمهلكة على الأشياء المفسدة لئلا تتفكر فيها تفكيراً ألمياً، بل تتحرك جيداً في تصورها، وهذا التصور يدنيها إلى تجرد العقل وهو الذي ندعوه ثاؤريا أي تصور غير هيولاني وهو التدبير الروحاني لأنه يرفع العقل من الأمور الأرضية ويقربه إلى ثاؤريا الروح ويقيم العقل عند الله تعالى، وينظر مجده الذي لا يوصف، الذي هو حركة الأفهام ويفصله من هذا العالم ومن الإحساس به، ومن هذا نحقق رجاءنا ذلك المزمع وتصبح عندنا بالمباشرة تلك الحظوة.

وهذه هى القناعة التي قال عنها بولس الرسول، ونتنعم معقولاً بالرجاء المزمع الذي وعدنا به، فأما كيف وكل واحدة فواحدة من هؤلاء فاسمع:

التدبير بالسيرة الجسدانية التي ترضي الله تعالى نسميها الأعمال الجسدانية التي بالجسد تكون، لكي يطهر الجسم بأعمال الفضيلة بتوسط أعمال ظاهرة يفعلهم بذاته ويتنقى بهم الإنسان من نجاسة الجسد.

وأما التدبير بسيرة الفكر، فهو عمل القلب، أي اهتمامه الدائم بالدينونة المزمعة العظيمة وبصلاة القلب الدائمة التي لا تتخلف وبتصور سياسة الله سبحانه وعنايته الموجودتين معاً في العالم خاصاً وعاماً، وحفظ حدود الآلام الداخلة لئلا يصادف منها شيء في البلد الخفي الروحاني.

هذا هو عمل القلب الذي يسمونه (سيرة الفكر) ويفعل تدبير هذه الـسيرة التـي تدعى عملاً نفسانياً يتلاطف العقل وينفصل عن مشاركة حياة الفساد البائـدة، التـي هـى خروج عن الطبيعة، ومنها يبتدئ أن يتحرك في كل وقت بالفهم في معاني المحـسوسات المخلوقة لاستعمال ونمو تربية الجسم، وكيف بواسطة خدمتها تعطي قوة للأربع عناصر في الجسم.

وأما تدبير السيرة الروحانية هى فعل بمعزل عن الحواس وهى المـسطورة مـن الآباء في كتبهم، لأن عقول القديسين إذا قبلت الثاؤريا في أنفسهم الـذي هـو التـصور الأقنومي عند ذلك كثافة الجسم ترتفع وتزول، ومنذ ذلك تكـون النظـرة الروحانيـة لأن تصور أقنومهم هو (خلقة الطبيعة الأولى) ومن هذا التصور الأقنومي يرتقـي بـسهولة لكي يتحرك على معاني المعرفة التي تسمى معرفة وحدانيته الذي تفسيرها هـو الـدهش والتعجب بالله عز وجل.

وهذا هو تدبير سيرة ذلك التدبير العظيم المزمع أن يعطى بحريـة الحيـاة التـي لا يشوبها موت في ذلك التصرف الذي بعد القيامة لأن الطبيعة البشرية هنـاك لا تكـف دائماً، ولا تنقطع من الدهش الدائم بالله تعالى ولا تتصور شيئاً البتة من الخلائق أو ترتبط فيه لأنه لو كان شيء آخر مشابهاً الله سبحانه وتعالى لكان العقل يتحرك تارة فـي اللـه وتارة في ذلك.

أما إن كان جمال كل الكائنات في التجديد المزمع أحط من جماله، فكيف يتحـرك العقل بتصوره خارجاً عن جمال الله عز وجل. وماذا يا ترى يضطره: المـوت أو ثقـل الجسد أو احتياج الطبيعة أو ذكر أنسابه أو المضادات الموجودة. أو الطياشة بعدم المعرفة أو عند كمال الطبيعة أو لنقص الطبيعة، أو التطاوف بالعناصر أو الحديث مع إنسان مـا، أو الضجر القاتل المتعب أو تعب الجسد.

إلا أن هذه كلما وإن كانت موجودة في العالم، فعلى كل حال في ذلـك الوقـت إذاً انكشطت حواجز الآلام قدام عيون العقل وشخص في ذلك المجد، فأنه للحال يتعالى العقل

بالدهش، ولولا أن الله عز وجل، قد وضع حداً لهذه الحياة في هذه الأمور، لكم كان ينبغي له أن يتباطئ فيها الإنسان بكل حياته، لو أمكنه ما كان يخرج من هناك.

فبكم أجدر هذا هناك بحيث هذه كلها غير موجودة لأن تلك الفضيلة غير محدودة، وبالفعل أقنومياً تكون من داخل المنازل الملوكية، إن أهلنا لذلك بتوسط سيرتنا، فإذاً كيف يتمكن الفكر أن يخرج ويبتعد من ذلك المنظر العجيب الإلهي ويباشر أمر آخر.

الويل لنا لأننا لا نعرف نفوسنا ولا لأي سيرة دعينا لأننا نعتقد أن هذه الحياة ذات الضعف وترتيب الحيوان والعالم وأحزانه وضوائقه وشروره وراحاته شيء موجود.

صلاة: ولكن يا مسيحي الذي أنت وحدك قوي طوبى للإنسان الـذي قـد حظـى بمعونتك ووضع في قلبه مصعداً ..

أنت يارب رد وجهنا من العالم بالاشتياق إليك إلى أن ننظره كما هو ولا نركن إلى الغي (الضلال) كأنه حق.

وجدد في فكرنا الاجتهاد والحرص قبل الموت لكي نعلم قبل خروجنا كيـف كـان دخولنا إلى هذا العالم وخروجنا منه، إلى أن نكمل العمل الذي دعينا إليـه أولاً بحـسب قصدك بوضعنا في هذه الحياة.

ونرجو بفكر مملوء بالثقة أن نقبل العطائم حسب ما بشرت به الكتب ..

المواعيد التي قد أعددتها لمحبيك في التجديد الثاني ..

الأمور التي ذكرها محفوظ في أمانة الأسرار.

والمجد لك يارب.

الباب الثالث والعشرون

عن الطهارة

أما طهارة الجسد فهي: النقاوة من الدنس، دنس اللحم أما طهـارة الـنفس فهـى: الانعتاق من الآلام الخفية المتقومة في الفكر.

أما طهارة العقل فهى: باستعلان الأسرار لأن به يتطهر من كل حركة تقع تحـت الحس بجهة الكثافة.

والأطفال الصغار هم أطهار الجسم، وأنفسهم غير ذات ألم، إلا أنهم لا يوصـفون بطهارة العقل، لأن طهارة العقل هى الكمال بوجود الثاؤريا السمائية التي تتحرك بمعـزل عن الحواس على القوات الروحانية التي للعوالم العلوية بدهـشات تتجـاوز الأوصـاف المفترزين بالتصرف ذي اللطافة بالخدمة غير المنظورة المتواترة بحركـة الاسـتعلانات الإلهية المختلجة كل ساعة.

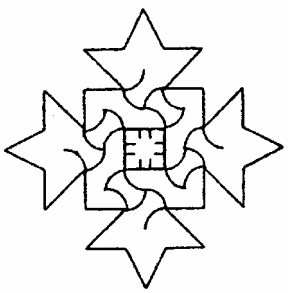

الباب الرابع والعشرون

عن الأمـــانـــة

الأمانة هى باب الأسرار، وأن قياسها كأعين الجسد إلى الأمور المحسوسة، كـذلك هى الأمانة بالكنوز الخفية بعيني العقل، وأن لنا عينان نفسيتان كما يزعم الآباء مثل عيني الجسد، والحاجة إلى كل واحدة منها وليس الاستعمال بهما واحد.

بل بالعين الواحدة تنظر بالخفية مجد الله تعالى المكنون في الطبائع أعنـي قوتـه وحكمته وسياسته وضميره الأزلي (علينا) نحونا تلك التي من إفرازات تدبيره نـدركها، والطغمات السمائية المضارعة لنا في العبودية.

وأما بالعين الأخرى فنعاين مجد طبيعته القدوسية متى شاء سيدنا أن يـدخلنا فـي الأسرار الروحانية، فأنه يفتح بحر الأمانة في فكرنا.

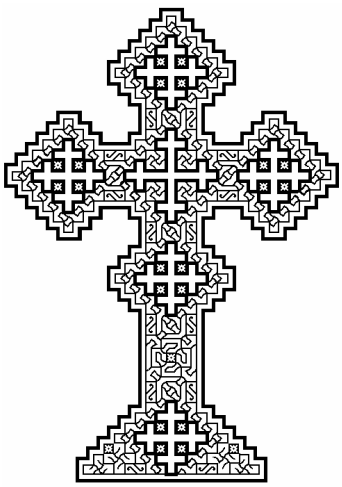

الباب الخامس والعشرون

عن التوبة

إن التوبة فوضت إلى الناس نعمة فوق نعمة، التوبة هى الميلاد الثاني من الله، والدليل على ذلك أنها الوجود من (في) الله تعالى، والعربون الذي قبلناه من الأمانة بتوسط التوبة نقبل موهبته.

التوبة هى باب الرحمة المفتوح لطالبيه بتوسط هذا الباب ندخل إلى الرحمة الإلهية، ولسنا نجد رحمة خارج عن هذا الباب والمدخل، لأننا كلنا قد أجرمنا كما يزعم الكتاب المقدس الإلهي ونتزكى مجاناً بتفضله **(مراثي ٣ : ٤٢) (رو ٣ : ٢٤).**

التوبة هى النعمة الثانية وتتولد في القلب من الأمانة والخوف، والخوف هو عصا أبوية تدبرنا إلى أن نصل إلى فردوس عدن الروحاني، وإذا أوصلتنا إلى هناك تخلينا وتعود هى.

وعدن هو حب الله تعالى الذي فيه فردوس كل الخيرات، حيث اغتذى السعيد

بولس (١كو ٢ : ٩) الغذاء الذي ليس في الطبع، وبعد ما ذاق من شجرة الحياة التي هناك صرخ قائلاً: " إن الله عز وجل قد أعد لمحبيه ما لم تنظره عين وما لم تسمع به أُذن وما لم يخطر على قلب بشر "

من هذه الشجرة منع آدم بتوسط مشورة المحال .. شجرة الحياة هى محبـة اللـه تعالى التي خاب منها آدم ولم يصادفه فرح بل عمل ونصب في أرض الشوك.

العادمون محبة الله تعالى .. خبز العرق يأكلون بأعمال الهم ولو سـلكوا بالعـدل والبر الذي أمر بأكله المخلوق أولاً بعد السقطة إلى أن نجد المحنة فعملنا في أرض الشوك هو في وسط الشوك نزرع ونحصد، ولو كان زرعنا عدل، وفي كل ساعة ننخس منـه، وبمقدار ما نبرز بعرق وجهنا نعيش ومتى وجدنا المحبة.

فالخبز السمائي هو المسيح تعالى المنحدر من السماء والجايد على العالم بالحياة.

هذا هو غذاء الملائكة، ومن وجد المحبة فإنه يأكل المسيح كل ساعة ويصير غير مائت، لأنه سبحانه يقول: الآكل من هذا الخبز الذي أعطي أنا لا يرى موتاً إلـى الأبـد. سعيد هو الذي يأكل خبز المحبة الذي هو يسوع فأما أن الآكل من خبـز المحبـة يأكـل المسيح الإله فإن يوحنا شهد بذلك " أن الله محبة هو "، فإذاً العائش في المحبة فـي هـذا العالم يستنشق نسيم القيامة من هاهنا لأن بهذا النسيم تتنعم الأبرار في القيامة.

المحبة هى الملكوت الذي وعد به ربنا الرسل وعداً سرياً، أعني أن يـأكلوا فـي ملكوته. لأن قوله " تأكلون وتشربون في مائدة ملكوتي .. ماذا معناه إلا المحبة.

والمحبة تجزي في تعزية الإنسان وتنوب في المأكل والمشرب. هذا هـو الخمـر المفرح قلب الإنسان، والمغبوط الشارب منه.

ومن هذا شرب الفسقه الأوقاح فصاروا ذو عفاف وحياء .. وشـرب الـسكيرون فلبسوا الأصوام وشرب الخطاة فنسوا سبل المعاثر، والأغنياء فـأحبط الفقـر، والفقـراء

استغنوا بالأمل، والمرضى فصحوا، والضعفاء فتقووا والعوام فتحكموا.

وكما أنه لا يمكن أن يسلك البحر العظيم ويجتاز خلواً من مركب، هكذا لا يمكن أن يجوز الإنسان إلى المحبة خلواً من خوف.

إننا يمكن أن نعبر ونقطع البحر المنتن الموضوع فيها بيننا وبين الفردوس العقلي بتوسط سفينة التوبة التي مجاديفها هى الخوف.

وجداً أقول لك إن لم يسوس الخوف سفينة التوبة التي بتوسطها نعبر بحر هذا العالم إلى الله تعالى، لنغرقن في البحر المنتن.

أما التوبة فهى السفينة، وأما الخوف فهو مدبر السفينة والمحبة هى الميناء الإلهي والخوف يجلسنا في مركب التوبة ويقطع بنا بحر العالم المنتن إلى الميناء الإلهي. التي هى المحبة ويرشدنا إلى الذي مشاهده كل التعبين والموقرين بالتوبة، فاستراحوا.

ومتى أدركنا المحبة فقد وصلنا إلى الله تعالى وقد كملت طريقنا وجزنا إلى جزيرة العالم الذي هناك حيث الآب والابن والروح القدس، الذي إليه نسأل أن يؤهلنا لجلال محبته بتوسط الخوف. آمين.

يا ربي متى تنزع الشوك والحسك من نفسي ..

يا ربي إلى متى يكدرني هذا الزرع الخبيث ويجذب دوماً عقلي إلى ما لا أشتهي ..

إلى متى أنتزع من عندك رغما مني انتزاعاً ..

يارب حم قلبي في ولا تترك المحال يقترب منه فينتزع من كل زرعك الطاهر الروحاني ..

يا ربي رفعت عيني إليك فلا تخزيني ولهفتي كلها في محبتك، فامنحني إياها كوعدك وكإرادتك لكل خليقتك أن ترجع بالحب إلى أحضانك.

آمين.

الباب السادس والعشرون

في كمية مقدار العلم ومقادير الأمانة فيها

إن المعرفة على ضربين: معرفة، تتقدم الأمانة، ومعرفة تتولد منها.

أما المتقدمة عليها فهى المعرفة الطبيعية، وأما المتولدة منها فهى الروحانية.

والمعرفة الطبيعية هى الفاصلة بين الخير والشر وتسمى إفراز طبيعياً وبها نعرف بالطبع الخير من الشر من غير تعليم واستفادة، إذ الله تعالى قد وضعها في الطبيعة الناطقة، وتنموا وتزيد من التعليم والتلقين ولا يوجد من ليس له هذا الأمر.

فقوة المعرفة الطبيعية التي للنفس الناطقة هى تمييز الخير من الشر المتحرك فيها دائماً، والعادمون إياه فدون طبقة الطبيعة الناطقة.

وأما المالكين إياها هم القائمون باستقامة الطبع النفساني لم يفسد منهم الشيء الذي من الله تعالى بالطبع إكراماً للنطقية.

وأما الذين قد ضيعوا هذا التمييز الفاصل الخير من الشر، فإن النبي يعيرهم قائلاً: **" الإنسان إذا كان في كرامة ولم يفهمها، أقيس بالبهائم التي لا علم لها. وشُبِّه بها "** **(مز ٤٨ : ١٧).**

وكرامة الطبيعة الناطقة هى الإفراز المميز للخير من الشر ومن الواجب أن يشبه الذين أضاعوه بالبهائم التي لا تتصور وليس لها نفس ناطق مفرزة. بهذا يمكننا أن نجد طريق الله.

وهذه المعرفة الطبيعية هى التي تتقدم الأمانة كما قلنا وهى الطريق إلى الباري عز

وجل، وبها يقدر أن يفصل الإنسان الخير من الشر، والجيد من الرديء، ويؤمن.

وقوة الطبيعة تشهد بأنه يليق بالإنسان أن يؤمن بمبدع الكل إلى الوجـود وبـأقوال وصاياه وأن يعمل بموجبها.

ومن الأمانة يتولد خوف الله سبحانه وتعالى، ومتى تبع مراسمه سبحانه ارتقى إلى العمل بها قليلاً تتولد فيه المعرفة الروحانية التي قلنا أنها تتولد من الأمانة.

ولا تتولد من الأمانة الساذجة بل أمانة مخافة الله، لأن المعرفة الروحانية لا تتولد من الأمانة الساذجة.

الأمانة تصنع فينا الخوف، والخوف يضطرنا إلى التوبة والعمل، ولهذه الصفة ولج إلى الإنسان وأنعم عليه بالمعرفة الروحانية التي هى إحساس بالسرائر، وكما قال القديس ذهبي الفم " إنه متى اقتنى الإنسان إرادة حسب خوف الله، والعقل المستقيم فأنه بـسهولة يحظى باستعلان الخفايا ".

ويشير باستعلان الخفايا بالمعرفة الروحانية.

ليس أن مخافة الله تولد هذه، أعني المعرفة الروحانية لأن الشيء الذي ليس هـو موضوعاً في الطبيعة لا يمكن أن يتولد، بل أن هذه المعرفة الروحانية هى تعطي إنعامـاً لعمل مخافة الله تعالى.

وإذا فحصت جيداً عن عمل مخافة الله تجد أنه هو التوبة.

والمعرفة الروحانية التي قلنا هاهنا هى التي قلنا أولاً إننا قبلنـا فـي المعموديـة عربونها ونقبل بتوسط التوبة نعمتها وموهبتها، وهذه الموهبة التي قلنا أنها تأخذها بتوسط الإقلاع عن الزلات هى المعرفة الروحانية التي تعطي إنعاماً لعمل مخافة الله تعالى.

والمعرفة الروحانية هى الإحساس بالغوامض، ومتى أحس الإنسان بهـذه الأمـور التي لا تبصر وهى فاضلة وجليلة جداً التي منها نأخذ اسم روحانية المعرفة وتتولد فـي

الإحساس بها أمانة أُخرى وليست هى بمضادة الأولى بل مثبتة لها ومؤكدة.

والآباء يسمونها أمانة النظر وإلى هناك ينتهي السماع عند النظر، والنظر أؤكد من السماع وهذه كلها تتولد من المعرفة الموجودة في الطبيعة الفاصلة الخير من الشر، وهى زرع الفضيلة الصالح كما قلنا.

ومن سترنا هذه المعرفة الطبيعية بإرادتنا المنعكفة على اللذات، إما نجيب من كـل هذه الخيرات، ويتبع هذه المعرفة نخز دائم من الضمير وذكر الموت متصل وهم بالخروج من هذا العالم والعقاب وحزن وكآبة من أجل الذنوب السالفة.

واجتهاد لائق وخوف الله واستحياء الطبع وذكر الطريق المشتركة واهتمام بزادها وطلبة بنواح إلى الله تعالى في أن يكون الدخول من هذا الباب نعم الدخول وهو عبور كل الطبيعة والتهاون بالعلم وحرص ومجاهدات كثيرة لأجل الفضيلة.

هذه كلها موجودة في المعرفة الطبيعية، فليميز الإنسان أعماله ويقايسها بهذه، لأن الإنسان متى وجد هؤلاء ففي طريق الطبيعة هو سالك، ومتى ما تعالى عليها وصل إلـى المحبة، فأنه يتعالى على الطبيعة، ويزول من اجتهاد الخوف والنصب والتعب فـي كـل الأمور.

هذه الأشياء هى لوازم المعرفة الطبيعية ونجدها فيها من لم تعطيها بإرادتنـا ذات اللذة وفيها نوجد إلى أن ندرك المحبة التي تعتقنا من كل هذه.

فليميز الإنسان ذاته من هذه الأشياء التي ذكرنا ما ويقيس أموره في أي منها هـو سائر هل هو في الموجودة في الطبيعة، أو في التي فوق الطبع أو في التي خـارج مـن الطبع.

من هذه الإفرازات الواضحة المقدم ذكرها يفوز الإنسان بـسهولة أن يـدبر كـل حياته.

وإذا لم توجد يا هذا في الأمور الطبيعية التي قد حـددناها، ولا فـي التـي فـوق الطبيعة، فمن البين الظاهر إنك منبوذ في التي خارج من الطبع.

يارب أهلني لمعرفتك الحقيقية.

الباب السابع والعشرون

يشتمل على :
عظـات مفيـدة ومعاني نافـعـة

لا توجد فكرة صالحة وافدة إلى القلب إلا وتكون من النعمة الإلهية. ولا يوجد فكر خبيث وافي إلى النفس إن لم يكن على سبيل التجربة والامتحان.

إن الإنسان الذي عرف مقدار ضعفه وعجزه قد وصل إلى حد الاتضاع.

مرشد أنعام الله على الإنسان هو الشكر المتحرك في القلب بشكر الله على الدوام. ومرشد التجارب على النفس هو التذمر المتحرك في النفس على الدوام.

إن الله عز وجل يحمل كل ضعف الإنسان، ولا يحتمل إنساناً يتذمر إلا ويؤدبـه، إن النفس البعيدة عن إشراق المعرفة توجد في هذه المعاني.

فم يشكر دائماً يقبل بركة من الله تعالى .. قلب يلازم الحمد والـشكر تحـل فيـه النعمة دائماً.

الاتضاع يتقدم النعمة، والعظمة تتقدم الأدب، أن المتعظم (المتكبـر) بالمعرفـة يهمل في ضميره فيسقط في التجديف، والمتبجح بفضيلة العمل يهمل فيسقط في الزنا.

المترفع بحكمته يهمل فيسقط في فخاخ الجهل المظلمة

الإنسان البعيد عن ذكر الله تعالى بالكلية، هو أن لا هم له إلا قول السوء بقريبه.

الذي يكرم لكل إنسان بذكر الله تعالى فأنه يجد معونة من كـل إنـسان بإشـارة الله الخفية.

المعتذر عن المظلوم يجد الله تعالى قريباً منه مناضلاً عنه.

من عاضد قريبه يعاضده الله تعالى بذراعه، ومن سب أخاه برذيلة كان الله تعالى له سابا ومبكتاً.

من ثقف وقوم أخاه في خزانته على انفراد، فإنه يعالج علته بالمحبة،

ومن بكت وهجا إنساناً في مجمع، فإنما يقوي جراحاته.

ومن شفى أخاه في خفية، فقد أوضح قوة محبته، ومن فضحه في أعـين رفقائـه وأصدقاءه، فقد دل على قوة حسده.

محباً يبكت ويؤنب في خفية فهو طبيب حكيم، أما الذي يطبب أحباؤه أمـام أعـين أخوه كثيرين هو مستهزئ ومعير على الحقيقة.

علامة الرحمة والتريث: المسامحة لكل ذنب، وعلامة الرأي والـضمير الـرديء منازعة المخطئ في تغير كلامه عند المذنب.

المؤدب على سبيل التطبيب إنما يسوق إلى الصحة، وبمحبته يؤدب.

الملتمس الانتقام هو عار من المحبة.

إن الله تبارك اسمه إنما يؤدب بمحبته لا على جهة الانتقام، حاشا .. إنما يطلب أن يشفي صورته، ولا يحفظ الغضب للوقت وجهة المحبة هذه إنما هـي مـن الاسـتقامة، ولا ينثني إلى الانتقام لنفسه.

هذه دلائل المحبة .. لأن تأديب المحب هو من الاستقامة، وليس ينظر إلى المكافأة بألم وحزن.

صديق حكيم بار يشبه الله تعالى لا يؤدب إنسان لأجل الانتقام عن زلتـه وشـره، بل غرضه تثقيفه وتقويمه أو تخويف آخرين إن لم يكن الأدب على هذه الـصفات فلـيس بأدب.

ومثل أيقونة يصور فيها الروح ضمير الله تعالى الأزلي. والذي يريد أن يقيم العدل ويظن أن الله تعالى هو مكافئ ومجاز يشيع عنه بعدم الجود والصلاح، وحاشا أن يكـون في ينبوع المجد والمحبة المملوء صلاحاً أن يوجد عنده مكافأة.

لأن قصده إنما هو لتقويم الناس لا غير، ولولا تبطل كرامة الحرية ما كان يستعمل في تقويمنا النهر والتأديب.

لأنه إذا فعلنا الصلاح بحدود حريتنا نالت النطقية بهجة وحب، ولهذا أيضاً نـسجد لعظم صلاحه. لأنه ليس بما يخصه يبهج ويسر بل يريد أن يفرح بأعمالنا الواجبة وإن كل شيء من صلاحه وهو من عنده بل يريد أن يحسبه لنا.

من يفعل الخير لأجل الجزاء المزمع بسرعة ينقلب والذي قـوة معرفتـه تدهـشه ويتعجب بنظر المحبة لله تعالى هذا ولو يتبضع بجسده لم يتعظم بفكره ولا ينثنـي عـن الفضيلة لله تعالى أبداً.

والذي يتنور بعقله بالجمايل التي لله علينا، هذا انحدر إلى قعر الاتـضاع بنفـسه وجسمه، لأن المرء يطلع وينزل في سيرته قبل الدنو من المعرفة، أما إذا دنا منها فأنه كله يتعالى وكل وقت يرتفع وما يكمل ارتقاؤه بالمعرفة إلى أن يأتي دهر المجد فيأخـذ كـل غناه.

لأن الإنسان بمقدار ما يكمل عند الله تعالى على ذلك الحد يقفو أثره.

وأما في العالم الحقيقي فيريه وجهه لا ذات أزليته لأن الأبرار بمقدار ما يبلغـون إليه من تصوره بذلك المقدار ما يبلغون إليه من تصوره بذلك المقدار ينظرون صـورته بالخفي، وكمثل الصورة التي تتشكل بالمرآة، وأما هناك فينظرون استعلان الحـق علـى الحقيقة.

إن النار المشتعلة في الحطب اليابس، بصعوبة تنطفئ وحرارة الله تعالى الحالة في القلب الهاجر العالم تضرمها لا يخمد. وأنها أحر من النار.

إن الخمر إذا ولجت قوتها إلى الأعضاء، فإن العقل ينسى حقائق الأمور.

وذكر اللـه إذا ثبت وتأسس في النفس، فإنه يبيد كل ذكر في القلب يحـدث عـن الأشياء المنظورة.

عقل وجد حكمة الروح، كإنسان قد وافى سفينة معدة في البحر لأنه إذا حبس نفسه فيها وسار قطعت به بحر هذا العالم، وأرسلته إلى جزيرة العالم الجديد.

هكذا هو الحسس بالأشياء المزمعة في هذا العالم كجزيرة صغيرة في البحـر دنـا منها فلن يقاسي هول الأمواج التي تخايل هذا الزمان.

إن التاجر إذا ما أتم وأكمل ما يخصه فإنه يجتهد أن يمضي إلى منزله، والراهـب بمقدار نقصانه من زمان العمل، على ذلك الحد يحزن أن يفارق جسمه. وإذا أحـس فـي نفسه أنه قد حصل الوقت وأخذ العربون فإنه يشتاق إلى العالم الجديد.

إن التاجر ما دام في البحر فالخوف منبث في أعضاءه لئلا تتعالى الأمواج فيغرق ويخيب أمله من عمله، والراهب ما دام في بحر هذا العالم فالخوف مستولي على سـيرته لئلا يثب عليه أذية وراموز، فيهلك عمله الذي منذ الشباب إلى الشيخوخة.

التاجر عيناه إلى البر، والراهب يرمق ساعة الموت.

النوتي ينظر إلى النجوم، متى كان سائراً في البحر بحسب ما تدله يـسير ويقـوم مركبه إلى أن يصل إلى الميناء، والراهب ينظر إلى الصلاة لأنها تشدده وتقوم مسيره إلى أي ميناء يصوب مسيره.

يشخص الراهب بالصلاة كل وقت كي تدله على الجزيـرة التـي تـربط سـفينته من الخوف، كمثل النوتي الذي يتزود ويقوم إلى جزيرة أخرى، أعني من معرفـة إلـى معرفة ...

وكمثل تغير الجزائر يصادف معارف مختلفة حتى يصعد من بحر هذا العالم بسعيه ويصل إلى تلك المدينة الحقانية التي القاطنون فيها ما يعاودون الحركة والسير، بل كـل واحد يتنيح بثرائه.

طوبى لِمن سيره غير مضطرب في هذا العالم العظيم داخل هذا البحر الجسيم.

لسعيد الذي مركبه لم ينكسر ويصل ببهجة إلى الميناء.

إن السابح عارياً يغوص في البحر إلى أن يجد اللؤلؤ، والراهب الحكيم يسير في هذه الدنيا عارياً إلى أن يصادف فيها الدرة الحقانية التي هى يسوع المسيح، وإذا وافاها لن يقتني معها شيئاً من الموجودات.

الجوهر يصان في الخزائن، ونعيم الراهب داخل السكون والهدوء.

إن العذراء تتأذى بالمجامع والمحافل، وفكر الراهب يضر بالمحادثات مع كثيرين ومنظرهم.

إن الطائر يسرع إلى وكره في كل مكان ليفرخ، والراهب الحكيم ذو الإفراز يبادر إلى قلايته ليصنع فيها ثمر الحياة.

إن الحية إذا رضض جسمها كله فإنها تحفظ رأسها وحده، والراهب الحكيم يحرص ويصون من كل ناحية منزلة أمانته التي هى مبدأ حياته.

إن السحاب يغطي الشمس، والأقوال الكثيرة تبلبل النفس التي أشرقت على الاستنارة بتصور الصلاة.

إن الطائر الذي يسمى أدريوس يسر ويفرح حسب قول الحكماء في الوقت الذي ينفصل فيه عن المسكونة ويمضي لمكان قفر ويسكن فيه لكي يفرخ، هكذا نفس الراهب تقبل الفرح السمائي في ذلك الوقت الذي تبتعد فيه عن الناس، ويمضي ويسكن في بلد السكون وتتوقع هناك وقت خروجها.

قد ذُكِر عن الطائر المعروف بالسيرين أن كل من سمع غناءه وتغريده، يتقيد وراءه في مسيره حتى أنه من لذة اللحن ينسى حياته فيعطب ويهلك، هذا يشبه أمر النفس، وذلك إذا حلت فيها عذوبة سماوية فإنها من عذوبة لحن أقوال الله تعالى الواصلة إلى الإحساس العقلي تمضي بجملتها وراءه حتى تنسى حياتها الجسمانية ويعدم الجسم شهواته، وترتفع النفس إلى الله عز وجل من هذه الحياة.

حياة هذا العالم لذيذة ولكن ليس كمثل الذي يبتعد منه بالشهوة في اللـه.

إن الشجرة إن لم ترمِ أولاً الورق العتيق، فلن تأتِ بأغصان جدد، والراهب إن لـم يرمي من قلبه ذكر الأمور وأوائله السالفة ويبعد من كل ملاقاة فلن يقدم ليسوع المـسيح أثماراً جديدة (جيدة).

إن الهواء يسمن الثمار، والاهتمام بأمور اللـه عز وجل تسمن ثمار النفس.

الصدفة تتولد فيها اللؤلؤ بأن تقبل من الهواء مادة كما يزعم الخبر، وهى إلى ذلك الوقت جسم مجرد، وقلب الراهب إن لم يقبل المادة السمائية بواسطة الإفهام بحصافة فعله مجرد ليس له ثمرة عزاء.

أثمار الشجرة عفصة ومرة في مذاقتها ولا تصلح للمأكل حتى تقع الحـلاوة مـن الشمس، وأعمال التوبة الأولى مرة عفصة جداً ولا تعزي الراهب حتى تقع فيها حـلاوة الثاؤريا وتنقل القلب من الأرضيات وينسى ذاته.

الكلب إذا لحس المبرد يشرب من دمه ولا يعلم المضرة من قبـل حـلاوة دمـه، والراهب إذا ما انثنى إلى شرب كأس المجد الفارغ حسب قول الآباء، فإنما يشرب مـن نفس حياته ولا يحس بأضراره من العذوبة الحادثة له كل ساعة.

إن مدحة العلمانيين صخرة مستورة في البحر وليس يعلـم بهـا النـوتي إلـى أن تصادفها السفينة وتُثقب من أسفل وتمتلئ مياهاً، هكذا يفعل المجد الفـارغ حـسب قـول الآباء: إن به ترجع إلى النفس كل الآلام التي كانت قد انقلبت وخرجت منها دفعة واحدة.

غمامة صغيرة تستر كرة الشمس، والشمس مع تلك الغمامة حارة جـداً، وضـجر يسير يستر النفس، والفرج بعد ذلك عظيم.

حلاوة الكلام من غير أعمال لا تنفع، لأنه إذا انتقل عنها الإنسان يخزى بالأكثر.

كما أنه لا يمكن إذا شرب الإنسان خمراً أن لا تفوح الرائحـة مـن فيـه، هكـذا لا يستطاع أن يؤهل إنسان للنياح الروحاني بتدبير سيرته، ولا تظهـر غيـارات أمـوره للحكماء القلب.

الذي قبل الزرع السمائي متغير بكلامه، متغير بضميره، صغير بـسيرته، متغيـر بحواسه، وبكل شيء ... متغير من بقية الناس وهو كإنسان كان نائماً وانتبه من نومه.

لا تدن من أقوال الأسرار الموجودة في الكتب الإلهية خلواً من الصلاة والتمـاس معونة اللـه تعالى، وقل جد علي بإحساس القوة الموجودة فيها، واعتقد أن الصلاة مفاتيح الإفهام الحقيقية المنصوصة في الكتب الإلهية.

إذا أردت أن تدنو من اللـه تعالى بقلبك، فاظهر أولاً له شوقك بتركـك الأمـور الجسدانية فمنها ابتداء السيرة لأنها عظيمة.

يدنو القلب عظيماً إلى اللـه تعالى عندما يعيش بعوز ما تـدعو إليـه الحاجـة، وباقتصار على نوع واحد من الغذاء، وبإتباع الأعمال، والرب صنع أُسساً من هنا للكمال.

تصور أن البطالة مبدأ ظلمة النفس، وظلمة على ظلمة محادثات الأقوال، والثـاني علة الأول.

وأقوال المنفعة إذا كانت على غير نظام فهى تصنع ظلمة.

إن النفس تتشتت بكثرة المحادثات، ولو كان غرضها نحو معرفة خـوف اللـه تعالى.

إن ظلمة النفس تتولد من رداءة نظام السيرة وعدم الترتيب، والقصد فـي الـسيرة بقياس ومقدار ينيران القلب ويزيلان الاخلاط.

إن اخلاط الذهن الحادث عن رداءة النظام يصنع في النفس ظلمة، والظلمـة تجلـب الكدر.

السلامة تكون من حسن النظام والترتيب، والنور يتولد في النفس من السلامة، ومن السلامة يتولد الجو الصافي وبحسب دنو القلب من الحكمة هكذا يقبل الفرح مـن اللـه تعالى.

الفرق بين حكمة الروح وحكمة العالم على هذه الصفة أنك تحس في نفسك:

- في حكمة الروح يستولي عليك الصمت.

❖ أما في حكمة العالم فإنك تفيض ينابيع طياشة واسترخاء.

وبعد وجود الحكمة الأولى تمتلئ النفس اتضاعاً كثيراً وسلامة ووداعة تملك على كل الأفكار، وتهدأ أعضاؤك من الخباط والتعري على النظام. وبعد وجود الحكمة الثانية يتعظم عقلك وتحصل فيه آراء وظنون مختلفة الأفكار والمعاني لا توصف، واتقاح في الحواس وتصلف.

لا تظن أن إنساناً مربوط بأمور جسدانية تصير له دالة في الصلاة قدام الله تعالى.

النفس الشحيحة تعدم الحكمة، وأما الحكيمة فتتحكم من الروح.

كما أن الزيت يغذي ضياء المصباح، هكذا الرحمة تغذي المعرفة داخل النفس.

إن مفتاح المواهب الإلهية يلج على النفس بمحبة القريب وبحسب انفكاك القلب من رباط الجسم، على ذلك الحد ينفتح قدامه باب المعرفة.

عبور النفس من عالم إلى عالم هو قبولها الإفهام.

إن محبة القريب ممدوحة وحسنة إن لم يصرفنا الاهتمام بها عن محبة الله تعالى.

إن محادثة الاخوة الروحانيين لشيء عذب إن نحن قدرنا أن نحفظ معها المحادثة مع الله سبحانه وتعالى، فإنه جيد هو الاهتمام بهاتين ما دام ينبعثان على الأوجب ولا يشغل بهما عن العمل الخفي والسيرة الكتومة والمفاوضة لله تعالى دائماً.

لأن اضطراب الثاني من ثبات الأول والعقل لا يتمكن من مفاوضتين.

إن مفاوضة العلمانين تجعل في النفس الهاجرة لهم اختلاط لأجل عمل الله تعالى.

أما الاخوة العلمانيين فإن الحديث الدائم يؤذي، وأما أهل العالم فنظرهم فقط من خارج يؤذي.

مصادمة الحواس لا تمنع من الأعمال الجسمانية، وأما المريد أن يقطف المسرة من سلامة الفكر بالعمل الخفي، فإن الأصوات خلواً من النظر فقط تزعج هدوء قلبه.

الميتوتة الداخلة لا تتقوم خلواً من بطالة عمل الحواس، وأما تدبير السيرة النفسانية فتحتاج إلى تيقظ القلب وانتباهه.

كما أن النفس بالطبع أفضل من الجسم هكذا هو أيضاً عملها، وكما أن في القـديم تقدم حبل (خلقة) الجسم على النفخة، هكذا الأعمال الجسمانية تتقدم على العمل النفساني.

إن السيرة الصغيرة الدائمة العظيمة القوة، إن النقطة اللينة اللطيفة الدائمـة تثقـب الصخرة الصماء.

إذا دنى فيك نهوض الإنسان الروحاني، فإن الميتوتة من كل الأمور تتولـد فيـك وتتيقظ فيك وتشعل حرارة السرور في نفسك التي لا قياس لها في المخلوقين، وتنقـبض أفكارك داخلاً منك باللذة الموجودة في قلبك.

ومتى ما ابتدأ العالم ينهض فيك، تكثر طياشة الأفكار في قلبك، والرأي الـضعيف بلا قيام وفقد السكون.

وأشير بالآلام التي يولدها الافتخار والطياشة، وإذا ما ولدت وكبـرت وصـارت خطايا وقتلت الإنسان.

لا تتكون الآلام خلواً من تعظم القلب.

كما أنه لا يولد بنون من غير أم، كذلك لا تولد الآلام من غير طياشـة الأفكـار. ولا تكمل الخطية من دون مفاوضة الآلام.

إذا كثر الصبر في أنفسنا فهو دليل على أننا أخذنا في الظـاهر الغـامض نعمـة العزاء، لأن قوة الصبر أشد قوة من المعاني الحاصلة من فرح القلب.

الحياة باللـه تعالى هى سقطة الحواس وخمولها.

إن القلب إذا عاش انهدم منار الحواس، ونشوة الحواس موت القلب، ذلك انهـد إذا نهض دلت على ميتوتة القلب من اللـه عز وجل.

إن العقل يتناول الاستقامة من الفضائل المصنوعة بين الناس، وذلك أن الفـضيلة التي يصنعها الإنسان بتوسط آخرين ما تقدر على تطهير النفس.

لأنها تكون لدى اللـه سبحانه عملاً لاستدعاء مكافأته، وأما التي يفعلهـا الإنـسان بعيداً عن الناس فتكمل الأمرين معاً، تستدعي الثواب وتطهر النفس، فلذلك الخليق بنـا أن

نبتعد من الأول ونقفو الثاني، لأن إهمال الأول مع الابتعاد من الاهتمام بهذا هو الخيبوبة الظاهرة من الله تعالى، وأما الثاني فهو يكمل موضع الأول خلواً من فعله.

كن ميتاً بالحياة لتعتق من ميتوتك، كن ميتاً من الكل لتعتق من السنن التـي بهـا يتدبرون لأنه ولا واحد منهم وصل إلى تكميلهم بهذه الحياة.

مائت حي انعتق حيث كان حياً مع الله، أو صار حياً لما مات عن العالم.

من له اهتمام بالمحادثات اعلم أنه أعمى من الله تعالى.

النفس التي أحست بالحياة التي تفوق الجسد، لا تهتم بما للعالم، بعـد جهـد يقـدر الإنسان أن يتهاون بهؤلاء إن لم تجد أولئك، وأما بالكمال لا.

الذي يصابر إنما يحرك على نفسه جهاداً عظيماً، بدون وجود هؤلاء بغير مجاهدة ما يقدر أن يجدد أولئك.

إن الراحة والبطالة هلاك للنفس، وأنهما يؤذيان أكثر من الشياطين. وأما الشياطين إذا كانت النفس نيرة، وبأعمال الفضيلة مجتهدة لا يقدرون أن يجوزوا هناك.

وأما النفس المظلمة هى بنفسها ترشد الشياطين إليها ليكملوا فيها كل الشرور.

إن الجسد الضعيف إذا أكرهته على فعل ما يزيد على قوته، وضعت فـي الـنفس ظلاماً على ظلام، وأوردت إليها اختلاطاً واضطراباً.

وأما الجسم القوي إذا أنت نيحته وأرحته من العمل، فإن كل رذيلة تتم في الـنفس الساكنة فيه.

وإن أثر الإنسان الخير بعد قليل فإنه ينتزع منه.

متى سكرت النفس بسرور رجاءها وبذلك الفرح الذي بالله عز وجل، فإن الجـسم ولو كان ضعيفاً لا يحس بالأحزان من الجزل بالله تعالى، فهو يحتمـل ثقـلاً متـضاعفاً ولا يكترث لأنه يستريح بتنعم النفس ويساعدها فيما هى بسبيله.

إذا دخلت إلى فرح الروح إن أنت صنت لسانك أيها الأخ فإن الله يجـود عليـك بنعمة الخشوع واتضاع القلب، حتى أنك تعاين نفسك متوفرة منها، وبهذين تـدخل إلـى

حبور النفس، أما إن كان لسانك سليط ويغلبك، فصدقني فيما أقول لك... فإنك لست تقدر البتة على الانتشال من الظلام.

إن لم يكن لك قلب نقي، فلا أقل من أن يكون لك فم طاهر كما قال السعيد فم الذهب: " إن أردت أن تعظ إنساناً في خير يفعله فنيحه أولاً جسدياً، وأكرمه بكلام ود، لأنه لا شيء يبعث الإنسان على الحياء والانتقال من الرذائل إلى الفضائل مثل الخيرات الجسدية والكرامة التي يراها منك.

أما النوع الثاني هو حرصك على وجود الصلاح في نفسك، لأن الذي قد وجد نفسه بالصلاح والاحتراس بسهولة يجذب رفيقه إلى الحياة من دون وعظ بالكلام المحسوس.

وأما التهاون والانحلال فليس فقط يضران فاعلهم بل لناظريه وخلانه.

وأما الإنسان الذي يجذب رفقاؤه بصلاح أفعاله ويسبب لهم عمل الخير والغيرة عليه وبحسن منظره ينهض المتراخيين، ليس أحد يقدر ينعت عظم أجره.

لأن سكوت الفعل لتقويم آخرين أقوى من كلام الوعظ الذي يبكت بانحلال سيرته، لأنه إذا قومت نفسك ليس بقليل ينتفع رفيقك منك.

بمقدار ما يدخل الإنسان الجهاد من أجل الله تعالى، على ذلك الحد يصير في قلبه دالة في صلاته.

ما دام الإنسان ينجذب من أشياء كثيرة، فإنه يعدم المعونة من الله تعالى.

النفس الهادئة من كثرة الاهتمام لأجل الجسد تكون ساكتة بحركاتها.

كن حراً بالجسد لتؤهل لتلك الحرية التي بالروح.

كن مرتبطاً بحريتك لئلا تكون مربوطاً بنير العبودية لأعدائك.

إن كنت من أول وهلة تقدمت فأظهرت في نفسك مثال للانتقال من الحياة الزمنية بكثرة سكوتك فإنك تكون مائتاً بالكمال لإيضاح تلك البطالة المزمعة التي تكون بتبطيل اهتمام كل شيء بواسطة الموت.

لا لعاهات وأذيات الجسد لأن الموت سيأخذ ذلك منك.

لا تهرب من الموت لأن الله عز وجل قد رأى إنه بوساطة الموت أنك أعلى منه.

الباب الثامن والعشرون

****

عن الخاطر الأول :
الحركة الملائكية التي تصير لنجاح النفس
وتقدمة الاهتمام

****

إن الحركة الأولى الحالة في الإنسان من محبة الله تعالى للبشر هى المرشدة للنفس للخلاص، وتحصل في القلب من قبل خروج هذه الطبيعة ويتبع هـذه الحركـة بـالطبع التهاون بالعالم ومنه تبتدئ في الإنسان كل حركة صالحة قائدة إياه إلى الحياة.

وذلك أن القوة الإلهية التابعة للإنسان تصنع فيه كالإحساس متى أرادت أن تظهـر فيه الحياة.

هذه الحركة التي ذكرناها إن لم يطفئها الإنسان بالمعاملات والمشابكات العالميـة والكلام البطال. بل ينميها في نفسه بالسكون وملازمة التصور فإنها تقوده إلـى الثاؤريـا تصور لطيف لا يمكن لأحد أن يشرحه.

وهذا الفكر ما أكثر مقت الشياطين له، وأن يحرص بكل مقدرته على قلعـه مـن الإنسان ولو أمكنه لأعطاه ملك العالم كله ليقتلع فقط هذا الخاطر من فكر الإنسان، ولـو أمكنه لعطله بالانجذاب والمشابكة.

ولو قدر كما قلنا لفعل ذلك باجتهاد، لأنه علم الغاش أن هذا الفكـر إن ثبـت فـي الإنسان فإن عقله لا يستقر في الضلالة وأن حيله لا تدنوا منه.

وليس كلامنا في الهاجس الأول المحرك فينا ذكر الموت بالتذكر بل في كمال هذا الأمر الذي يصنع في الإنسان ذكره من غير مفارقة ومن اتصال هذيذه به وتعجبـه منـه يثبت منه أما ذاك ففكر جسماني، وأما هذا فنظر روحاني ونعمة عجيبة.

وهذه النظرة عجيبة لابسة حركات روحانية ومعان فاضلة، ومن له هذا التـصور ما يعني بهذا العالم، ولا يجنح إلى الجسد.

حقاً أيها الأحباء إن الله تعالى لو ترك التصور الحقيقي زماناً لبقى العالم بلا خلاف. هذا التصور رباط لا تقدر الطبيعة أن تقف أمامه.

والذي قد حظى على هذا الهذيذ في نفسه فقد حظى بنعمة من الله تعالى أقوى مـن كل الأعمال الجزئية، وهذه الموهبة يجاد بها على الذين كـانوا فـي الطبقـة الوسـطى المؤثرين التوبة باستقامة القلب وتمنح على الحقيقة للذين قد علم الباري عز وجـل أنهـم يليقون بالانعزال على الحقيقة من العالم لطلب الحياة التي هـى أفـضل لأجـل إرادتـه الصالحة التي أوجدها فيهم وتنمو هذه الموهبة فيهم ويتصل مكثها باختصاصهم بالـسكون الفريد.

وهذه هى التي ينبغي لنا أن نلتمسها في صلواتنا، وأن نسهر السهر الطويل لأجلها ونسكب الدموع إذ منزلتها منزلة نعمة لا شبيه لها ليجود علينا الرب والجدير بنـا إذاً أن نطلبها.

فلسنا بعد ذلك ممن يضعف في شقوة هذا العالم هذه هى مبدأ أفكار هـذه الحيـاة المكملة في الإنسان كمال كل بر.

الباب التاسع والعشرون

في العمل الثاني : الموجود في الإنسان :
العمل البار

إنه ليوجد بعد هذا العمل عمل آخر، وهو إذا ما تصرف الإنسان نعـم التـصرف، وسار السيرة الصالحة ولحق بالارتقاء إلى جهة التوبة وقـرب أن يـذوق مـن ثاؤريـا عمله.

فإذا ما أدركته النعمة من العلاء وذاق حلاوة معرفة الروح فإن ابتداءه من هاهنـا يكون ويثبت ذلك خاصة من سياسة الله تعالى الموجودة في الإنسان ويتـضع ويـستنير بمعرفته للخليقة وتقوم الناطقين واهتمامه الكثير بهم.

ومن هاهنا يبتدئ فيه الشغف بالله سبحانه وتعالى واشتعال محبته المضطرمة فـي القلب والمحرقة لكل ألم في النفس والجسد ويحس بهذه القوة أنها موجودة في كل طبـائع الخليقة وتقوم الناطقين في كل أمر يلقاه ويسكر منها كمثل الخمر وقتـاً فوقتـاً. وتنحـل أعضاءوه ويمكث فكره حائراً ويسبي قلبه خاف الله تعالى ويصير هكذا كما قلت كإنسان سكر من الخمر.

وبمقدار ما تتقوى الحواس الباطنة على ذلك الحد يتقوى ذلك القصور الذي لهـذه النظرة وبمقدار ما يجتهد في التدبير الجيد والاحتراس والمواظبة على القراءة والصلوات بذلك المقدار تتمكن فيه قوتها وتثبت.

حقاً يا إخوتي إن هذا يأتي وقت تذكره ذاته وأنه لابس جسداً وليس يعلم أنه في هذا العالم هذا هو ابتداء التصور الروحاني الموجود في الإنسان.

وهذا هو مبدأ التصور بالنظرة الروحانية واستعلانات الفكر كلها وبه ينمو القلب في الغوامض ويتقوى وبه يتدرج إلى ما سواه فيما يعلو على الطبيعة البشرية.

وباقتصار أقول أن ببدء هذا التصور ينتقل الإنسان إلى كل التـصورات الإلهيـة وبالاستعلانات التي للقديسين في هذا العالم وما يمكن للطبيعة أن تعرفه في هذه الحياة من الانكشافات والمواهب.

هذا هو أصل الإحساس بخالقنا ...

لسعيد هو الإنسان الذي حفظ هذا الزرع الصالح إذا ما حل في نفسه وأنمـاه ولـم يبدده عنه في الأباطيل ولا في الطياشة في الأمور الزائلة.

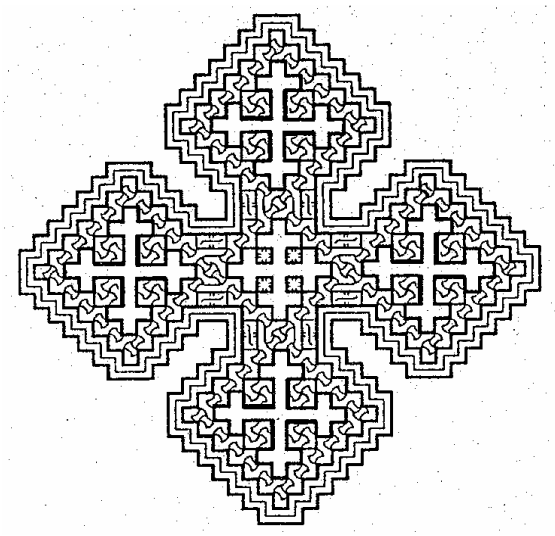

الباب الثلاثـون

عن التغيير الحادث في النفس
في وقتي النور والظلام كليهما
وفي التنقل الحادث من الميامن والمياسر

الخليق بنا أيها الأحباء أن نتأمل في أنفسنا في وقت الصلاة إن كان لنـا تـصور بألفاظ التزمير والهذيذ والصلاة، لأن هذا يحدث من السكون الحقيقـي والجـدير بنـا أن لا نقلق في الوقت الذي نحصل فيه في ظلام ولا سيما متى لم يكن السبب منا.

فاعلم أن ورود ذلك بسياسة من الله تعالى لأجل هذه السياسة التي علمها الله وحده وتختنق نفوسنا وتصير كأنها في أمواج، ويكون الإنسان في ظلام منوط بظـلام يـذهب صنف ويأتي صنف، إن قرأ في كتاب أو خدم مهما باشر أو صنع وعلى أكثر الأمر مـا يترك أن يدنو مما هو مباشر له وأن يكون في سلام.

وهذه الساعة مملوءة من كل يأس وخوف والثقة بالله تعالى وعزاء الأمانة لا يوجد فيها، وهذه كلها مملوءة من كل شك وتقمقم وجزع والذين امتحنوا برامـوز هذه الساعة هم يعرفون من نفس الامتحان التغير التابع عند كمالها.

إن الله عز وجل لا يترك النفس في هذه الحالة يوماً كاملاً وإلا خابت من رجـاء المسيحيين، أما إذا تكاثر مكث ضغط هذه الظلمة فتوقع في وسطها تغيير حياة.

أنا أشيد عليك أيها الإنسان إن لم تكن لك استطاعة بإمساك ذاتك وأن تسجد علـى وجهك في صلاتك بأن تلف رأسك بملفحتك وتنام إلى أن تزول عنك ساعة هذه الظلمـة ومن منزلك لا تخرج.

وهذا ضرب من التجارب يمتحن به المؤثرون أن يتصرفوا جداً بسيرة تدبير العقل والمشتاقين إلى عزاء الأمانة في سيرتهم، ولذلك تجلب لهم هذه الساعة وجعاً ونصباً أكثر من كل وقت بتقسم الفكر.

ويتبع هذا تجديف قوي، وتارة يعرض لهذا الإنسان الشك في القيامة وأشياء أخرى لا يليق بنا أن نتفوه بها وقد تجربنا بهذه كلها مراراً عديدة.

والذي بعثنا على تدوين هذا الجهاد، إيثاراً لتعزية كثيرين والمتـسيرون بالأعمـال الجسدانية، هم فقط خارج عن هذه بالكلية والضجر يلم بهؤلاء وما يشابههم.

وصحة هذا الإنسان وطبه من هذا وما يجري مجراها إنما يتوجه مـن الـسكوت والهدوء هذا هو عزاؤه.

وأما في المحادثة والمفاوضة لا يقبل البتة نور العزاء ولا يشفي مرضه بمخاطبـة الناس بل يسكت وقتاً ما ثم بعد ذلك يعاود إليه أكثر وأقوى مما كان وأنه يحتاج ضرورياً إلى إنسان مستنير وله حنكة وتجربة بهذه الأشياء وتجربة بهذه الأمور ليستضيء من جهة وقت الحاجة لا دائماً.

طوبى للصابر في هذه الأشياء داخل الباب فإنه يبلغ إلى ثبات جسيم وقوة عظيمـة بعد هؤلاء كما يزعم الآباء، وعلى كل حال فإن هذا الجهاد لا يزول في ساعة ولا يذهب بسرعة، وكذا النعمة لا تأتي بالكمال في دفعة وتسكن في النفس، بل قليلاً قليلاً ومن هـذه ومن تلك يكون في وقت تجربة وفي وقت عزاء ولا يزال ملازماً لهذه الأمور إلـى أوان الخروج.

فسبيلنا أن لا نتوقع التغرب من هذه بالكمال هاهنا، ولا أن نتعزى أيضاً بالكليـة، فإن الله تعالى هكذا رأى أن يدبر حياتنا هاهنا وأن يكون السالكون فـي هـذا الطريـق مباشرين لهذه الأشياء.

الباب الحادي والثلاثون

يتضمن أقوالاً نافعة
عن المماحكة

إنسان مماحك لا يظفر بسلامة الفكر.

العادم من السلامة هو العادم من الفرح، لأنه يقال: أن سلامة الفكر هى الصحة الكاملة.

والمحاك هو ضدها، إذاً من هو محاك رديء فقد مرض مرضاً عظيماً.

أيها الإنسان الظان إنك تورد (توجد) محاكاً (مخاصماً) مقابل الأمراض الغريبة اجتهد في عافية نفسك، لأنك بهذه المماحكة تطرد عنك الصحة.

إن كنت تؤثر أن تداوي الضعفاء فاعلم أن المرضى حاجتهم إلى الاهتمام أكثر من الرجز والانتهار.

وعلى أنك إذا أنت عاضدت آخرين إنما تلقى نفسك في مرض عظيم مؤلم.

المماحكة مع الناس ما تأتي من أنواع الحكمة، بل أمراض النفس هى ضيق وضعف الفطنة، وكثرة الجهل وعدم المعرفة، والذي هو مريض بالمماحكة إنما هو سقيم بكل الأوجاع والآلام.

ابتداء الحكمة الإلهية الهدوء والوداعة والملاطفة المتولدة من نفس جليلة وتحمل ضعف الناس حسب قوله: **" فيجبُ علينا نحن الأقوياء أن نحتمل أضْعَاف الضُّعفاء، ولا نُرضي أنفُسنا "** (رو ١٥ : ١)، واصلحوا الزلل بروح متضعة (غل ٦ : ١)، وهذا التصرف يكون من نفس جليلة القدر وعقل سديد وقلب مكين لأنه يحمل عجز المقصرين

من الناس.

والرسول يرى أن تثقيف الزلل بروح الوداعة إنما هو من أثمار الـروح القـدس، وأيضاً السلام والاحتمال.

قلب مملوء حزن لعدم كفوءه وعجزه من الأعمال الجسدانية الظاهرة هو حد كـل الأعمال الجسدانية.

أعمال الجسد متى كانت بمعزل عن حرص العقـل إنمـا كجـسم لا نفـس لـه، والمحزون بالقلب هو منحل بحواسه وهو كمريض يؤذيه جسمه وفمه يولع بكـل غـذاء يضره.

والمحزون بالقلب وطامع سائب الحواس هو كإنسان له ولد وحيـد يذبحـه بيديـه قليلاً قليلاً.

حزن القلب موهبة كريمة من الله تعالى، والحامل له كما ينبغي له بكل واجباته هو كإنسان حامل في أعضاءه القدس.

الإنسان المطلق لسانه على الناس بكل جيد ورديء، لا يؤهل لنعمة الله.

توبة حديثة مع حديث بلا ضابط مع الناس تشبه خابية مثقوبة.

مواهب وتهاون مع طنجرة كسكين ملطخ بعسل.

عفة ومحادثة مع امرأة كلبوة مع خروف في بيت واحد.

أعمال مع قساوة قدام الله تعال، كإنسان يضحى ولداً قدام أبيه.

من هو مريض ويقوم رفقاءه كإنسان أعمى يقود آخرين في الطريق.

رحمة وعدل بتمييز المستحق من غير المستحق في نفس واحدة كإنسان يسجد للـه تعالى وللأصنام في بيت واحد. الرحمة ضد العدل.

أما العدل فهو مقابلة الواحد بما يستحق من غير انحراف ولا رياء في العطية.

أما الرحمة فإنها حزن يتحرك من النعمة ويتجاوز للكل عـن هفـواتهم. تكـافئ المسيء عن سيئته مسامحة. وتضاعف الخير لمستحقه، فإن كانت هذه من ناحية البر، فإذاً تلك من ناحية الجود.

كما أنه لا يثبت في بيت واحد نار مع قش، هكذا لا يقيم في نفس واحدة عدل مع رحمة.

كما أن الرمل لا قيمة له بالقياس إلى الذهب، كذلك قضاء اللـه العـادل لا يقـاس ولا يقدر برحمته، كحفنة رمل وقعت في بحر عظيم، هكذا خطايا البشر بالقياس إلى ينبوع رحمة الله عز وجل.

وكما أن العين الفائضة مياهاً غزيرة لا تنسد بحفنة تراب هكذا الله عز وجل ذنوب البرايا لا تغلب رحمته.

إن الحقود يستثمر من صلاته ما يستثمر الزارع في بحر من الحصاد.

كما أن شعاع النار لا يمكن إمساكه عن الطلوع إلى فوق، هكذا صلوات المرحومين لا يمكن إلا وترتقي إلى السماء.

كما أن جريان الماء لا يتوجه إلا إلى أسفل، هكذا قوة الغضب إذا ألفـت موضـعاً في فكرنا.

من واضع قلبه فإنه قد مات من العالم، ومن مات للعالم فقد مات للآلام. ومن مات بقلبه من خواصه وأصحابه فقد مات المحال منه. ومن وجد الحسد فقد وجد معه الشيطان الذي كان قد أوجده منذ القدم.

الاتضاع على دربين: الواحد من مخافة الله تعالى، والآخر من المحبة له، وذلـك أنه قد يوجد متواضع من أجل الخوف، وقد يوجد من أجل الفرح.

أما المتواضع من أجل الخوف من الله تبارك اسمه فتلازمه وداعة الأعـضاء مـع حسن ترتيب الحواس وقلب منسحق في كل وقت.

وأما المتواضع من أجل النعمة فتلازمه بساطة كثيرة وقلب ينمو ولا يمتسك.

المحبة لا تعرف الحياء ولا تستحي، لذلك ما ترى أن تبرز شـكلاً وترتيبـاً فـي نظام أعضائها.

المحبة لها بالطبع ألا تستحي وتنسى مقدارها، لـسعيد الواجـد إيـاك يـا مينـاء وكل السرور.

إن جميع المتواضعين محبوب عند الله تعالى كجماعة السيرافيم.

إن الجسم الكريم العفيف لكريم عند الله تقدس اسمه أكثر من الأضحية الطـاهرة. وذلك لأن هذين، أعني التواضع والعفة ضامنان للنفس بحلول الثالوث المقدس فيها.

ليكن تصرفك مع أصحابك بشكل خشوع، فإذا ما صنعت هذا نفعت ذاتك وإياهم.

لأن النفس بحجة المحبة ما أكثر ما ترمي لجام لاحتراس.

تحفظ من المحادثات لأنها لا تنفع في كل وقت.

استعمل الصمت في وسط الجموع لأنه يمنع خسارة كبيرة.

احترس من جهة البطن لا كالنظر، لأنه قتال خاص أخف من الخارج ممـا لا شـك فيه.

لا تصدق أيها الأخ أن الأفكار الداخلة في الفكر تنعاق عما هى فيه خلواً من ترتيب الجسد وتصرفه بنظام وأن يكون على الحال الحميدة.

تخوف من العادات أكثر من الأعداء.

إن من يربي عنده عادة كمن يربي ناراً بكثرة الوقيد، والدليل على ذلك أن مقـدار قوة الاثنين يتقوم بالمادة، أما العادة إذا ما طالبت دفعة ولم تستجب لها فإنك في وقت آخر تجدها ضعيفة، وإذا أنت صنعت مرسومها دفعة فإنها تتقوى عليك في الثانية أكثـر ممـا سلف.

في كل أمر ليثبت عندك هذا الذكر: إن المساعدة من الاحتراس أكثر من المساعدة التي من الأعمال.

لا تكن صديقاً لمحب الضحك، والمؤثر أن يهتك الناس ويشهر بهم لأنه يقودك إلى اعتياد الاسترخاء.

لا تظهر بشاشة في وجهك للمنحل في سيرته وتحفظ مـن أن تبغـضه، وإن أراد النهوض فآزره واهتم به إلى الموت، وإن كنت ضعيفاً فاترك التطبيب لغيرك.

لا تتكلم أمام المفتخر البعيد الغور المتوفر على الجسد إلا بتحفظ لئلا يصنف كلامك في قلبه كما يحب ويأخذ مناقبك الجميلة، مادة يعثر بها الآخرين، ويغير أقوالك في فكـره

حسب هيولي قلبه المريض.

عبس وجهك في من يبتدئ يقع في أخيه قدامك فإنك إذا فعلت هذا تكون متحفظـاً عند الله تعالى وعنده.

إذا أعطيت شيئاً لمحتاج فليتقدم عطاؤك بشاشة وجهك، وعز حزنه بلطيف الكـلام فإنك إن صنعت هذا وقع في قلبه وعقله بشاشتك أكثر من عطيتك له بما يقيم أود جسده.

إذا فتحت فمك بانتهار وطعنت على إنسان ما فاعلم أنك إنسان مائـت عنـد اللـه سبحانه وتعالى، وبطال في كل أعمالك، ولو ظننت أن الذي بعثك على الكـلام التقـويم والعمارة.

يا ليت شعري ... أية ضرورة تلجئ الإنسان أن يهدم بناءه ويأخذ في عمارة رفيقه وتثقيفه.

في اليوم الذي يكون لك فيه حزن جسماني أو نفساني من قبل امرئ ما مريض في جهة من الجهات إما من أجل أخيار الناس أو أشرارهم، فاعتقد أنك شهيد في ذلك اليـوم، وكن بمنزلة متألم من أجل المسيح تعالى، ومؤهل للاعتراف به، وتذكر أنـه مـن أجـل الخطاة مات لا من أجل الأبرار.

تأمل عظم هذا الأمر وهو أن يحزن الإنسان من جهة الأشرار ويحسن للمجـرمين أكثر من الصديقين، والرسول ذكر هذا على أنه أهلاً لأن يتعجب منه.

إن قدرت أن تتبرر في ذاتك بنفسك فلا تصرف الاهتمام بأن تطلب براً من موضع آخر.

في كل ما يختص بك: لتتقدم فيك العفة، عفة الجسد وطهارة الضمير في جميع ما تفعل، لأن كل أمر باطل عند الله إذا كان بمعزل عن هذين.

كل عمل تعمله من غير روية وبحث ومن غير مشورة فاعلم إنه باطل ولو كـان لائقاً، لأن الله جل اسمه يتأمل البر بحسب الإفراز ولا يلتفت إلى فعل يـشوبه غـرض وقصد بل همج وكيفما اتفق.

صديق ليس حكيم كسراج في الشمس.

صلاة الحقود كبذار وقع على صخر.

ناسك غير رحيم كشجرة لا ثمر فيها.

ردع صادر عن حسد كسهم مسموم، ومديح الغاش فخ مشير أحمق كضرير مرشد.

محادثة الفضلاء ينبوع عذب، ومجالسة غير الحكماء تفتت القلب.

مشير حكيم كسور رجاء، وصديق جاهل ذخيرة خسارة.

الأفضل مشاهدة النادبات في منزل البكاء من أن ترى حكيماً يتبع أحمقاً.

الأفضل أن تسكن مع الوحوش من أن تسكن مع الذين يتصرفون تـصرفاً رديئـاً، ومع الحكيم في عيني نفسه.

جالس المجذومين لا المتعظمين.

جالس الضباع ولا تجالس الشره الذي لا يشبع، وتحدث مع الخنازير ذات الحمـأة أفضل من فم الشرهين.

كن مطروداً لا طارداً.

انصلب ولا تصلب.

انظلم ولا تظلم.

ليقع فيك ولا تقع أنت في أحد.

توادع ولا تحتد، ولا تنافس في الشر.

تمسك بالجمائل لا بالحقد.

لا تعامل الناس بشرهم لأن العدالة ليست هى من تدبير سيرة المسيحيين ولا ذكرها مرسوم في تعليم المسيح.

افرح مع الفرحين وابك مع الباكيين لأن هذا الأمر هو علامة النقاوة.

تألم مع المرضى، ونح مع الخطاة، وافرح مع التائبين.

صر صديقاً لكل إنسان وكن وحدك في فكرك.

ساهم الكل في عوارضهم وابتعد من الكل بجسدك.

لا توبخ أحداً ولا الأشرار جداً لا تعيرهم بسيرتهم.

طوبى لِمن ابتعد عن الكل بالمفاوضة مع سيده.

اسبل سترك على المذنب واستره إن كنت لا تقدر أن تحمل وتوضع على نفسك أوزاره وتقبل الأدب والتحشيم عوضاً عنه.

لا تماحك ولا تخاصم من أجل البطن، ولا تبغض من أجل أن تُكرم، ولا تحب الرئاسة.

أيها الأخ اعلم أننا لهذا السبب ينبغي لنا الثبات داخل القلاية، وهو لئلا نعلم بأمور الناس الرديئة، بل يكون كل البشر في أعيننا صالحين وأفاضل ونصل بفكرنا إلى الذكاوة.

فإن صرنا موبخين ومؤدبين، ومنصفين وديانين ومحبين لعلاج الآخرين، فما الفرق بين مجالسنا ومجالس المدن؟ وإن لم نتخل من هذه الأمور فماذا يكون أسوء من جلوسنا في البرية ونحن على تلك الصورة ...

إن كنت ما تهدأ بقلبك فلا أقل من أن تسكت لسانك.

إن كنت ما تقدر أن ترتب أفكارك وتؤلف هواجسك على ما ينبغي، فما أقل من أن ترتب حواسك ترتيباً سديداً.

وإن لم تقدر على الافتراد فكراً، فلا أقل من أن تكون متفرداً جسماً، وإن لم تتمكن العمل بجسدك فاحزن بفكرك.

وإن لم تقدر تقف في سهر الليل فاسهر وأنت جالس، أو منضجعاً على سريرك.

وإن لم تتمكن من أن تصوم يومين يومين فصم إلى العشاء، وإن لم تقدر على هذا فتحفظ من أن تشبع.

إن لم تكن قديساً بقلبك فكن طاهراً بجسمك.

وإن لم تنح بقلبك فلا أقل من أن يغشى النوح وجهك.

وإن لم تقدر أن ترحم وتعطي صدقة فتكلم كخاطئ.

وإن لم تكن مسالماً مصالحاً فلا تكن محباً للإزعاج.

وإن لم تقدر أن تكون فاضلاً نشيطاً فلا أقل من أن تكون في فكرك بصورة

مقصراً فاشلاً.

وإن لم تكن مقاتلاً في ميدان الروح فلا تترفع على المغلوبين.

إن كنت لم تقدر أن تسد فم المتكلم على رفيقه فلا أقل من أن تحفـظ فمـك مـن مجاراته ومساهمته في هذا الأمر.

اعلم أنك إذا خرجت منك نار (الشر) وأحرقت آخرين فإن الله تعالى يطلب مـن يدك أنفس المحترقين بنارك.

وإن كنت يا هذا ما ألقيت ناراً بل وافقت راميها، وأرضاك فعله، فإنك تشاركه في الدينونة.

إن كنت تحب السلامة فلازم الوداعة.

وإن أوهلت للسلامة فابهج بها في كل وقت.

التمس فهماً لا ذهباً.

البس الاتضاع ولا الأرجوان.

اقتن سلامة ولا ملك.

لا يوجد لبيب فهم إن لم يكن متضعاً، لأن من ليس بمتضع فليس بلبيب.

لا يوجد متواضع العقل دون أن يكون مسالماً، لأن من ليس هـو مـسالم فلـيس بمتضع العقل.

لا يوجد مسالم دون أن يكون فرحاً باش طلق الوجه.

إن الناس في كل الطرق التي يسلكون فيها الموجودة في العالم لا يجدون الـسلامة إن لم يتقربوا بالرجاء بالله تعالى، والقلب لا يهدأ ويسلم من التعـب والمعـاثر إلـى أن يدركها، فأما ما هى: أعني الثقة والرجاء بالله.

فإنها تسلم القلب وتفيض عليه البهجة، وهى التي ذكرها الفم المسجود له المملـوء قدساً، إذ يقول: **" تعالوا إليَّ يا جميع المُتعبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحُكُم " (مت ١١ : ٢٨).**

نعم إدن من الرجاء بي والاعتماد علي فأريحك من عملك وخوفك.

إن رجاء الله سبحانه يرفع القلب ويعليه، وأما خوف جهنم فيسحقه.

نور العقل يولد الإيمان، والإيمان يولد عزاء الرجاء، والرجاء يقوي القلب.

الأمانة هى استعلان الأفهام، وإذا ما أظلم القلب تختفي ويستولي علينـا الخـوف ويقطع رداءنا.

الأمانة الحادثة عن التعليم لا تعتق الإنسان من العظمة والظنون والشكوك، بل التي بالفهم تظهر وتسمى استعلان الحق، وتنظر بالحق والعقل ما دام العقل يعرف الله كإلـه بانكشاف الأفهام به فليس يدنوا من القلب فزع.

فإما أن خلينا في الظلام وضاع منا هذا العلم لكي نتضع يعرض لنا الخوف لكـي يدنينا للاتضاع والتوبة.

إن ابن الله تعالى احتمل الصلب، وأما أنتم يا معشر الخطاة فتقووا بالتوبة.

لأنه إن كان شكل التوبة غير السخط على آخـاب الملـك، فحقيقـة تـوبتكم الآن لا تذهب باطلاً.

وإن كان شكل الاتضاع الصادر عن ذلك الذي لم يكن صادقاً أزال الرجز والزجر، فبكم أولى أن يصنع ذلك فيكم الذي بالحقيقة تحزنون لأجل هفواتكم.

لأن حزن القلب يفي بكل عمل جسماني حسب قول القديس غريغوريوس الممتزج بالله تعالى، هيكل النعمة: يجب علينا الاهتمام بالدينونة، والعمل على التماس راحته فـي الأبدية، والحزن والغم ابدأ من أجل التقصير عن بلوغ الكمال لأجل ضعف طبيعتنا.

والحزن المتصل من أجل هذه الذي يحملها العقل بحركات عفيفة ويقدمها قدامه بندم متضع كالقربان في صلاته، وبكل قوته يتهاون عن الاهتمام بالجسم.

وهذا هو الحامل في نفسه ذكر الله الدائم، كما قال السعيد باسيليوس: أن الـصلاة التي بلا طياشة هى التي تضع في النفس تصور الله دائماً، لكي بالذكر الدائم الذي نهذ به به يسكن فينا.

وعلى هذه الصفة نصير هيكلاً لله سبحانه وهذا هو الاهتمام الذي يكون بانـسحاق القلب في استعداد راحته.

الباب الثاني والثلاثون

في الأفكار الرديئة الحادثة كرهاً من قبل التواني الكائن قبلها

الأفكار الرديئة الحادثة من غير الإرادة إنما تكون من الانحلال الذي من قبلها، لأن قوماً من الناس يرون تقوية الجسم ويؤثرون نياحه قليلاً لأجل عمل الله تعالى، إلى أن يتقووا ثم يعودوا إلى عملهم.

فالخليق بنا إذاً في أيام استراحتنا القليلة أن لا ننقض بالكمال تحفظنا ونسلم أنفسنا كلها إلى الانحلال والاسترخاء، كأناس ما يؤثرون أن يعودوا أيضاً إلى عملهم.

هؤلاء الذين زخروا بالسهام في وقت السلامة، هؤلاء هم الذين زخروا لأنفسهم مادة دالة الإرادة وحصلوها في ذواتهم.

وإنهم ينظرون ويحسون بأنفسهم لابسين لباساً وسخاً في البلدة المقدسة، أعني في صلاتهم.

وهذا يتحرك في أنفسهم في وقت تصور الله وأثناء الصلاة.

وهذه الأشياء هى التي اقتنيناها في وقت توانينا، وهى تحزننا في وقت صلاتنا إذ لم نقدر أن نقدمها طاهرة.

لأن هذا حصل لنا من أجل تسيب حواسنا، وبقيت لنا خواص ملازمة لنا وتسبب هذه العثرات.

إن التيقظ والاحتراس معونة للإنسان أكثر من الأعمال، والانحلال يؤذيه أكثر من الراحات، والدليل على ذلك أنه يتحرك من الراحة قتالات خاصة تضغط العقل بسبب الراحة.

إلا أن للإنسان سُلطاناً أن يحلها ويبعدها عنه، لأن الإنسان إذا ما ترك الراحة وعاد إلى مكان العمل والجهاد ترتفع عنه وتهرب منه.

وليس ما يتولد من الانحلال والاسترخاء مثلما يتولد من التفتح والنيـاح، والـدليل على ذلك أنه ما دام في مكان حريته وهو في الراحة فيقدر أن يرجع أيضاً ويـدبر ذاتـه بملازمته قانونه إذ هو بعد في بلد حريته.

فأما في الاسترخاء فإنه يكون قد خرج من ديار الحرية.

لو لم يرم الإنسان من ذاته التحفظ لما اضطر أن يطيع الـذين لا ينيحونـه كرمـاً واغتصاباً لخداعهم.

لو لم يخل من ذاته حد الحرية لما صادمته عوارض تربطه وروادع تردعه بحكـم الاضطرار لا يقدر على مقاومتها.

أيها الإنسان لا تترك بلد حريتك بأية واحدة من حواسـك لـئلا يـصعب عليـك المعاودة، ولا تعود تقدر تدخل إليها أما الراحة فإنها تضر الشباب، وأما الاسترخاء فإنـه يؤذي الكاملين والشيوخ.

الذين قد خرجوا من الراحة إلى الأفكار الرديئة، يمكنهم العودة بالتحفظ والرجـوع إلى سيرتهم العالية.

وأما المتوانون بالتحفظ برجاء العمل، فقد اقتنصوا بسبي يؤول إلى انحلال الحياة.

قد يوجد من يضرب في بلادة الأعداء ولا ينهزم، وفي وقت السلام يقهر ويموت.

وقد يوجد من يخرج بحجة التجارة للحياة فيموت بسهماً طائشاً.

قد ينبغي لنا أن لا نحزن إذا ما زللنا في أمر ما، بل إذا ما لازمنا تلك الزلة وتمسكنا بها، لأن الزلل قد يعرض للكاملين أيضاً، فأما الثبات فيها ـ الزلة ـ فهو موت.

إن الحزن الذي نحزنه من أجل هفواتنا تنزله لنا النعمة منزلة العمل الطاهر.

إن الذي يزل برضائه ثانية ويأمل التوبة فإنه يتسير مع الله تعالى بمكر ودهـاء، فهذا يدهمه الموت وهو لا يعلم ولا تتم له إدراك أمله.

كل من كان منحلاً بحواسه، فأيضاً بقلبه منحل ومسترخي.

في الذين يظهرون كأنهم مجانين

في الذين يتزيون بزي الحماقة ويتظاهرون بها:

إن عمل القلب هو رباط الأعضاء البرانية. إن فعل هذا إنساناً بإفراز حسب من تقدمنا من الآباء المبجلين، فإنه باين من الأشياء الغريبة الظاهرة فيه أنه ليس بمرتبط بربح جسماني، ولا يحب لنهم البطن، والغضب بعيد منه بالكلية، لأنه حيث توجد هذه الثلاثة أشياء وهى الفائدة الجسدية إن كان بقليل أو بكثير، وحدة الغضب بسهولة والانقهار من نهم البطن.

فإنه ولو ظن إنساناً أنه مشابهاً للقديسين السابقين، فاعلم أن انحلال ما خارجه من قلة صبره فما داخله هو علة انحلال ما خارجه.

وليس لأجل محقرة نفسه بإفراز، وإن كان لم يتهاون بالأمور الجسمانية فإنه ما اقتنى الوداعة، لأنه يتبع محقرة النفس بإفراز إن لم ترتبط بشيء، وأن يرفض الراحة والاشتياق إلى الأنس.

وإن استعد الإنسان لقبول الخسارة بفرح من أجل الله تعالى، فإنه يكون نقي من الداخل.

وإن لم يزدري بأحد لأجل العيوب الموجودة فيه فإنه حراً على الحقيقة.

وإن لم يأتِ إلى مكرمة ولا يقطب وجهه مقابل مهينة فإنه قد مات من هذه الحياة.

إن التحفظ بإفراز لأفضل من كل تدبير وسيرة تصنع بكل نوع وجهة، وبكل مقدار ممكن للناس.

لا تمقت الخاطئ لأننا كلنا خطاة آثمون. وإن تحركت عليه من أجل الله تعالى، فابكِ وصل من أجل نفسه.

ولما تبغضه يا هذا؟ الجدير بك أن تبغض زلاته وتتضرع من أجله لتكون مشابهاً للمسيح سبحانه، لأنه اتكأ مع الآثمة غير واجد عليهم بل سائلاً فيهم.

أما ترى كيف انتحب على أورشليم ...

إن المحال ليضحك علينا في عدة أمور، فلم نبغض المضحوك عليه، وهو شبيهاً بنا من جهة المحال الضاحك علينا.

ولم تمقت الخاطئ أيها الإنسان لعله ليس بصديق مثلك فأين هو برك؟ وكيف أنـت بار وليس لك حب لأخيك؟ إن قوماً يتحركون جهلاً ويغضبون على أعمال الخطاة ظانين أنهم ذوو إفراز.

كن منادياً بصلاح الله سبحانه إذ يسوس أمورك أن عن غير استحقاق منك، وأن له عليك الدين الكثير وانتصافه منك لا يظهر فيك، وإنه يجازيك بالأمور العظيمة عن أعمالك الصغيرة التي عملتها.

فـي صــلاح اللّــه تعــالى

لا تَدُعُ الله تعالى عادلاً لأن عدله غير معروف في أعمالك وإن كان داؤد قد سماه عادلاً ومستقيماً، إلا أن ابنه جل وعز أوضح لنا أنه جواداً وصالحاً، لأنه يقول إنه صالح للأشرار والمنافقين.

كيف إذاً تدعو الله تعالى عادل إذا ما قرأت الفصل الذي يتكلم عن أجـرة الفعلـة ومعناه (**مت ٢٠ : ١٢ - ١٥**)، وقوله: يا صاح لست بغاش لك، أنا أريد أن أعطي هـذا الأخير مثلك، أم أن عينك شريرة لكني صالح.

وأيضاً ما مر بك في الفصل الذي يتكلم عن الابن الذي بدد كل أمواله في الجهالة، وكيف بما أظهره من الخشوع فقط بادر واحتضنه، وأعطاه سلطاناً على كل قنيانه، ولـم يذكر لابنه خطاياه السالفة ولا عاتبه عليها، فأين هو العدل في هذا .. ؟

ولكننا وإذ نحن خطاة مات المسيح سبحانه عنا. مات البار عن الفجار .. وإن كان هاهنا رحيماً فنحن نؤمن أنه لا يتغير، وكلا أن نعتقد هذا النفاق، إذا كانت خاصـية اللـه تعالى لا تتحول كما هو حال الأموات، لأنه ما اقتنى ما ليس له ولا يفقد ماله. ولا يستزيد ولا ينقص كالمخلوقات. بل ما هو له منذ البدء هو معه لا يفارقه، كقول القديس كيـرلس في تفسيره سفر الخليقة: فلترهبه من أجل المحبة لا من أجل الاسم العـادل (القاسـي) المطلق عليه.

وحبه إذ محبته عليك دين، لا من أجل المزمعات أي الملكوت الآتي، التي يعطينـا بل من قبل ما قد أخذناه، ومن أنه صنع هذا العالم من أجلنا.

ويا ليت شعري من ذا الذي يقدر مكافأته، وأين وجد جزاءه فـي أعمالنـا، ومـن ذا الذي بعثه على إبرازنا إلى الوجود منذ البدء. ومن الضارع إليه ونحن غير مـذكورين ولا في الوجود.

من ذا الذي أنهض جسمنا إلى الحياة، وقرن بهذا التراب المعرفة والتصور.

نراه لرحمته العجيبة ونعمة بارينا المذهلة وقوته الناهضة بالكل وصـلاحه الـذي لا يحيط به مقار.

الذي يجود على طبيعتنا نحن معشر الخطاة بالوجود أيضاً.

ومن ذا الذي يفي بتعديد شرفه ومجده إذ ينشر مـن الأمـوات المُتجـاوز سـننه والمُفترى عليه. ويُجدد التراب الذي ليس فيه كفؤاً أن يتصور نعمة القيامة.

وأين هى جهنم القادرة على أحزاننا. وأين هو العذاب المرهب إيانا إرهاباً مختلفاً، وما هى جهنم إذا قيست إلى نعمة قيامته لنا.

وهو الذي انتشلنا من الهاوية، وألبس هذا الفاسد عدم فساد، والجالب لنا جداً فـرح محبته ورفعه إيانا إلى الشرف والمجد بعد هبوطنا إلى الهاوية.

هلموا يا ذوي الإفراز وتعجبوا يا ذوي القلوب الحكيمة اللطيفة النجيبة كما يجـب بجود ربنا وبارينا.

إذ قد جازى المجرمين بدل المقابلة العادلة في القيامة من الأموات وألبسهم عوض تلك الأجسام التي وطأت ناموسه مجد الكمال.

هذه النعمة العظمى، أعني إقامته إيانا بعد هفواتنا، وإنها لأجل مـن تلـك، أغنـى إبداعنا من العدم.

السُبح لجودك يارب: الذي لا يحيط به المقادير ولا يقع عليه إحصاء.

يارب إن أمواج نعمتك قد بعثتني على الصمت ولم يبقـى فـي خـاطر ينـاقض ما يلزم وجوب حمدك وشكرك.

بأية أفواه نعترف لك أيها الملك الصالح الواد (المحب) لحياتنا،

المجد لك على العالمين اللاذين أبدعتهما لنمائنا ونعيمنا، قائداً إيانا إلى معرفة مجدك من كل ما أوجدت. إلى الأبد. آمين.

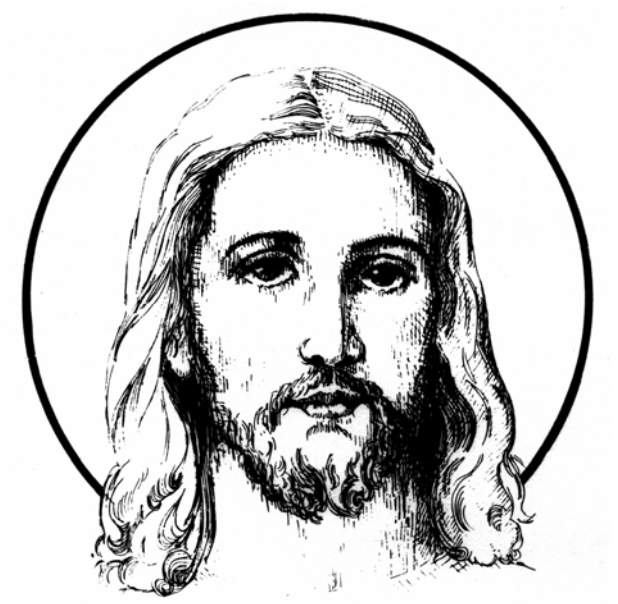

الباب الثالث والثلاثون

في الصبر من أجل محبة اللّه تعالى
وكيف المساعدة والمعونة منه

بمقدار ما يتهاون الإنسان بهذا العالم ويجتهد في خوف الله سبحانه، على ذلك الحد تدنوا منه العناية الإلهية ويحس بمظافرتها، إحساساً لطيفاً بالخفى وتعطى له حركات نقية ليفهم بها. ولو عدم الخيرات العالمية كرهاً من غير إرادته فمقدار ما يعدم منهما على ذلك الحد تتبعه رحمة الله وينشله جوده.

المجد لمخلصنا من الميامن والمياسر الذي يعطي كل السبل لخلاصنا، لأن الـذين يقصرون عن اقتناء حياتهم من غير إرادتهم وعزمهم ضعفاء، بالأحزان الذي من غيـر إرادتهم يبعث نفوسهم على الفضيلة بأحزان ليس إرادية، والدليل على ذلك أن أليعازر ذلك المسكين لم يعدم خيرات هذا العالم من إرادته، نعم وجسده كان موعوكاً بالجروح، وكـان به مرضان هما: الفقر والجوع كل واحد منهماً أردأ من الآخر ومع هذا فكُرم أخيراً فـي حضن إبراهيم.

إن الله تعالى من القلب المحزون الهاتف إليه قريب من صاحبه.

وإن نحن إذ عدمنا الأمور الجسمانية أو في وقت وقت ما يهمل عنا لكـي نحـزن بضرب من الأحزان، فما دمنا صابرين فإنه يجعل ذلك معونة كالطبيب الذي يتلطف فـي إيجاد الصحة في المرض المستعصي بما يورد من العمل.

نعم ويعزيه الرب كثيراً في نفسه بحسب صعوبة الأحزان التي كابدوها.

فأما إذا ما كان إيثار الاشتياق إلى المسيح ربنا ليس يستولي فيك هكذا حتـى أنـك تكون بمعزل عن الآلام في كل أحزانك لأجل فرحك به، فاعلم أن العالم حي فيك أكثر مـن

المسيح.

وإذا ما كان المرض والعوز وهلاك الجسم والخوف من الأشياء المؤذيـة تـزعج فكرك وتحيله عن بهجة آمالك ورجاءك وتصرفه عن ذكر هذيذ الثقـة باللـه، فـاعلم أن الجسد حي فيك لا المسيح سبحانه.

لأن ما استولى فيك وكثر وقوي شوقك إليه هو الحي فيك، فإما إن كنت بمعزل عن العوز وما تحتاجه عندك وجسدك صحيح ولا خوف يلم بك من الأضداد، وتقول حينئذٍ أنك تقدر أن تسير نحو المسيح مسيراً طاهراً، فاعلم أنك مريض العقل وعادماً لذوق مجد الله تعالى.

وليس قولي هذا لك على سبيل الدينونة لك، بل لكي تعلم فقط مقدار ما قد عرفتـه من الكمال. مع أن لك جزءاً من سيرة الآباء القديسين.

ولا تقول إنه ما يوجد إنسان قد ارتفع فكره بالكمال من الضعف إذا مـا اتوعـك الجسم بالتجارب والأحزان.

وإنه ما يغلب حزن القلب شيئاً من شوق المسيح له المجد، فأنا أسكت عـن ذكـر الشهداء القديسين من الخوف من أن لا أقدر على الثبات لدى شدة تجاربهم، وكم مقدار ما غلب صبر بعضهم الذي من قوة الحب لفناء جسمهم وشوقه.

بل لأن هذه الأمور بذكرها فقط تحزن الطبيعة البشرية لأنها تتـزعج بجـسامتها وعجيب تصورها.

والخليق بنا أن نتأمل الغير مؤمنين الموصوفين بالفلاسفة فإن واحد منهم قرر في نفسه حفظ السكوت زماناً ما، وأن ملك الروم عجب من سماع الأمر، وآثر امتحان ذلـك، فآثر أن يحضر بحضرته، فلما رآه صامتاً عن جواب كل ما كان يسأله عنه بالكلية غضب وأمر بموته لأنه ما احتشم من منبره وتاج مجده، فلم يخف من هذا الأمر بل حفظ ما قـد فرضه على ذاته وتهيأ للصمت حتى الموت.

وإن الملك قال للسيافين إن هو جزع من السيف ونقض ناموسه فـاقتلوه، وإن لـم

يكترث ولازم الصمت الذي سنه لنفسه فردوه إلى حياً.

فلما دنا من الموضع المرسوم، حزن الموصون به وأجبروه أن يحل ناموسه لكي لا يموت، وإنه فكر في نفسه وقال: الأفضل لي أن أموت في ساعة واحدة وأحفظ كرامتي إذ قد اجتهدت في هذا الباب زماناً هذا مقداره، من أن أنقهر للخوف وأهين فلسفتي وأوجد هنا فاشلاً من أجل الشيء الذي لا بد لي أن أذوقه في أي وقت كان.

وإنه مد عنقه للسيف من غير انزعاج، فرقي ذلك إلى الملك، فأعجب به وأطلق سبيله بإكرام.

وآخرون وطأوا الشهوة الطبيعية، وقوم احتملوا السب، وطائفة أخرى تصبرت على أمراض صعبة من غير اكتئاب ولا تذمر، وجماعة أخرى صبرت على كثير من الضواغط والضيقات الصعبة.

حتى إن إسكندر الأكبر الملك لنا اجتمع ببعض من هؤلاء، لم يسمع منهم شيئاً إلا رفض العالم.

فإن كان هؤلاء القوم - الفلاسفة - احتملوا هذه الأشياء لأجل المجد البطال والأعمال المخرفة والآمال الفارغة.

فنحن معشر الرهبان المدعوين إلى مشاركة المسيح له المجد فبكم أولى بنا الصبر لنؤهل لملكوت السموات.

بشفاعة سيدتنا الفائقة القدس

والدة الإله مريم الدائمة البتولية.

وكل الذين أرضوا المسيح سبحانه بعرق جهادهم،

الذي له ينبغي كل تمجيد وإكرام وسجود مع أبيه الصالح المساوي له في الأزل،

وروحه القدس المحيّ المساوي له الأزلية الآن ودائماً وإلى أبد الآباد والدهور كلها.

آمين.

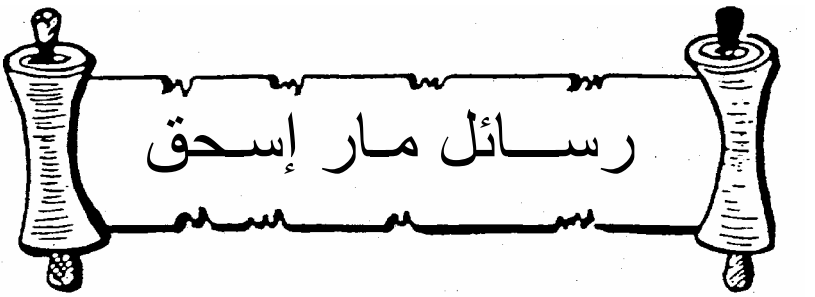
رسائل مار إسحق

رسالة لأخ يحب السكوت

من أجل أني أعرفك تحب السكوت، وبأسباب كثيرة يعرقلك الشيطان على وجه الخير لأنه يعرف غرض مذهبك في فكرك، لكيما يسجسك من هذه الفضيلة الجامعة الكثيرة الأجزاء.

أيها الأخ الفاضل ... مثل عضو لصاحبه، هكذا أعين هواك الحسن بكلمة منفعة من أناس حكماء ومن كتب الأبهات، في مثل هذا التدبير وبالتجربة اقتنيتها.

أولاً: أقول لك إن لم يتهاون الإنسان بالكرامة والهوان ويصبر من أجل السكوت للعار والهزوء والخسارة حتى وللضرب ويكون يسخر به ويظن به أنه أحمق تايه من كل من ينظر إليه لا يستطيع أن ينظر خيرات السكوت.

ثانياً: لأنه إن هو فتح بابه مرة واحدة لإنسان، ما يزال الشيطان يجلب عليه الناس بأسباب كثيرة دائماً ما لهم عدد.

من أجل هذا يا أخي إن كنت تحب غاية تدبير السكوت الذي ليس فيه سجس، ولا تثقل ولا انقطاع في الوسط، الذي به غلب الأولون.

هكذا تستطيع أن تتمم شهوتك الممدوحة حيث تتشبه بأبهاتك وتأخذ في عقلك مثل الرسم الذي ذكر في قصصهم.

أولئك الذين أحبوا السكوت بالتمام، لا بحب القريب اهتموا بانحلال أنفسهم، ولا من الوجوه التي يظن بهم أنهم ما كانوا يخضعون للقاهم وحيث كانوا يسلكون هكذا ليس

مهينين لاخوتهم الحكماء وأصحاب المعرفة.

ولكنهم كانوا يكرهون السكوت والفرار أكثر من لقاء الناس، لـيس لكـي يحقـر الإنسان أخاه يفر من لقاءه، لكن من أجل الثمرات التي تقطف من السكوت.

فلماذا كان الأبهات يفروا ؟

مار أرسانيوس ما كان يتنيح بلقاء الناس.

مار تاودرس كان إذ لقى إنسان، مثل سيف حاد كان يكون في لقاءه، ولا سلام كان يسلم على إنسان إذا لقيه خارجاً من قلايته.

وأيضاً القديس أرسانيوس ولا على الذين كانوا يجيئون يسلمون عليه ما كان يسلم.

وواحد من الأبهات ذهب يبصر القديس أرسانيوس، ففتح الشيخ الباب حيث كـان يظن أنه تلميذه، فلما أبصره الشيخ طرح نفسه على وجهه، ولأنه طلب إليه كثيراً قـائلاً: انهض يا أبي حتى أُسلم عليك عند الباب وأمضي، فأجابه القـديس: إنـي لا أقـوم مـن الأرض حتى تنصرف، ولم يقم حتى انصرف الأخ. وإنما فعل هذا الطوبـاني حتـى لا يعتادوا المجيء إليه.

فانظر قوة الكلمة، ولا تقول أنه لمحقرة أبي أن يفتح لـه ولا لأنـه يكـرم واحـد ويحقر الآخر، لكن بطريقة واحدة كانوا كل الناس عنده، وذلك في حال كرامة الـسكوت والصمت.

وقد علمنا أن ثاؤفيلس بطريرك الإسكندرية ذهب إليه مرة وكان معه والي الـبلاد، لكرامته والشوق إلى النظر إليه حملهم على القدوم إليه، ولما قدموا إليه ولا بكلمة صغيرة نيحهم، وقد كانوا مشتاقين أن يسمعوا كلامه. وقد طلب إليـه الأب البطريـرك رئـيس الأساقفة أن يكلمهم، فسكت الشيخ قليلاً ثم أجابهم قائلاً: إن أنا قلت لكم كلامـاً تحفظـون كلامي؟ فقالوا نعم. أجابهم وقال: حيث يبلغكم أن أرساني في مكان مـا لا تـذهبوا إليـه ولا تقلقوه.

آه إلى فضيلة الشيخ، أرأيت إلى زهد وقاره للناس، هذا هو حق الذي كان يعـرف كيف يقتطف ثمرة السكوت، ولم يتفكر القديس أنه رجل شريف ورئيس كهنة، لأنه كـان

يتفكر في ذاته قائلاً: أني مرة واحدة قد مت من العالم، فأي منفعة من الميت للأحياء.

وقد ليم على هذه التصرفات ملامة ممتلئة حباً من الطوباني مقاريوس لما قال لـه: " لماذا تفر منا يا أبانا؟ ". فأجاب الشيخ جواباً ممتلئ مدحة وقال: " الله يعلم أني أحـبكم، لكنني ما أقدر أن أكون مع الله ومع الناس ".

ومرة أخرى بعث إليه رئيس الأساقفة من أجل هذا فأجابه الشيخ قائلاً: " إن أنـت جيت فأنا أفتح لك، وإن فتحت لك أفتح للكل، وإن أنا فتحت لكل إنسان فما أقدر أن أجلس هاهنا ".

وهذا العمل العجيب ليس من آخرين قيل له، لكن صوت إلهـي ورد إليـه قـائلاً: " أرساني فر من الناس وأنت تخلص ".

لا يكن أحد من البطالين ومحبي الحديث يتقح ليحيد تردد كلامه أو يناصبه، أي أنه بحيلة أنسية طلب السكوت، بل أنه حقاً تعليم سماوي، ولكي ما لا يظن الشيخ أنه في حال الفرار والخروج من العالم قيل له، ولكنه أيضاً بالسوية ينبغي له أن يفر من الاخوة.

فعندما ترك العالم وصار إلى الدير صلى أيضاً إلى الله قائلاً: أرني يارب كيـف أستطيع أن أخلص، ودبرني بكثرة رحمتك وقد كان يظن أنه شيء آخر يقال لـه، فـسمع صوتاً إلهياً ورد إليه قائلاً: فر ـ واسكت ـ واصمت.

وإن كان منظر الاخوة وحديثهم نافعاً جداً، إنما أنت ما ينفعك تشتغل معهم مثـل منفعة الفرار منهم.

وحيث قبل الطوباوي أرسانيوس الإنكشاف الإلهي وهو في العالم، أمـره اللـه أن يفر. وحين صار مع الرهبان هذه الكلمة أيضاً قيلت له أن يفر أيضاً. حينئذٍ قنع وعـرف أنـــه لا يستطيع يقتني الحياة الفاضلة بفراره من العلمانيين فقط، بل ومن كل الناس بالـسوية، لعلمه أنه لا يمكن لإنسان أن يبطل كلام الله أو يضاده.

ومار أنطونيوس أيضاً قيل له بالانكشاف: إن كنت تريد أن تكون فـي الـسكوت، ليس فقط إلى التابيس تذهب، بل وإلى البرية الداخلية.

فإن كان الله أمرنا أن نفر من كل الناس، وهكذا هو السكوت إذا ثبت فيه الحيـاة، فمن ذا الذي يعتل بالأسباب وتعويقات الناس ويدوم في خدمتهم.

إن كان للقديس أنطونيوس والقديس أرسانيوس الاحتراس ينفع والفرار إلى الوحدة يعين، فكم بأفضل للصغار والضعفاء.

وإن كان أولئك الذين كان العالم كله محتاجاً إلى كلامهم والمنفعة مـن منظـرهم أكرموا بثباتهم في السكوت أكثر من منفعة الناس كلهم، فكم بأكثر زيادة الذي ولا لنفـسه يقدر أن يحفظ؟

ما ينبغي للإنسان أن يتخذ استرخاء الأفكار علتـه ويقـول: إنـه لا يمكـن هـذا ويبطل السكوت.

إن الطبيعة التي لا تغلب قد غلبها القديسون، والشيخ حين كـان يتهـاون بملاقـاة الناس يبنيه، لأنه كان يكرم السكوت لحال تلك الوصية القائلة حب الرب إلهك مـن كـل نفسك ومن كل قلبك وأفضل من العالم كله، بل وأفضل من الطبيعة وكل حوائجها.

وهكذا يتم إذا ما دمت في السكوت.

الوصية الآمرة بحب الأخ إنما تعنـي القريـب كوصـية الإنجيـل فـي داخـل نفسك، وعندما تبتعد منه حينئذٍ تشتعل بك حرارة حبه، وتشتاق إلى منظره مثل ما تحـب ملاك الضوء.

تريد أيضاً أن يشتاق إليك أحباؤك، تكون تنظر إلى وجوههم في أوقـات محـددة وبالحقيقة فإن الخبرة تعلم كل شيء.

القديس
الأنبا أرسانيوس

رسالــة
إجابة على سؤال للأب سيماؤن

السؤال:

إن سيدنا شبه الرحمة ـ رحمة القريب ـ بتلك الرحمة العُظمى أي رحمة الآب الذي في السموات، فلماذا اختار الرهبان السكون وآثروه عنها؟

الجواب: حسناً هو قولك وسؤالك لي عما ورد في الإنجيل هل يقاس تدبير السكون بالرحمة ؟ نِعماً تسأل عن مثل فـي الإنجيـل المقـدس (**مت ١٨ : ٢٣ - ٣٥**)، وأردت إيضاحاً عن السيرة العظمى سيرة السكون.

إننا لسنا ضد هذه الوصية ولا نطلب إبطالها كأمر زائد لا حاجة لنا به، فالرب حدد أن الرحمة تشبه عمل الآب ويقرب متمميها إليه، هذا أمر صحيح لا شـك فيـه، ونحـن الرهبان لا نلازم السكون لأننا بلا رحمة، بل نبتعد عن الاهتمام والتخبط بقدر قوتنا ونكون حريصين على ذلك.

ليس لأننا نقاوم الأمور الضرورية لكننا نتوافر على السكون حتى نَثبت ملازمـين لله تعالى.

وبهذا السكون يمكننا أن نهدأ ونصفوا كثيراً من المكدرات ونقترب من الله.

ولكن إذا ألجأتنا الضرورة في وقت ما، فما يليق بنا أن نتهـاون بالمحبـة لأجـل السكون ولنغصب أنفسنا دائماً لنصير كاملين في كل وقت في نطاق الرحمة لسائر الطبيعة الناطقة، وذلك لأن هذا بأمر وتعليم المسيح.

ومن قواعد سكوتنا وليس الأمر جزافاً أو كيفما اتفق فلا نحفظ فقط الرحمـة فـي داخلنا، بل متى دعت الحالة واضطررنا إلى العمل بسبب حـدوث أمـر مـن الأمـور الضرورية، فما يليق بواحد منا أن يتهاون في إظهار محبته بالفعل ظهوراً واضحاً.

سيما أولئك أصحاب السكوت الكُلي الذين فرضوا على أنفسهم أن لا يلاقوا أحداً إلا طِبقاً لقانون الأسابيع وأيضاً أولئك الذين فرضوا على أنفسهم سكوت لمدة أسابيع محـددة، فهؤلاء لا يمنعوا أنفسهم بسبب هذه القوانين، عن إتمام تلك الأشياء، لأنه ربما يكون هناك إنسان قاس بعيد عن محبة البشر ويكون سكوته للرياء.

وإذا كنا قد عرفنا أنه بدون محبة القريب لا يمكن للعقل أن يستنير فـي المحادثـة والحب الإلهي، فأي راهب ـ إذا كان من الرهبان الحكماء ـ عندما يرى أخوه أو قريبه جائعاً أو عرياناً، وكان لديه ملابس أو طعام ويحتمل أن يمسك هذه الأشياء عنه؟ أو مـن هو الذي يشاهد أخاه مريض الجسد وليس له من يفتقده، ولميله إلى السكون ولكي لا يقطع نظام الانفراد والتوحد، يؤْثِر ذلك على نياح أخيه وقريبه؟!

أما إذا لم توجد مثل هذه الأمور ولا هى قريبة منا فإننا نحفظ في عقلنـا المحبـة والرحمة نحو القريب، ومتى كانت هذه الأمور قريبة منا فلنكمل المحبة والرحمة للقريب عملياً أيضاً.

لأن الله يطالبنا أن نكملها ونتممها بالفعل، أما إن كنا لا نملك شيئاً من القنية فهو لم يأمرنا أن نلقي نفوسنا في اهتمامات وتخبطات لأجل المساكين، لكن يطلب منا مـا فـي مقدرتنا.

إن سيرتنا توجب علينا الابتعاد عن الناس وعن رؤيـتهم ومـن الاخـتلاط بهـم والجلوس معهم، ولا يليق بنا أن نترك قلالينا ومكان توحدنا وانفرادنا ونسلم أنفسنا لندور ونطوف العالم ونتعهد المرضى ونتشاغل بهذه الأعمال، لأنه من الظاهر أن هذه الأمـور هى انحطاط وانحدار من الأعلى إلى الدون.

أما إذا كان الراهب بالقرب من الكثيرين وسكنه بجوار الناس وينال راحة من تعب آخرين معه في زمان صحته ومرضه، فيجب عليه هو أيضاً أن يعمل معهم كما صـنعوا هم معه.

فلا يطلب هو راحته من آخرين، وعندما يرى بني جنسه وابن شكله وزيه في ضيق، لا بل الأولى أن نقول: أنه يبصر المسيح طريحاً متعباً، يفر ويختفي عنه، وينهزم من تخلية الكاذب عن السكون، فكل من كان هكذا فهو غير رحيم.

وإن أتيت إلي بذكر يوحنا التبايسي وأرسانيوس ومن يشبههما وتقول لي: من هؤلاء سلم نفسه إلى مثل هذه الأشياء أو اهتم بأحد المرضى والمساكين وترك السكون؟

أقول لك: لو كنت قد بعدت عن كل راحة بشرية وزهدت عن كل راحة بشرية وزهدت في لقاء الناس مثل هؤلاء لكان لك أن تطرح المرضى والمحتاجين ولا تتعاهدهم.

أما إن كنت بعيداً عن ذلك وعن طريق الكاملين، وتداوم على أتعاب الجسد، وتلازم الحديث مع الناس وقريب منهم في كل وقت، فينبغي ألا تتهاون بالوصايا التي يقتضي حفظها لِمن هم في منزلتك، ولا تحتج بسيرة الآباء العظماء والقديسين الكاملين الذين أنت بعيداً عن طرقهم.

وأنا أذكر هذا الآب العظيم، فما كتب عنه يقطع حجج الذين يتهاونون بإخوتهم..

إنه مرة ذهب ليفتقد أخاً مريضاً ولما سأله عما يشتهيه قال أشتهي خبزاً طرياً، فمضى ذلك المستحق الطوبى - القديس أبو مقار - من الإسقيط إلى الإسكندرية وكان ابن سبعين سنة واستبدل خبزه اليابس بخبز طري وأحضره إلى الأخ.

ولقد فعل أعظم من هذا قديس آخر من الآباء وهو الأب أغاثو، هذا الذي كان يلزم الصمت والسكون والهدوء طول أيام حياته أكثر من كل أحد، أنه مضى مرة إلى الريف ليبيع شغل يديه فوجد في السوق إنساناً غريباً ملقى مريضاً، فاستأجر له بيتاً وأقام معه يعمل بيديه وينفق عليه، ويدفع إيجار البيت، وظل يخدمه ستة أشهر إلى أن عوفي وبرأ، وكان هذا القديس يقول: إني أشتهي أن أجد واحداً مجزوماً فأعطيه جسدي وأخذ جسده، هذه هى المحبة الكاملة، محبة الخائفين من الله.

لقد قال الرب إن الناموس والأنبياء معلق بهاتين الوصيتين وهما: محبة الله تعالى، ومحبة القريب (مت ٢٢ : ٣٧ - ٤٠) وهذه - أي محبة القريب - عندما يكون بيدهم - أي المتوحدين - عملها وتكميلها فما كانوا يتركونها تفوتهم ولو كانت شاقة جداً.

أما الأولى - أي محبة الله - فهى بقصد وغرض اقتناء الثاؤريا وهى بطبيعتها تخص الفكر فلا تحتاج إلى العمل الجسدي أو عمل مادي لأن فعلها بسيط يكمل بالعقل، وذلك حسب بساطة المسجود له، الذي هو علة الكل والذي يفوق إحساس الجسد واللحم.

أما الوصية الثانية التي هى محبة القريب فهى تقوم على العلم والعمل، بحسب الطبع الإنساني المزدوج، فهكذا يكون عملها مزدوجاً، أعني أنه ينبغي أن يكون بالتصور العقلي وهذا الشق غير منظور، وتكمل أيضاً بالجسد ظاهرياً، أي تعمل خفية في الذهن وبالعمل، مع عمل النية.

وذلك لأن الطبيعة البشرية مركبة من جزئين أي الجسد والنفس وهكذا يكون تصرف الإنسان مزدوجاً حسب ازدواج خلقته.

ولأن العمل يسبق العلم في كل شيء، وغير ممكن لأحد أن يرتفع إلى ما هو أعلى قبل أن يكمل بالفعل المطلوب عمله بالجسد أولاً، لذا لا يقدر أحد أن يقول أنه يكمل محبة القريب أو يقتنيها إذا ما ترك هذا الجزء أي الذي يعمل بالجسد حسب القدرة والإمكان ومناسبة الفرصة وسهولتها.

وليس صحيحاً أن يكون قد اقتنى تلك المحبة بالتصور العقلي الصحيح، وهكذا تعرف وتكمل محبة القريب في المؤمن الحقيقي حسب الاستطاعة، وعند ذلك تعطي للنفس قوة لتنطلق إلى ذلك الجزء المرتفع الجليل والتصور للإلهيات بالخلجات البسيطة التي لا تشبه.

والإنسان الذي لا يكمل محبة القريب التي تتم بالجسد بأفعال منظورة بسبب توحده، يكفيه حينئذٍ أن يحفظ محبة القريب في فكره مع محبة الله، إذا كان قد اقتنى الجزء العالي

لاكتفائه بالحبس الدائم أما إن كنا عاجزين عن إتمام عمل السكون فينبغي أن نكمل الوصية الثانية أي محبة القريب بالعمل المحسوس كما تدعو الضرورة.

ونتمم راحة إخوتنا بتعب أجسادنا، ولا تكون حريتنا حسب هوى الجسد، إذ يكـون لنا فقط اسم التوحد وكأننا نتفاوض مع الله دائماً ونحن نهدس ونفكر ونشقى باطلاً.

لأنه معلوم لكل أحد أن من ابتعد عن المحادثات والخلطة بالناس والقرب منهم كلياً وصار مائتاً عنهم لأجل مفاوضته مع الله وحده، لا يطلب من مثل هذا أن يخدم الناس.

أما إن كان يتبع نظام سكون الأسابيع، فيخرج ويختلط بالناس في نهاية الأسـبوع ويتعزى بالمفاوضة معهم، ومع هذا يهمل الاعتناء بأخيه إذا نظره متضايقاً أو مريـضاً، ظاناً أنه يحفظ قوانين الأسابيع فهذا يكون بالحقيقة قاسياً، وأمره معروف أنه بسبب عـدم الرحمة وبسبب الأوهام الكاذبة لا يريد أن يدخل نفسه في شيء من هذه الأمور.

ومن البين الواضح أنه لا يمتلك الرحمة، واعلم أن المتهاون بالمريض لا يبـصر نوراً، ومن يغض نظره عن من هو في ضيقة يظلم عليه النهـار، والمـزدري بـصوت المتعوب فإنه في الظلام يسلك.

لا نمتهن بجهلنا الاسم العظيم .. اسم السكون، لأن لكل سيرة وتدبير وقت وزمـان وإفراز، وبغير ذلك باطل هو عمل الساعين كل في منزلته، لأن الله عارف الكل، وحسب القدرة يقبل عمله.

فالذي يرجو المساندة في وقت مرضه أو ضيقته من آخرين، فليضع هو أيضاً نفسه ويصنع هذا مع أخيه في وقت ضيقته وتجربته لكي يصير عمله بفرح في وقـت سـكوته بعيداً عن الكبرياء والأوهام وضلالة الشياطين.

لأن العمل الملائكي أي عمل السكون هو أمر عظيم متـى امتـزج بـه الإفـراز الضروري لأجل حاجتنا للتواضع لئلا نسرق من حيث لا نعلم.

ولقد قال أحد الآباء العارفين أن ليس شيئاً ينجي من شيطان العظمة ويساعد علـى حفظ العفة في وقت اشتداد قتال الزنى مثل افتقاد التعابى من أمراض وأسقام الجسد.

يا إخوتي... أنا قلت هذا لا لكي نهمل ونزدري بعمل السكون فنحن في كل موضع نتمسك بقولنا في هذا الصدد، ولم نحد هنا إلى الضد مقاومين لما قلناه، فلا يـتحجج أحـد المفسرين ولا يخرج معارضاً قولاً، فأنا أذكر أني قلت في مواضع كثيرة ـ داعياً وطالباً ـ إن عرض لإنسان أنه توقف تماماً عن ممارسة النسك بسبب مرض اعتراه، فـلا يختـار الخروج ـ كأنه أفضل ـ من توقفه هذا، ولست أعني بهذا أنه ما قـضت ضـرورة أن نخرج من حبسنا لكي نربح بذلك راحة أخينا أو حياته فلا نحسب هذا بطالة.

فإن فكر الإنسان أنه أعلى وأرفع من جميع الأمور الحاضرة وأن ابتعاده عن كـل عمل ظاهر منظور هو لأجل ثبات مداومته مع الله، فاختفائه عن هذه الأشـياء واجـب، ولماذا؟ لأنه عظيم هو عمل التمييز للقوم الذين يساعدهم الله، الذي بكثرة رحمته يمنحنـا أن نتمم القول الذي قاله: **" فكل ما تريدون أن يفعل الناسُ بكُم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم " (مت ٧ : ١٢)**.

الذي يليق له المجد والتسبيح إلى الأبد.

❖ ❖ ❖

الراهب الذي يحب اللـه:

وقد جاء في رسالتك أيضاً أن على الراهب الذي يحب الله أكثر من كل شـيء أن يهتم بتنقية نفسه.

حسناً قلت، إذا استطعت ذلك، وبما أنك قلت أن النفس لن تقتني دالة في الصلاة ما لم تتغلب على الأهواء أولاً، فإنك تجعلني ـ رغم جهالتي ـ أحـسب هـاتين الفكـرتين متناقضتين.

فالنفس التي لم تتغلب بعد على الأهواء، لا يمكنها أن تهتم بالنقـاوة. فـإذا كانـت لا تسير بموجب ناموس العدالة الروحية، وتتخبط بأهوائها فلماذا تطلب منها أموراً أعلى منها؟

إننا لا نستطيع أن نعرف محبة الإنسان من خلال ما يشتهي ولكننا نعرف شـهوته من خلال ما يحب.

لأن المحبة حسب القانون الطبيعي تسبق الشهوة، فـإذا لـم يحـب الإنـسان أولاً لا يستطيع أن يشتهي.

إن الأهواء باب موصد بوجه الطهارة، وإذا لم يفتح الإنسان هذا الباب فلن يستطيع أن يدخل مكان القلب الطاهر والنقي.

أما قولك أن النفس لا تملك دالة في الصلاة فهذا صحيح، فالدالة لا تفوق التغلـب على الأهواء وحسب، بل تفوق الطهارة نفسها، فالترتيب المؤكد هو كالآتي: الصبر الشديد يحارب الأهواء من أجل الطهارة، وبالتغلب على الأهـواء تكتـسب الـنفس الطهـارة، وبالطهارة الحقيقية يكتسب الذهن دالة في الصلاة.

أفلا يكون من الكبرياء والزهو أن نطلب من الله مجاناً أثناء الصلاة أن ينعم علينا بطهارة النفس التي خرج الراهب إلى البرية من أجلها؟!

فكما أن الابن أيها القديس يثق بأبيه ولا يلح عليه بالطلب قائلاً له: علمني حرفة أو أعطني كذا وكذا، هكذا ينبغي على الراهب أن يثق بالله ولا يكثر من طلباته، لأنه يعرف أن الله يعتني به أكثر مما يعتني الأب بابنه.

فالجدير بنا أن نتضع وننوح على الأمور التي سببت لنا الزلات التـي اقترفناهـا بدون إرادتنا بالفكر أو بالفعل. وأن نردد بقلب منسحق قول العشار: **" اللّهُمَّ ارحمني، أنا الخاطئ "** (لو ١٨ : ١٣) وأن نعمل في الظاهر وفي الخفاء ما علمنا الرب إياه: **" مَتى فَعَلْتم كل ما أمرتم به فقولوا: إنَّنا عبيدٌ بَطَّالون، لأنَّنا إنَّما عَملنا ما كان يجبُ علينا "** (لو ١٧ : ١٠)، حتى يشهد عليك ضميرك أنك عبد بطال وأنك بحاجة إلى الرحمة.

فإنك تعرف أن الأعمال لا تفتح باب القلب المغلق، بل الانسحاق والتواضع، خاصة عندما تتغلب النفس على الأهواء بتواضع وليس بترفع.

فالسقيم النفس يتضع أولاً ويهتم بشفائه وبعد ذلك يطلب أن يصير ملكاً، فالمملكة هى صحة النفس وطهارتها. إن الابن المريض لا يطلب من أبيه أن يجعله ملكاً، بل أن يهتم بشفائه أولاً، وبعد أن يشفى تصبح المملكة كلها له.

وهكذا الخاطئ التائب فإنه بعد أن يحصل على صحة النفس يدخل مع الآب إلى بلاد الطبيعة الطاهرة، ويملك في مجد أبيه (ملكوت السموات داخلكم).

عندما نتذكر القديس بولس الرسول وهو يتكلم عن زلاته ويضع نفسه في المكان الأخير قائلاً: **" أنَّ المسيح يسوع جاءَ إلى العالَم ليُخلِّص الخُطاة الذين أوَّلُهُم أنا " (١ تي ١ : ١٥).**

" ولكني ما نلت الرحمة إلا ليظهر المسيح يسوع طول أناته أنا الذي كفر به واضطهده وشتمه، لكن الله رحمني لأني كنت غير مؤمن لا أعرف ما أفعل ".

نتساءل متى قال ذلك؟ طبعاً بعد جهاداته الكثيرة وأعماله الجبارة وبعد كرازته بإنجيل المسيح في كل العالم، وبعد الميتات المتوالية والشدائد المتنوعة التي عاناها من اليهود والأمم.

لكنه كلما تطلع إلى أعماله الماضية كان يحسب أنه لم يبلغ الطهارة وأنه لا يستحق أن يحصى حتى مع مصف التلاميذ. ويقول: **" لستُ أهلاً لأن أُدْعَى رسولاً، لأنِّي اضطهدت كنيسة اللَّهِ " (١ كو ١٥ : ٩).**

ولكنه تغلب على الأهواء كما قال: **" أقمَعُ جسدِي وأسْتعْبدُهُ، حتَّى بعد ما كَرَزْتُ لآخرين لا أصيرُ أنا نفسي مَرْفوضاً " (١ كو ٩ : ٢٧).**

فإذا زعمت أنه كان يقول ذلك ليظهر جهاداته العظيمة التي كابدها في أمكنة متعددة، فسأتركه يقنعك: أني لم أفعل ذلك بإرادتي ولا من ذاتي بل من أجل الكرازة **(٢ تي ٤ : ١٧).**

وإذا تكلم بذلك من أجل منفعة المؤمنين كان يرفض كل فكر وكل افتخار ويهتف: أنتم الذين اضطررتموني ... أن ما أقوله هنا لا أقوله من أجل الرب بل أقوله كجاهل له

الجرأة أن يفاخر (**٢ كو ١١ : ١٧ ، ١٢ : ١١**).

هذا هو القانون العادل والصريح الذي وضعه أمامنا القديس بولس، فلنحفظـه إذن بغيرة ولا نكون لجوجين على الله عندما نطلب منه الأمور السامية، ولا يعطيها لنـا لأن الله يعرف الآنية المختارة لخدمته.

إن بولس المغبوط لم يطلب ملكوت النفس حتى بعد دعوته بل قـال: **" فإني كُنْتُ أوَدُّ لو أكونُ أنا نفسي محروماً مِنَ المسيح لأجل إخوَتي أنسبَائي حَسَبَ الجسد "** (رو ٩ : ٣). فكيف نتجاسر أن نطلب ملكوت النفس قبل الأوان الذي يعرفه هو، ونحن لم نحفظ الوصايا بعد ولم نتغلب على الأهواء ولم نفِ ديوننا؟

فأطلب منك أيها الأب القديس أن لا تدع أفكاراً مثل هذه تتسرب إلى نفسك، لأنـه يجب علينا أن نقتني صبراً في التجارب أكثر من أي شي آخر وأن نطلب من الله بقلـب منسحق وفكر متواضع غفران خطايانا واتضاع أنفسنا.

كتب أحد القديسين: من لا يحب نفسه خاطئاً تكون صلاته غير مقبولة لدى الرب.

فلا تظن أن الآباء عندما كتبوا عن طهارة النفس وصحتها، وعن اللاهوى، وعـن المشاهدة، قد فعلوا ذلك لكي يحثونا على طلبها قبل أوانها. فقد كتـب: **" لا يـأتي ملكوت اللَّهِ بمُرَاقبةٍ "** (**لو ١٧ : ٢٠**).

إن كل الذين فكروا هكذا تكبروا فسقطوا، أما نحن فسبيلنا أن نحرث أرض القلـب بأعمال التوبة والسيرة التي ترضي الله.

أما المواهب الإلهية فستأتي وحدها عندما تجد مكان القلب طاهراً وخالياً من الدنس.

فتلك الأمور السامية الإلهية التي نطلبها بالمراقبة مرفوضة في كنيسة الله، وكـل الذين حصلوا عليها بهذه الطريقة تكبروا وسقطوا.

إن هذا الأمر ليس دليلاً على محبتنا لله بل هو دليل على مرض نفوسـنا. فكيـف نتجاسر إذن على طلب الأمور السامية التي هى من أحكام الله، بينما بولس الإلهي كـان

يفتخر بالضيقات معتبراً الاشتراك بآلام المسيح اسمى من المواهب.

وقد ورد في رسالتك أيضاً أن نفسك رغبت أن تحب الله لكنك لم تبلغها مع أنـك تود ذلك بقوة.

وتقول أن التوحد في البرية هو شوقك، لقد بينت بذلك أن طهارة القلب قـد بـدأت تتجلى فيك وأن ذكر الله يتقد داخلك باستمرار، إن هذا لعظيم بالفعل خاصة إذا كان هـذا القول صحيحاً.

غير أني كنت أود لو لم تكتب ذلك إذ لا علاقة له بموضوعنا.

وحتى إذا كنت تخبرنا عنه على سبيل الاستفسار فالأمر لا يزال خارج الموضوع أيضاً.

فكيف يتجرأ من قال: إن نفسه لم تحصل بعد على الدالة في الصلاة لأنها لم تتغلب على الأهواء، أن يقول: إن نفسه تود أن تحب الله.

إن وسيلة تحريك المحبة الإلهية في داخلك والتي تسعى في سبيلها سرياً من خلال حياة الوحدة، تتم الغلبة على الأهواء.

لقد قلت إنك لم تتغلب على الأهواء بعد، وأن نفسك تود أن تحب الله، فلا شـك أن في الأمر تضارب، فأنا لا أستطيع أن أفهم من يقول أنه لم يتغلب على الأهواء ولكنه يود أن يحب الله.

تقول أنك لم تحب بعد، لكنك تود أن تحب ... وهذا أيضاً صعب المنال خاصة إذا كانت النفس غير طاهرة، أما إذا كنت تنطق بهذا الأمر لمجرد الكلام فقط، فلـست أنـت وحدك القادر أن يقول: إنه يريد أن يحب الله بل كل إنسان يستطيع ذلك سواء كان مسيحياً أو غير مسيحي، مع العلم أن هذه الأقوال لا تحرك إلا اللسان فقط، أما النفس فلا تـدرك ولا تعي شيئاً مما يقال.

اعلم أن هناك مرضى كثيرين لا يعلمون أنهم مرضى.

إن الشر هو داء النفس والضلال هو فقدان الحقيقة، ومعظم الناس ـ رغم إصابتهم بهذين المرضين ـ يعلنون أنهم أصحاء يهنئهم الكثيرون.

إذا لم تشفى النفس من الشر وتستعد حالتها الطبيعية السليمة التي كانت لها منذ البدء

لتولد من الروح سليمة يستحيل على الإنسان أن يشتهي مواهب الروح التي تفوق الطبيعة.

فما دامت النفس تعاني من مرض الأهواء لا يمكنها أن تحس بالمواهب الروحيـة ولا أن تعرف كيف تتمناها من ذاتها، بل تتمناها من خلال ما تسمع عنها ومن الكتب، إن ما قلته سابقاً صحيح، أي أنه على من يبتغون الكمال أن يحفظوا الوصايا كلها، لأن عمل الوصايا الخفي يعيد القوة للنفس.

وهذا الأمر لا يتم بسهولة. فقد كتب: " لا غفران بدون إهراق دم ".

فطبيعتنا حصلت أولاً على التجديد بتجسد المسيح واشتركت بآلامه وموته، وبعـد إهراق الدم تقدست وأصبح بإمكانها قبول الوصايا الجديدة الكاملة، فلو أعطيت لهـا هـذه الوصايا قبل إهراق الدم والتقديس، كما أعطيت في القديم لما كان باستطاعتها قلع جـذور الشر منها قلعاً نهائياً.

أما الآن فالأمر مختلف لأن تطبيق الوصايا الجديدة والروحية الذي تواظب الـنفس عليه باستمرار بمخافة الله يجددها ويقدسها ويشفي أعضائها كلها بحال سرية.

وهذا واضح من أن كل وصية تستطيع شفاء الهوى المسيطر على النفس بهـدوء تام مهما كان نوعه وتجعل الشافي والمريض على السواء يشعران بفعلها نظيـر المـرأة النازفة الدم.

أنت تعلم أيها العزيز أن النفس إذا لم يشف جانبها الشهواني وتتقدس وتلتصق بحياة الروح بحال سرية لا تستطيع أن تحصل على الصحة ولا أن تتحرر من الحـزن الـذي تسببه لها أمور العالم.

إن شفاءها يتم بالنعمة الإلهية كما حصل للرسل المغبوطين الذين نالوا ملئ المحبة بإيمانهم بالمسيح يسوع ربنا.

لكنها تشفى أحياناً من طريق الشريعة، فليعلم من تغلب على الأهواء بحفظ الوصايا والتشدد في قيامه بأعمال السيرة الحقيقية، إنه قد اقتنى صحة نفسه بإتباع الشريعة وانفصل عن العالم وانقطع من عاداته السيئة وتجدد روحياً كما كان قبلاً ووجد بالنعمة في مجـال

الروح في تأملات إنسانه الداخلي واستقبله عالم جديد بسيط غير مركب.

عندما يتجدد الذهن ويتقدس القلب تتحرك كل أفكار النفس حسب نظام العالم الجديد الذي دخله الذهن، فيشتعل فيه أولاً شوق الإلهيات والتشوق إلى مشاركة الملائكة والدخول إلى إعلانات أسرار معرفة الروح، وعندئذ يحس الذهن بمعرفته الروحيـة للمخلوقـات، وتشرق فيه مشاهدة أسرار الثالوث القدوس ويتجلى أمامه عمل التدبير المسجود له الصائر من أجلنا، فيتحد بمعرفة رجاء الدهر الآتي اتحاداً كلياً.

فكر في كل ما كتبته لك واعلم أنه لو كانت النفس قادرة أن تحب الله بالحقيقة وهى تقفل على نفسها داخل بلد الأهواء، لما كانت بحاجة كثيرة إلى الاستفسار لتـتعلم أسـرار عالم الروح.

لأنه واضح أن المعرفة والاستفسارات لا تؤثر على الأهواء ولا تستطيع أن تفـتح باب الطهارة الموصد أمامنا، لكن عندما تزول الأهواء من النفس يستنير الذهن ويثبت في موضعه الطبيعي النقي ولا يعود بحاجة إلى أسئلة، لأنه يـصبح قـادراً علـى مـشاهدة الخيرات التي فيه بوضوح.

إن حواسنا الخارجية ليست بحاجة إلى علم أو إلى استفسار لتعرف طبيعة الأشـياء الكائنة فيها، فكل حاسة تعرف بالطبيعة الشيء الذي تقع عليه، فمهما كلمت الأعمى عـن مجد الشمس والقمر وعن دوران الكواكب ولمعان الأحجار الكريمة لا يستطيع أن يدركها ويفهمها ويميز جمالها إلا بالاسم فقط، أما لذة رؤيتها فتبقى بعيـدة عـن تمييـزه وعـن معرفته.

وعلى هذا النحو تكون المشاهدة الروحية: فالذهن الذي يعاين أسرار الروح الخفية، إذا كانت طبيعة سليمة يرى مجد المسيح جلياً دون تعليم أو استفسار ويتنعم بلذة أسـرار العالم الجديد بحال تفوق حرية إرادته وذلك حسب حرارة إيمانه ورجاءه بالمسيح كما كتب بولس المغبوط: **" ولكِنْ إن كُنا نرْجُو ما لَسْنا ننظُرُهُ فإننـا نتوَقَّعُـهُ بالـصَّبر "** (رو ٨ : ٢٥).

علينا إذن أن نثبت برجاء في إنساننا الداخلي ونمكث هناك وحيدين ونتأمل ببساطة

حيث لا توجد انطباعات فكرية ولا رؤى مركبة أو معقدة فالأشكال التي يراهـا الـذهن تتوقف على كيفية تطلعه إليها.

إن الإنسان عندما يتطلع إلى العالم الخارجي، فإنه بمقدار ما يمعـن النظـر فـي تفاصيل الأشياء المتنوعة يجعل آثار صورها وظلالها تنطبع في ذهنه، فتتحرك فيه أفكار مختلفة حسب كثرتها ونوعية تبدلها، وبتحركها تختمه بختمها.

لكن إذا تطلع الذهن إلى الإنسان الداخلي، حيث يستحيل استعمال أي شيء لتبـديل الأشكال، وحيث لا وجود لما هو مركب وقابل للتقسيم، بل المسيح هو الكل في الكل.

فمن الواضح أن يقبل المشاهدة البسيطة التي لا يمكن لشيء آخر سواها أن يعطـر حاسة النفس بطيبة ويمنحها دالة في الصلاة. فهذه المشاهدة هى وحدها التي تغذي النفس.

وعندما يطأ الذهن أرض معرفة الحقيقة لا يعود بحاجة إلى الاستفـسار، فكمـا أن العين الجسدية لا تستفسر عن الشمس أولاً ثم تنظر إليها، هكذا عين النفس لا تتفحص أولاً معرفة الروح ثم تشاهدها.

وكذلك بالنسبة إلى المشاهدة السرية التي تتوق إليها أيها العزيز فهى لا تعلن للذهن قبل استعادة صحة النفس.

أما النفس التي تبتغي معرفة الروح بالفحص والتدقيق فهى مصابة بالجهل.

فبولس المغبوط عندما شاهد الأسرار الغامضة وسمع الأقوال غير المنطوق بهـا، والتي لا يستطيع إنسان أن يخبر عنها لم يقل أنه رآها وسمعها بالتعليم أو بوسـيلة مـادة أخرى (٢ كو ١٢ : ٤). بل سبى سبياً إلى بلاد الروح وشاهد إعلان الأسرار.

فإذا كنت أيها القديس ... تحب الطهارة فلا تبالغ في علاقاتـك وحبـك للجميـع، بل ادخل إلى كرم قلبك واشتغل فيه واقلع الأهواء من نفسك وجاهـد فـي أن لا تعـرف شر إنسان.

الطهارة تعاين الله، ولا تشرق في النفس وتزهر فيها عن طريق الاستفسار، بـل بعدم معرفة شر أي إنسان.

فإذا كنت تريد أن يصير قلبك مسكناً لأسرار العالم الجديد، فاغتن أولاً بالأعمـال الجسدية: بالصوم والسهر وعمل النسك والصبر ونزع الأفكار السيئة وغيرها.

ثم اربط ذهنك بقراءة الكتاب المقدس والتأمل فيه. اكتب الوصايا وضـعها أمـام عينيك وجاهد ضد الأهواء كلما غلبت أو غُلبت.

اتخذ الصلاة الدائمة والتقشف والتأمل وسائل لمحو كل صورة وكـل خيـال بـاق فيك من القدم.

عود ذهنك على التأمل باستمرار في أسرار تدبير المخلص ولا تهتم بالبحث عـن المعرفة والمشاهدة اللتين يعجز الكلام عن وصفهما وتحديدهما مكانياً وزمانياً.

واتبع حفظ الوصايا وقم بالأعمال التي تساهم في الطهارة.

واطلب من الرب أن يهبك الصلاة حزناً متقداً على كل شيء، كما أعطـى ذلـك لقلوب الرسل والشهداء والآباء لكي يرتوي قلبك منه وتؤهل لسيرة الـذهن التـي أولهـا ووسطها وكمالها الانقطاع عن الكل في سبيل الاتحاد بالمسيح.

❖ ❖ ❖

المشاهدة الروحية :

وإذا كنت تشتهي مشاهدة الأسرار فطبق الوصايا بنفسك فعلياً ولا تهـتم بفحـصها ومعرفتها.

إن المشاهدة الروحية تفعل فينا في مكان الطهارة نفسه فتعلم أنت أولاً كيف تـدخل إلى مكان أسرار الروح لأنه من هنا يجب أن تبدأ.

مشاهدة الأسرار تسبقها الطهارة التي تقوم على حفظ الوصايا، أما المشاهدة فهـى مشاهدة الذهن الروحية التي يعبر عنها بالدهش وإدراك كل ما حصل وما سيحصل.

المشاهدة هى معاينة الذهن المنذهل في تدبير الله الصائر من جيل وجيـل، وهـى إدراك مجده وفهم أمور العالم الجديد الصعبة التي ينسحق بها القلب ويتجدد ويغتذي كمـا يغتذي الأطفال بالمسيح بلبن الوصايا الجديدة الروحية وبصبر عديم الشر.

فيسلك في أسرار الروح وفي إعلانات المعرفة ويعتاد عليها مرتقياً من معرفة إلى معرفة ومن إدراك إلى إدراك.

فيتعلم ويتقوى سرياً إلى أن يسمو بالمحبة ويتحد بالرجاء ويدخل الفرح إلى أعماقه ويرتفع إلى الله ويتكلل بمجد الطبيعة التي خُلق فيها قديماً.

هذه العطايا الروحية ترفع الذهن إلى إعلانات المعرفة وتجعله يقع وينهض ويغلب ويغلب، ويشوى في أتون القلاية فيتنقى ويصبح رحمة ويؤهل عملياً لمشاهدة الثالوث القدوس التي تتمناها أنت.

إن الرؤى الطبيعية التي يسمو إليها الذهن ويعمل بها ويتروض فيها هى ثلاث: اثنتان منها تختصان بطبيعة المخلوقات الناطقة وغير الناطقة، الروحية والجسدية، أما الثالثة فتختص بالثالوث المقدس.

فالمشاهدة تتم أولاً في كل مخلوق يأتي إلى الخليقة، ومن الخليقة يعبر الذهن إلى إعلان المعرفة.

أما المخلوقات التي لا تقع تحت الحواس فتكون المشاهدة فيها عقلياً، لكن الذهن يملك مشاهدة ذاتية يعاين بها نفسه وهى التي اتخذها الفلاسفة غير المسيحيين وسيلة لتخيل الكائنات.

إن المشاهدة التي يملكها أبناء سر الإيمان (القديسون) تلتصق بالإيمان التصاقاً متيناً وترعى في روضة الكتاب المقدس الذي يضبط الذهن ويقيه من كل تشتت خارجي ويجعله يتحد بالمسيح كما حصل لباسيليوس وغريغوريوس، ويجعلها تتذوق الأقوال السرية المدونة فيه، فبالإيمان نتقبل الأقوال التي لا تدرك بالمعرفة، أما بالمشاهدة فنتقبل معرفة تفوق الأقوال.

لكننا لا نستطيع الحصول على هذه المعرفة إلا بعد التنقية. أما أسرار الروح التي تفوق المعرفة ولا تستطيع الحواس الجسدية أن تحس بها، ولا عقلانية الذهن أن تدركها، فقد وهبنا الله معرفة وجودها بالإيمان فقط، حتى يحرك في داخلنا الرجاء

والشوق إليها.

بالإيمان نعترف أن الله هو رب وسيد الخلق وخالق الكل وصانعهم.

وبالمعرفة ندرك أنه ينبغي علينا حفظ وصاياه، فالوصايا القديمة يحفظها الخـوف فقط **" إذ لـمْ تأخذوا روح العُبوديَّـةِ أيضاً للخوف، بَلْ أخذتم روح التبَنـي الذي بـهِ نــــــــــــــــــــصرُخُ: يــــــــــــــــــــا أبا الآبُ "** (رو ٨ : ١٥).

أما وصايا المسيح فتحفظها المحبـة **" إنْ حَفظتم وصـايايَ تثبُتون فـي محبَّتِـي، كما أني أنا قدْ حَفظتُ وصايا أبي وأثبتُ في مَحَبَّته "** (يو ١٥ : ١٠).

إن الابن لا يحفظ الوصايا خوفاً من أبيه بل محبة به ... لذلك أوصانا أن نحفظهـا حباً به **" إنْ كُنتم تُحبُّونني فـاحْفَظوا وصـاياي، وأنـا أطْلُبُ مِنَ الآب فيُعْطيكُم مُعزِّيـاً آخر ليَمكُث معكُم إلى الأبد "** (يو ١٤ : ١٥ ، ١٦).

إنه يدعو حضور المعزي مواهب إعلانات أسرار الروح، أي حلول الروح الـذي قبله الرسل، فحصلوا على كمال المعرفة الروحية، وقد وعدهم الرب أن يسأل الآب فـي إرسال المعزي لهم ليقيم معهم إلى الأبد بعد أن يحفظوا الوصايا ويصبحوا أنقياء.

أرأيت كيف أن الذهن، بحفظه الوصايا، يؤهل لنعمة المشاهدة الـسرية ولإعـلان معرفة الروح، وليس كما تظن حكمتك التي تدعى أن حفظ الوصايا يمنح مشاهدة الأسرار التي تتم في السكِينَة.

فأتوسل إليك ... إن كنت قد شعرت في ذاتك أنك بلغت بلـد المحبـة، أن تحفـظ الوصايا الجديدة حباً بواضعها لا خوفاً منه، كما قال بولس المغبوط عندما كـان ملتهبـاً بالمحبة الإلهية **" مَنْ سيَفْصلُنا عن محبَّةِ المسيح؟ أشدَّةٌ أم ضيقٌ أم اضْطهادٌ "** (رو ٨ : ٣٥)، **" فإنِّي مُتيقِّنٌ أنهُ لا موت ولا حياة، ولا ملائكـة ... تقْدرُ أنْ تفْصلنا عن محبَّـــــة اللَّـــــهِ التـــــي فـــــي المـــــسيح يـــــسوع ربِّنا "** (رو ٨ : ٣٨ ، ٣٩).

وحتى لا يظن أحد أنه كان يبتغي أجراً عظيماً أو كرامة أو موهبة روحية سامية، كما

تبتغي قدسك، قال: **" كنت أود أن أكون محروماً من المسيح حتى يتصالح معه إخوتي "** **(رو ٩ : ٣)**.

ولكي نتأكد أيضاً أنه لم يكن يسعى وراء المشاهدة السرية النسكية، كما تسعى أبوتك وراءها، بل كان يتمنى تلك التي أوهل لها كثيرون بنعمة الله فاسمع ما يقول: **" إنْ كُنتُ أتكلَّمُ بألْسنة النَّاس والملائكة ولكن ليس لي محبَّة، فقد صرْتُ نحاساً يَطنُّ أو صَنجاً يَرنُّ. وإنْ كانت لي نبوَّةٌ، وأعْلَمُ جميع الأسرار وكلَّ عِلْمٍ وإن كان لي كلُّ الإيمان حتى أنقُل الجبال، ولكِنْ ليس لي محبَّة، فلستُ شيئاً "** **(١ كو ١٣ : ١ ، ٢)**. فالمحبة هى الباب الشرعي الذي يدخل منه الإنسان إلى هذه المشاهدة، فإذا اقتنيناها نستطيع ولوجه.

وإذا افترضنا أننا سننا لها بالنعمة، أي بدون تعب، فلا شك أننا لن نقتنيها أبداً.

لأن قنية القديسين الكبار وحصنهم وسيرتهم الإلهية هى المحبة.

فعندما يقتني الراهب المحبة يملك قلبه السلام، ويفتح أمامه باب النعمة الذي يدخل منه الرب ويخرج، كما قال له المجد: أنا باب الحياة **(يو ١٠ : ٩)**. فإذا دخل منه الإنسان يحيا ويجد مرعى لغذاء حياته الروحية حيث لا يقدر شر ولا ضلال أن يقاومه. بل المحبة الإلهية تدخله وتخرجه من كل أبواب إعلانات المعرفة ومشاهدة الأسرار الإلهية. شأن أبناء المسيح الأحرار.

ولكي نتأكد من حقيقة هذا الكلام، أي أن سيرة الذهن الروحية هى مشاهدة إلهية، فاسمع بولس العظيم الذي يصرخ قائلاً: لست أرضى بالمشاهدة قبل أن أذوق طعم حزن المحبة الشرعي، ولا أرنو إليها ولا أرغب بها أبداً قبل اقتنائي المحبة.

وإن أعطيت لي مجاناً فأنا لن أدخل إليها إلا من الباب الطبيعي الذي هو المحبة.

فينبغي أولاً أن أقتني المحبة التي تسبق مشاهدة الثالوث المقدس وبعدها أحصل على مشاهدة الأمور الروحية بشكل طبيعي.

افهم حكمة بولس المغبوط ولاحظ كيف أنه ترك كل المواهب التي تعطى من النعمة

مجاناً وسعى للحصول على جوهرها " المحبة " التي تقبل المواهب وتحفظها كما قال أحد الآباء: " إن موهبة مشاهدة المخلوقات قد أعطيت لموسى ولآخرين كثيرين، لكـن لـيس بشكل جلي بل بالإعلانات، أما أنا الذي تعمدت بالروح القدس وامتلأت بالنعمة فإنني أقبل يسوع الساكن في بشكل حسي، لأن المسيح جدد طبيعتنا بأقنومه، فلبسناه بالماء والـروح واتحدنا به سرياً بحال لا توصف وأصبحنا أعضاء في جسده، أما هنا فبالعربون، وأما في العالم الجديد فبمنحه الحياة للأعضاء الأخرى بشكل طبيعي ".

فما بالك إذن تسعى وراء المشاهدة التي أعلنها بولس الإلهي مستحيلة ما لم تسبقها المحبة.

أما قولك إن عمل الوصايا يمنعني عن المشاهدة، فيتضح منه أنك ازدريت صحبة القريب وفضلت المشاهدة راغباً في معاينتها حيث لا تشاهد.

فنحن ـ أيها الحكيم ـ لا نستطيع الولوج إلى المشاهدة ما لم تعلن لنا ذاتهـا فـي الوقت المناسب.

فكما أن النفس تبدأ بتقبل المعرفة وتحسس الأشياء المحيطة بها وتتعلمها يوماً بعـد يوم حسب نموها وتقدمها، كذلك الحال في الأمور الروحية حيث يبـدأ الإنـسان بتقبـل المشاهدة الإلهية والحس الإلهي ويتعلمها تدريجياً حسب نموه في سيرة الـذهن وحـسب تقدمه ونجاحه.

وعند ما يبلغ بلد المحبة يعاين الروحيات في مكانها الخاص، لكنه إذا حاول كسبها بالضغط على نفسه فلن تطيعه، وإذا تجاسر بتكبر على مشاهدتها وإدراكها قبل الأوان فإنه يفقد بصره ويرى خيالات ورموزاً عوض الحقيقة.

فإذا أخذت هذه الأمور كلها بعين الاعتبار اعتقد أنك ستتوقف عـن الـسعي وراء مشاهدتك طالباً إياها قبل الأوان.

لكن إذا كنت تزعم الآن أنك تشاهد فاعلم أن مشاهدتك ظل خيالي وليس مـشاهدة حقيقية.

لأن كل شيء عقلي له صورة ومثال في مجال الخيال، يكون أحياناً حقيقياً وأحياناً

أخرى وهمياً، كما هى الحال في الأشياء المركبة المحسوسة التي تكون مشاهدتها أحياناً وهمية وأحياناً حقيقية.

فعندما تكون المشاهدة حقيقية يوجد نور، ويشاهد الشيء المرئي بجانب الحقيقة، لكن إذا حصل العكس، فعندئذ تشاهد العين الظل عوض الحقيقية، فالإنسان يشاهد أحياناً ماء حيث لا يوجد ماء، ويشاهد أبنية عالية معلقة في الهواء بينما هى في الحقيقة مبنية على الأرض، فلتخذ هذا الشبيه الذي من الأشياء المادية مقياساً لفهم الأمور العقلية والروحية.

فإذا لم تتنق بصيرة الذهن بحفظ الوصايا وأعمال سيرة السكينة ولم تقتن نور المحبة بكمالها ولم تنم قامتها المتجددة بالمسيح ولم تقترب من سمو معرفة الطبائع الروحي حسب ترتيبها، لا يستطيع الذهن أن يصير معايناً حقيقياً للإلهيات فكل الصور التي يحاول الذهن التقاطها ليست سوى خيالات وهمية، وهذا ناجم عن عدم تنقية لأنه لا يزال يشاهد أشياء بدل أخرى.

إن طبيعة الحقيقة ثابتة دائماً لا تتبدل ولا تتحول إلى أشكال متنوعة، أما الصور الخيالية فتنجم عن ضعف الذهن وليس العكس.

وهذا ما حصل للفلاسفة الوثنيين الذين لم يتلقنوا من الله التعليم الحقيقي لمعرفة الأمور الروحية. فبترفعهم وتشبثهم بآرائهم حاولوا معرفة الأمور من خلال جس النبض وحركات العقل ومعاني الأفكار وتكلموا عنها بطريقة غير لائقة، وحولوا عبادة الإله الواحد إلى كثرة الآلهة ودونوها حسب آرائهم الخيالية معتبرين هذه الآراء المعوجة أساساً لنظرية علم الطبائع.

إن المشاهدة الحقيقية للطبائع المحسوسة وغير المحسوسة وحتى مشاهدة الثالوث المقدس ذاتها تتم بإعلان المسيح الذي علمها وأظهرها للناس عندما جدد بأقنومه الطبيعة البشرية وجعل لنا من نفسه طريقاً نعبرها إلى الحقيقة بوصاياه المحيية.

إن الطبيعة البشرية لا تستطيع بلوغ المشاهدة الحقيقية إلا بخلع الإنـسان العتيـق، إنسان الأهواء، وبالصبر على الآلام والعمل والأحزان، كما يخلع الطفل المولـود حـديثاً غشاء الرحم عنه، وعندئذ يستطيع الذهن أن يولد روحياً ويبرز في عالم الروح ويعـاين وطنه.

إن مشاهدة المخلوقات مهما حلت تبقى ظلاً للحقيقة، وحلاوتها ليست بعيـدة عـن حلاوة خيالات الأحلام.

أما مشاهدة العالم الجديد الصائرة بإعلان الروح التي يتنعم بها الذهن روحياً فـلا تختلف عن تلك التي كتب عنها بولس الرسول: **" ما لم ترَ عَيْنٌ، ولَمْ تسمع أذنٌ، ولَمْ يَخطُرْ على بَالِ إنسانٍ: ما أعدَّهُ اللَّـهُ للذين يُحبُّونـهُ "** (١ كو ٢ : ٩). لقد أعلن اللـه هذه المشاهدة لقديسيه بواسطة روحه **" لأنَّ الرُّوح يَفْحصُ كلَّ شيءٍ حتى أعْمَاق اللَّـهِ "** (١ كو ٢ : ١٠).

هذه المشاهدة تكون بمثابة غذاء للذهن حتى يستطيع قبول مـشاهدة اسـمى مـن المشاهدة الأولى.

فالمشاهدة تنتقل بالذهن من معاينة إلى أخرى حتى تدخله وطن المحبة الكاملة.

المحبة بلد الروحيين ومقامها النفس الطاهرة.

عندما يمكث الذهن في وطن المحبة تفعل فيه النعمة ويشعر بحاجته إلى مـشاهدة الروح فيصير معايناً للأشياء الخفية.

قلت إن نعمة إعلانات مشاهدة الذهن لها مصدران: الأول: هـو النعمـة وسـببها حرارة الإيمان، أما الثاني: فهو عمل الوصايا والطهارة.

فبالنعمة أعطى إعلان المشاهدة للرسل المغبوطين الذين لم يؤهلوا له بتنقية ذهـنهم بعمل الوصايا، بل بحرارة إيمانهم.

فقد آمنوا بالمسيح ببساطة وقوة بقلب ملتهب غير متردد. وبعـد أن أنهـى عمـل تدبيره الإلهي أرسل لهم الروح المعزي فطهر ذهنهم وكمله، وأمات فيهم الإنسان العتيـق إنسان الأهواء، وأحي فيهم الإنسان الجديد، إنسان الروح. وبذلك قبلـوا حـس الأمـرين

الحياة والموت.

وبالطريقة نفسها تجدد بولس سرياً واقتبل مشاهدة إعلان الأسرار، لكنه لم يكتـفِ بها، رغم قبوله النعمة مجاناً، بل سعى كل حياته حتى يفي ما أعطى مـن نعمـة قـدر استطاعته منذ تكلم معه يسوع في الطريق، كخاص به، وأرسله إلى دمشق.

لم يدون الكتاب أن يسوع المسيح تكلم معه علانية، بل أن حنانيا قال لـه: **" أيُّها الأخُ شاول، قد أرسَلَني الربُّ يسوعُ الذي ظهرَ لكَ في الطَّريق الذي جئتَ فيهِ، لكي تُبصر وتمتلئ مِنَ الرُّوح القُدس "** (أع ٩ : ١٧). وبعدما عمده امـتلأ مـن الـروح القدس، ومنذ تلك اللحظة بدأ يشعر بإعلانات الأسرار الخفية، كما حصل للرسل القديسين عندما كلمهم يسوع وهو بعد معهم قائلاً: **" إنَّ لي أموراً كثيرةً أيضاً لأقول لكُم، ولكِنْ لا تستَطيعونَ أنْ تحْتملوا الآن. وأمَّا مَتى جاءَ ذاكَ، رُوحُ الحقِّ، فهو يُرشدُكُم إلى جميع الحقِّ "** (يو ١٦ : ١٢ ، ١٣).

يتضح من هذا أن بولس المغبوط أُهل لإعلان الأسرار بعد إقتباله الـروح القـدس وتجدده به، فبدأ يشاهد إعلانات روحية ويتنعم بها ويسمع أقولاً غير منطوق بها ويعـاين رؤى تفوق الطبيعة، ويتمتع بمشاهدة القوات السماوية والأمور الروحية.

فإنه لم يصعد إلى هناك بإرادته الذاتية، كما يزعم هـؤلاء الهراطقـة المـدعوين أفخيتيين. فالصعود إلى هناك يستحيل على الذهن كلياً، بل سبى سبياً بإعلانات الروح، كما كتب في الرسالة إلى أهل كورنثوس لمعارضة الذين يضعون أنفسهم في مصف الرسـل القديسين، ويعتبرون تخيلات أفكارهم رؤى روحية، وقد حذا حذوهم كثير من الهراطقـة المنتشرين في أمكنة متعددة أمثال أوريجنس وفالنتينوس وابن داشان ومركيون ومـانيس وغيرهم من زعماء الهراطقة القدماء من أيام الرسل إلى يومنا.

لما حاول بعض الناس الذين أفسدتهم الأوهام الشيطانية أن يفسدوا تعليم الرسل المغبوطين، اضطر بولس الإلهي إلى دحض تبجحات الهراطقة الذين كانوا يتفاخرون بأعمال الشيطان الخداعة التي تتراءى لهم، وأخذ يسرد بتواضع وخوف شديدين قصة مشاهدته الإلهية ناسباً إياها إلى شخص آخر وقائلاً: **" أعرفُ إنساناً في المسيح قبلَ أربع عشرة سنةً. أفي الجسد؟ لستُ أعْلَمُ، أمْ خارج الجسد؟ لستُ أعْلَمُ. اللَّه يعلمُ. اختطفَ هذا إلى السَّماءِ الثالثةِ. وأعرفُ هذا الإنسان: أفي الجسد أمْ خارج الجسد؟ لستُ أعْلَمُ. اللَّه يعلمُ. أنهُ اختطفَ إلى الفردوس، وسَمع كلماتٍ لا يُنطق بها، ولا يسوغ لإنسانٍ أنْ يتكلَّم بها "** (٢ كو ١٢ : ٢ - ٥). لقد كتب هذه الأمور وخبر عنها لأنه رآها وسمعها.

أما مضمون الأقوال وتفاصيل المشاهدة فلم يستطع أن يكتب عنها شيئاً، لأن ذهنه كان مخطوفاً بإعلان الروح، ولم يستطع نقل ما شاهده والتكلم عنه خارج مكانه مع إنه كان يريد ذلك.

لأنه لم يرها بعينيه الجسدنيين، فالذهن لا يستطيع التعبير الجسدية إلا داخل إطار المحسوسات وعن الشيء الذي يتقبله من خلال الحواس الجسدية، أما ما يشاهده أو يسمعه أو يدركه بالروح فيعجز عن التعبير عنه عند رجوعه إلى الجسد، ولا يستطيع أن يفعل أكثر من أن يتذكر ما شاهده فقط، أما كيف شاهد، فهذا ما لا يستطيع إيضاحه.

وبهذا فضحت المؤلفات الكاذبة المدعوة إعلانات والتي نشرها زعماء الهرطقات الفاسدون بأوهام الشياطين، حيث يتكلمون على المساكن الفلكية ويقودون الذهن إليها لكي يتعلم من ذاته طريقة الولوج إلى السماء ويعرف الأماكن المعدة للدينونة ويميز رتب القوات الملائكية.

لا شك أن هذه الأقوال هى دليل ترنح الذهن بخمر العجرفة وسلوكه في الضلال وارتباكه بأعمال الشياطين، ولهذا اتخذ بولس الرسول الصمت باباً وأغلقه بوجه كل نظرية إغلاقاً محكماً، ولو استطاع الذهن أن يعبر عن المشاهدة لكان قد كتب عنها، فكل مشاهدة

يعبر عنها باللسان البشري تكون حصيلة تفكير عقلي نفسي وليس من فعل النعمة.

إن هذه الحرب كما تعلم، أيها البار، من خلال مراقبتك الهواجس الفكرية العميقـة، تتولد داخل الرهبان ذوي الأفكار الحادة الذين يحاولون استقصاء الأمجاد الباطلة ويرغبون في استنباط أمور جديدة ويحبون الجدل.

كان في الرها راهب يدعى مالباس وقع في هرطقة الأفخيتيين، وكان يسلك سـيرة نسكية شاقة، محتملاً الأتعاب والشدائد. وكان في وقته قديساً يشرح الأمور التـي تكلمنـا عنها آنفاً ويقول: إن الذهن لا يستطيع الحصول على مشاهدة أسرار الروح إلا بعد تنقيته. وأن النفس تؤهل للاهوى بالنعمة الإلهية بعد أن تخلع عنها الأهواء بعمل الوصايا وتستعيد سلامة طبيعتها الأولى.

فلما سمع مالباس هذه الأقوال وهو بعد في ريعان الصبا التهب كالنار، ورجع إلى مدينته، وحب المجد متقد فيه، فاختار له منسكاً منفرداً وحبس نفسه فيه وابتدأ بالأعمـال النسكية وتحمل الشد والصلوات الدائمة.

وقبل أن يتعلم فن الحرب ضد أعداء الحقيقة وكشف ألاعيب المحارب وفضح حيله المضلة التي يخدع بها الأقوياء ويحدرهم إلى الهلاك.

اشتعل فيه جنون المجد الباطل آملاً الوصول إلى تلك الأمور السامية التي سمعها، فاعتصم فقط بالأعمال والشدائد وعدم القنية والنسك والتعفف دون أن يهتم بإفنـاء نفـسه واتضاعها وبانسحاق قلبه، ولم يتذكر الكتـاب القائـل: **" مَتى فَعلتُمْ كلَّ ما أمرتم بـهِ فقولوا: إنَّنا عبيدٌ بَطَّالونَ، لأننا إنَّما عَملنا ما كان يجبُ عَلَينا "** (لو ١٧ : ١٠).

بل كانت رغبته في الأمور السامية التي سمعها تلهب نار الخيلاء فيـه، وأعمالـه النسكية تزكيها.

فبعد أن قضى زمناً طويلاً في هذه السيرة، شاهده الشيطان عارياً مـن التواضـع ولا يرغب إلا في الأسرار التي سمع بها. فظهر له داخل فيض من النور غير المحـدود

وقال: أنا هو المعزي وقد أرسلت إليك من الآب لأجعلك أهلاً للمشاهدة التـي تتمناهـا، مكافأة على أتعابك، ولأمنحك موهبة اللاهوى وأريحك من أعمالك المضنكة ...

ما إن انتهى ذلك المحتال الخبيث من كلامه حتى طلب منه أن يسجد له، فقبل ذلك الغبي وسجد له لأنه كان يجهل أساليبه فوقع في الحال أسيراً بين يديه.

فأخذ يملأه بالخيالات الشيطانية بدل المشاهدة الإلهية وجعله يطـالاً عـن أعمـاق الحق، ورفعه وهزأ به وسخر باللاهوى الباطل الذي كان يأمل به وقال له: منذ الآن لست بحاجة إلى العمل وقهر الجسد والجهاد ضد الأهواء والشهوات.

وبهذا جعله زعيم الهراطقة الأفخيتيين ثم فضح تعليمه الفاسـد والغـاش فطـرده الأسقف مع أتباعه.

راهب آخر من المدينة نفسها يدعى اسيناس، الذي نظم ثلاث ترانيم ما تزال ترتل إلى الآن، كان يسلك سيرة قاسية ويفرض على نفسه أعمالاً نسكية صعبة دون تمييز، فنال مجداً بشرياً. لكن الشيطان أضل هذا الراهب وأطلق من قلايته وأصعده إلى جبل يـدعى ستوريوس وأراه عربات وأفراس وقال له: لقد أرسلني الله لآخذك إلى الفـردوس نظيـر النبي إيليا، فخدع بسبب جهله، وما أن هم بالصعود إلى العربة حتى تبددت الرؤية عنـه فسقط على الأرض من علو شاهق ومات موتاً مخزياً.

لم أتكلم بهذه الأمور عبثاً، بل لنتعلم بعض الأمور حتى لا نكون سخرية للشياطين المتعطشة إلى هلاك القديسين، وأن لا نحاول قبل الآوان، بلوغ الأمور السامية المتعلقـة بسيرة الذهن، حتى لا يهزأ بنا العدو الشرير، لأني أرى اليوم شـباناً ممتلئـين بـالأهواء يكثرون من الكلام ويؤلفون تعاليم حول أسرار اللاهوى دون خوف.

كتب أناس ممتلئون بالأهواء إلى أحد القديسين يشرحون لـه أحـوال المتجـسمين واللامتجسمين، وهم لا يختلفون كثيراً عن المرضى الذين يصفون أحوال الأصحاء.

إن بولس المغبوط عندما شعر أن تلاميذه بدءوا يهملون الوصايا، وإنهم يتوقون إلى مشاهدة الأسرار التي لا تحصل إلا بعد التنقية، قبل أن يتغلبوا على أهوائهم، قال لهـم: " **أنْ تخْلَعوا من جهةِ التصرُّف السَّابق الإنسان العَتيق الفاسد بحَسَب شهَوات الغرور، وتتجدَّدوا بروح ذهْنكُم، وتلْبَسُوا الإنسان الجديد المخلوق بحَسَب اللَّهِ في البرِّ وقداسةِ الحقِّ** " (أف ٤ : ٢٢ ـ ٢٤).

لكن لا تطلبوا تلك المشاهدة التي أعطيت لي وللرسل بقوة فعل النعمة: " **فإذاً هو يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ، ويُقسِّي مَنْ يَشاءُ** " (رو ٩ : ١٨)، فهل يقدر أحد أن يقف أمام وجهه وأن يقاوم مشيئته؟ إنه ـ أحياناً ـ يهب مجاناً، وأحياناً يطالب بالأعمال والطهارة معـاً، وأحيانـ ـاً

لا يمنح الطهارة في هذه الحياة حتى بعد العمل، بل يحفظها إلى أوانها.

وهذا نراه أيضاً في مغفرة الخطايا. إنه يمنح المعمودية مجاناً دون أن يطلب منـا شيئاً سوى الإيمان، أما التوبة عن الخطايا بعد المعمودية، فلا يقبلها مجاناً، بل يطلب معها أتعاباً وضيقات وأحزان الندم ودموعاً وعويلاً، وبعد ذلك يغفر.

فاللص باعترافه له وهو على الصليب نال الغفران وملكوت السموات، أما المـرأة الخاطئة فقد طلبت ذلك بالإيمان مع الدموع والأفعال الحسنة. وطلب من الشهداء والمعترفين بالإضافة إلى الإيمان القلبي: الضيقات والعذابات والتمشيط والميتات المتنوعة.

وبما أن قدسكم مقتنع بهذه الأمور وأمثالها، فانتبه للأولى والأخيـرة (مـا قبـل المشاهدة وما بعدها)، ولا تطلب المشاهدة قبل أوانها، بل اجتهد في أعمال التوبة ما دمت مرتبطاً بالجسد، وصارع الأهواء، وكن صبوراً في عمل الوصايا ومحترساً مـن خـداع الشياطين ومن الذين يكرزون بالكمال الثابت والتام في هذا العالم المتقلقل المليء بالأهواء، لأنه مستحيل حتى على الملائكة القديسين الذين يخدمون الآب والروح والذين ينتظـرون التجديد الثاني ليعتقوا من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله. (رو ٨ : ٢١)

فهل يمكن أن يكون كمال تام في هذه الحياة التي تشرق فيها الشمس أحياناً ثم تغيب؟ ويكون الجو صافياً ثم يتعكر؟ ويشملها الفرح أحياناً ثم يليه الحزن ؟

إن من يفكر عكس هذا تكون حصته كما قال أحد القديسين ... مع الذئاب.

فليوطد الله سيرتنا في حياة الحق وفي تعليمه المقدس ...

له المجد والعز والجلال ...

الآن وكل أوان وإلى منتهى الدهور.

آمين.

فهرس الجزء الثالث

- مقدمة ٧

الباب الأول : في محبة الله ٩

الباب الثاني : عن الطياشة والشباب والتجارب والسقوط ٢

الباب الثالث : مصاحبة الفضائل ٣

الباب الرابع : ٣

الباب الخامس : في كون النفس قابلة للأهواء وفي أعمال الزهد ٧

الباب السادس : ٤

أسئلة وأجوبة في تدابير متقنة وسائر أنواع الفضائل ٩

في تدابير السيرة الرهبانية وأقسامها ٧

..... ٣

في أقسام جهات القتال الموجهة من المحال إلى السالكين في المنهج الضيق الذي يفوق العالم: ٧

..... ٥

النوع الأول : حروب المحال للمتهاونيين ٧

النوع الثاني : من قتالات العدو ٥

النوع الثالث : من عناد القتال وهو نحو الأبطال ٧

النـــــــوع ٠
الرابـع : مـن عنـاد القتـال المحاربـة بحاجـات الطبيعـة . ٨
..... ١
البـــــاب الـــــسابع : فـي المنفعـة التـي تكـون نتيجـة القـرب مـن اللـه ٨
تعالى ٥
البـــــاب الثـــــامن : عن الخطايا التي من جهة الإرادة والتي من جهة ٨
البـــــاب التاســـــع : العرض . ٩
البـــــاب العاشـــــر : المقـصود بالتوبـة فـي الكتـاب المقـدس الإلـهـي . ٩
البـاب الحـادي عـشر : ٢
الأسباب التي بها يحفظ جمال السيرة الرهبانية . ٩
..... ٥
البـاب الثـاني عـشر : عـن عـدم العـودة إلـى المحادثـات الباطلـة . ٩
البـاب الثالـث عـشر : ٧
في التغيير الحادث للسالكين في طريق السكوت . ٩
البـاب الرابـع عـشر : ٩
في ذوي السكون متى يحسون أن أعمالهم بدأت
البـاب الخـامس عـشر : تجـــــــود علـــــــيهم بالثمـــــــار . ١
البـاب السادس عـشر : ٠
البـاب الـسابع عـشر : فـي صحة الرجـاء باللـه، ومـن هـو المؤهل لـه . ٠
البـاب الثـامن عـشر : ١
البـاب التاسـع عـشر : فـي أنـه نـافع لـذوي السكون التعطل من الاهتمام ٠
البـــــاب العـــــشرون : الأرضـــــــــــــــــــــــــــــــــــــي . ٢
البـــــاب الحـــــادي
والعـــــــــشرون : ..... في أن السهر وتيقظ العقل يوصلان إلى معرفة ١

الأسرار الإلهية . ٠
الباب الثاني والعشرون ٦
: في قوى الرذائل وفي أي الأشياء تقوى ومن أيها
الباب الثالث والعشرون تبطل ١
: في حفظ القلب والتصور اللطيف . ٠
الباب الرابع والعشرون ٩
: في محبة الله تعالى . ١
الباب الخامس ١
والعشرون : في أنواع الفضائل: وغير ذلك . ٣
الباب السادس ١
والعشرون : عن الصوم الدائم والدوام في موضع واحد . ١
الباب السابع والعشرون ٩
: في السكون والهدوء . ١
الباب الثامن والعشرون ٢
: في أنواع التجارب المختلفة . ٢
..... ١
الباب التاسع والعشرون على العظمة . ٢
: ٤
الباب الثلاثون : عن أقسام الفضيلة: قوتها وتميزها . ١
الباب الحادي و الثلاثون ٢
: عن الطهارة . ٧
الباب الثاني و الثلاثون ١
: عن الأمانة . ٣
..... ٥

عـــــــــــــن التوبـــــــــــــــة . ١
الباب الثالث و الثلاثون ٣
: فـي كميـة مقـدار العلـم ومقـادير الأمانـة فيهـا . ٩
١
.....
يـشتمل علـى عظـات مفيـدة ومعـانٍ نافعـة . ٤
٢
.....
عن الخاطر الأول: الحركة الملائكية التي تصير ١
لنجـــــــــــاح الـــــــــــنفس . ٤
٥
.....
في العمل الثاني: الموجود في الإنسان: العمل ١
البار ٤
عن التغيير الحادث في النفس في وقتي النور ٨
والظلام ١
يتـــضمن أقـــوال نافعـــة: عـــن المماحكـــة . ٤
٩
.....
في الأفكار الرديئة الحادثة كرهاً من قبل التواني ١
الكـــــــــــــــــــــــــائن ٥
مـــــــــــــن قبلهـــــــــــــا . ٠
١
.....
فـــــــي صـــــــلاح اللَّـــــــه تعـــــــالى . ٥
٣
.....
في الصبر من أجل محبة الله تعالى وكيف ١
المـــــــــساعدة والمعونـــــــــة فيـــــــه . ٥
٦
.....

١

٦

٧

١

٦

٩

١

٧

١

١

٧

٣

١

٨

٢

١

٨

٥

١

٨

٨

رسائل مار إسحق السرياني .

١	رسالة لأخ يحب السكوت .	١
٢	.....	٩
٣	رسالة إجابة على سؤال للأب سيماؤن .	٢
٤	.....	١
	الراهب الذي يحب الله أكثر من كل شيء .	٩
	.....	٦